

كتاب الهلال



# حياة قلم

تأليف  
عباس محمود العقاد

تقديم  
طاهر الطناحي

عدد  
خاص

سلسلة ثقافية شهرية

١٤  
قرش



# كتاب الهلال



مسألة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



# حياة قلم



تأليف

عباس محمود العقاد



تقديم

طاهر الطنحاحي



دار الهلال



## تقديم بقلم طاهر الطناحي

في شهر يوليو الماضي أصدرت سلسلة كتاب الهلال ، كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد . . وقد حوى هذا الكتاب أربعين مقالا ، تناولت حياته الشخصية بما لها من صفات وطباع وخصائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو أنطبع في نفسه من ايمان وعقيدة ومبادئ ، وبما تأثر به من بيئة واساتذة ، أو بعسارة جامعة : « عباس العقاد الانسان » . . !

وكنت المعت في مقدمة « أنا » الى أن حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصي انساني ، وجانب اجتماعي عام ، يتصل بمن عاصرهم وعاشرهم من الناس في حياته الصحافية والادبية والسياسية . ويتناول الاحداث التي اشترك فيها ، وخاض من اجلها عدة معارك قلمية . وكانت صناعة القلم ابرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة ، وهو في السادسة من عمره

وفي منتصف اغسطس سنة ١٩٥٧م اخذ يكتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي من حياته بعنوان « حياة قلم » . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هذا القلم في اسوان ، وتحدث عن ظروف هذه الولادة ، وعن الجيل

الذى ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم عبد الله النديم في ذلك الحين ، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعى الجرائد ، وفى مقدمتهم المعلم « عكريشة » ، وعن احاديثه مع الساسة من اوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة فى الحرب العالمية الاولى ، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد اليها الى آخر ما تناوله فى الفصل الثامن فى هذا الكتاب « حياة قلم » حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول او المذكرات التاريخية التى تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر ، ومرجعا للمؤرخ فيما عالجه العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التى تناولت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه .. !

ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، واحداث واطوار ، لهذا القلم فى الميدان العام .. فهل عوضتنا كتاباته الاخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

## - ١ -

الواقع ان حياة العقاد العامة ، او حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩م تكاد تكون معروفة لابناء هذا الجيل من زملائه الادباء والصحافيين . ومن السهل الرجوع اليها فى الصحف والمجلات التى اشترك فيها ، وعالج فيها ما عالج من موضوعات سياسية واجتماعية وادبية . وقد كان كاتب الوفد الاول منذ فجر هذه الثورة الى ان اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥م كما سيجيء فى هذه الصفحات ..

وقد كتب عن هذه الثورة ، وابدى آراءه في رجالها واحداثها كىاسى مفكر ، وكوطنى كبير ، مستقلا عن آراء حزبه ، وان كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التى تتفق مع آرائه فى ذلك الوقت . وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الاستاذ كامل سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصرى حين سافر الوفد الى أوروبا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا فى مجلة الثقافة فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠م بعنوان : « سعد زغلول كما عرفته ، رجلا ، وزعيما ، وسياسيا » . وقد جاء فيه :

« وسألته مرة عن رايه فى كاتب كبير - يعنى العقاد - فقال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع . ما قرأت له بحثا ، أو رسالة فى جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا احاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد . . وله اسلوب ادبى فريد » !!

## - ٢ -

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذى ألفه العقاد سنة ١٩٣٦م يستطيعون ان يلموا بتاريخ زعيم الثورة واحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها الى ان توفى « سعد » فى أغسطس سنة ١٩٢٧م . ويعد هذا الكتاب من حياته السياسية و « حياة قلمه » وطورا من اطواره الوطنية

ولما توفى سعد زغلول ، وكانت الاحزاب المصرية مؤتلفة مع الوفد ، لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم ما لبث الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الاحرار الدستوريين .



وتولى زعيم هذا الحزب رئاسة الوزارة ، وعطل الحياة النيابية ، وحكم البلاد بيد من حديد ، حتى دعى حكمه باليد الحديدية . ورأى « العتاد » أن مصر فى ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتورى ، وكان « موسولينى » قد ظهر فى إيطاليا بالدكتاتورية السياسية ، فألف كتابه « الحكم المطلق » فى القرن العشرين وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادى حملة شعواء ، وأبان فساد سياسيا وعلميا واجتماعيا . وتحدث عن الديمقراطية ونجاحها ، ونجاح الحكم النيابى . ثم أصدر كتاب « اليد القوية فى مصر » سنة ١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد أصبح عدوى فى بعض البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بديكتاتوريته فى ألمانيا ، فكتب العقاد عدة مقالات ضده ، ثم أخرج كتاب « هتلر فى الميزان » . ثم كتاب « النازية والاديان » ..!

وكانت سنة ١٩٣٠م وقد أعيدت الحياة النيابية ، وكان العقاد وقتئذ عضوا فى مجلس النواب . ثم أشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة ، ويعطل الحياة النيابية . فوقف على منبر المجلس فى إحدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور ، وحل البرلمان . واحتد فى خطابه ، ودفعته وطنيته الجسريئة الصريحة الى أن قال كلمته المشهورة :

« ان الأمة على استعداد لان تسحق اكبر راس فى البلاد يخون الدستور ، ولا يصونه » ..!

وكان لهذه الكلمة دويها فى جميع الاوساط ، واتخذها المنافقون والملكيون حجة ضده ، وحباله ينصبونها للايقاع به والانتقام من جراته .. ولما كان وقتئذ عضوا فى مجلس النواب الذى أعيد بعد استقالة رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يتربصون

له حتى عطلت الحياة النيابية في وزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحزر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة .. وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب في الذات الملكية » . فحوكم في أكتوبر سنة ١٩٣٠م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، قضاها بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما أفرج عنه في شهر يوليو من ذلك العام قصد فوراً ضريح سعد زغلول وأنشد في مستقبله من الجماهير قصيدته الوطنية : « على ضريح سعد » التي يقول فيها :

الى الذاهب الباقي ذهاب مجدد  
وعند ثرى سعد مثاب ومسجد  
الى مرجع الاحرار في الشرق كله  
الى قبلة فيها الامام موسد  
نحى من الدنيا التي نستعيدها  
مكانا من الدنيا له العود احمد  
ثم ختمها بقوله :

وكنت جنين السجن تسعة اشهر  
فهانذا في ساحة الخلد اولد  
ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى  
وفي كل يوم ذو الجهالة ياحد  
عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما  
سبيهدنى كل كما كان يعهد

وبعد خروجه من السجن ببضعة اعوام استكتبته مجلة « كل شيء » في « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالات جمعها في كتاب بعنوان : « في عالم السدود والقيود » ولا ريب ان هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة من حياته وحياة قلمه . وقد استكتبته يوما لمجلة المصور

عن تجاربه في الانتخابات . وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها . فكتب مقالا طويلا . تقتبس منه ما يلي :

• مارست الانتخابات بانواعها التي عرفناها في مصر منذ اعلان النظام الدستوري الحديث . مارست الانتخاب على درجتين ، والانتخابات على درجة واحدة . واختبرت الاخفاق في هذه التجارب ، كما اختبرت النجاح بالتزكية ، والنجاح بالكثرة الساحقة

• وفي وسعي أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الانواع . وان كانت الكلمات المحققة في شئون الانتخاب أقل من القليل . !!

• فالمحقق عندي في الانتخاب على درجتين أنه نظام لا مزية له على الاطلاق . وانما تظهر صورته في حالتين غير محدودتين : احدهما تدخل الادارة ، والثانية شراء الاصوات . .

« اما الفوز بالتزكية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، وأشاروا في علاجه الى اعادة باب الترشيح مرة اخرى في كل دائرة لم يتقدم لها اكثر من مرشح واحد » اما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت اصعب هذه الصعوبات . وهو يدل الوعود الانتخابية والسعي في تحقيقها . واذا قلت الوعود الانتخابية ، فانما اعنى الوعود العامة ، ولا اعنى الوعود الشخصية . لاننى اعلنت في كل دائرة تقدمت فيها اننى لن أقبل الوساطة في مسألة شخصية ، الا أن تكون تقريرا لحق ، أو دفعا لمظلمة . . »

- ٣ -

عاش « العقاد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨م - ومنذ قامت الثورة القومية في سنة ١٩١٩م بقيادة سعد زغلول -

- ١٢ -

في جهاد وطني عنيف ، مؤيدا لسياسته ، فقد كان يقدره ،  
ويؤمن باخلاصه ووطنيته . وكان سعد يحبه ويحترمه على  
صغر سنه بالنسبة له . وكانت جريدة البلاغ في عهده  
هي جريدة الوفد الاولى ، فكان هو كاتبها الجريء ،  
وسمها الناقد الذي يرمى به الوفد خصومه . ولم نر  
كاتبيا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول  
اشتغاله بالسياسة الى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ،  
وما يكتبه من مقالات في الادب والفن والفلسفة والترجمة  
والتاريخ كل ثلاثاء

وقد عانى ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب  
السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد في الوفد  
مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمستعمرين ،  
محاميا عن الاهداف التي قام الوفد من اجلها وهي الحرية  
والاستقلال والدستور ، ولم يكن في تأييده لسياسة الوفد  
يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم ، لانه كان يكره الحزبية ،  
ولم يكن كاتبيا حزبيا . وقد كان يرى أن الوفد في ذلك  
الوقت الذي يخوض فيه المعركة يمثل : « عقيدة وطنية »  
و « فكرة سياسية حرة » ، وان الصحافة الوفدية التي  
يكتب فيها هي وسيلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك  
الفكرة . وقد كتب عن العقيدة الوفدية ، فقال : « . . نحن  
لا نحب أن نعرف العقيدة الوفدية من طريق البرامج  
والاقوال ، وانما نعرفها من طريق الوقائع التي تنطق بها  
أعمال الخصوم ، قبل ان تنطق بها السنة الاصدقاء  
والانصار . وتتلخص العقيدة الوفدية على هذا المعنى  
في عبارة وجيزة هي : « المحافظة على القومية المصرية بقوة  
الامة المصرية » . ومن اجل هذا يبغضها اشد البغض كل  
من يكرهون ان تكون لهذه الامة قوة تعتمد عليها ، وتتف  
بها في وجوه اعدائها . ولو لم تكن « الوفدية » هي مناط

هذه القوة ، لما ابغضها الظالمون في ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالارادة . ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء في هذه المزية لاِبغضهم المستعمرون ومنكرو ارادة الامة .. »

الى ان يقول عن الصحافة الوفدية التي كان اكبر كتابها : « .. انما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما اليها . ومامن مبدأ اصيل تدين به صحافة مصرية بريئة الا والامة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه الى اقناع ، او تدليل .. »

هكذا كان رأيه في «الوفد» . وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدأ وطنيا كان يؤمن به كل الايمان ، وهو « المحافظة على قومية الامة بقوة الامة » لا بقوة احد سواها

ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى اصاب الوفد ما اصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية الى حزب سياسي يقوم على برامج ، ويعتبر احكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسمى ما استطاع الى تولى الوزارة ، ويتهافت عليها تهافت المستورين .. !

## - ٤ -

وفي اوائل عام ١٩٣٤م نظم العقاد « نشيده القومي » زكاه وقتئذ يحرر مقالاته السياسية في البلاغ . وقد جاء في مطلع هذا النشيد :

قد رفعنا العلم للعلا والفسدى  
في ضمان السماء

حى ارض الهرم حى مهد الهدى  
حى ام البقاء

وتلى اثر نشر هذا التشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء مصر ومفكرها ، واقاموا له حفلة تكريم فى مسرح حديقة الازبكية - برياسة زعيم الوفد - حضرها جمهور كبير من اعلام الفكر والبيان ، واعضاء البرلمان والوزراء ورجال التعليم ، وكرائم السيدات . وكان فى مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين ، فالقى خطبة ضافية عن « العقاد ولواء الشعر » . قال فيها :

« انه مهما كرم العقاد ، فان مكرمه لن يلفوه حقه من التكريم بالقياس الى احسان انعقاد اليهم . . ! »

تم يستطرد ، فيقول : « تسألوننى لماذا اؤمن بالعقاد فى الشعر الحديث ، واومن به وحده ، وجوابى يسير جدا ، لماذا ؟ . لاننى اجد عند العقاد مالا اجده عند غيره من الشعراء . . وان شئتم ، فانى لا اجد عند العقاد ما اجده عند غيره من الشعراء ، لانى حين اسمع شعر العقاد او حين اخلو الى شعر العقاد ، فانما اسمع نفسى ، واخلو الى نفسى

« انما ارى صورة قلبى ، وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه ، وحين اسمع لشعر العقاد ، انما اسمع الحياة المصرية الحديثة ، واثبين المستقبل الرائع للادب العربى الحديث . . »

وبعد ذلك يضرب الامثلة من « ديوان العقاد » . ويشيد بقصائده ، ولا سيما قصيده « ترجمة شيطان » التى يقول فيها انه لم يقرأ مثلها لشاعر فى اوربا القديمة واوربا الحديثة ، ثم يقول فى النهاية : « ضموا لواء الشعر فى يد العقاد ، وقولوا للادباء والشعراء : اسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » . . II

وكان خريف سنة ١٩٢٤م ، وتألقت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة في ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التي سارت على سياسة اسماعيل صدقي باشا . وكانت الامة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقي في الحكم والحياة النيابية التي قامت على دستوره الجديد ، فلما تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقي باشا ، انتظرت الامة منه ان يعيد دستور ١٩٢٣م ونظامه النيابي ، وانتظرت من الوفد ان يطالبه بذلك خصوصا وقد اعلن تأييده للوزارة النسيمية، ولكن نسيم باشا كان يتباطأ في الاستجابة لرغبة الامة . وكلما الحت عليه بالرجوع الى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣م الذي كان خيرا من دستور صدقي باشا ما ظل وتغافل ، واخذ يحكم الامة حكما فرديا غير دستوري . واثارت سياسة نسيم باشا « كاتب الوفد الاول » منذ ظهرت بوادر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة اشهر ، فأخذ ينقد سياسته ويحذر رجال الوفد من اطماعه ونواياه . فلم يوافق الوفد على معارضة « العقاد » للوزارة النسيمية التي كان يؤيدها ، ويعلم صلتها بالانجليز وحدثت مشادة بينهما في بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التي كانت تمنى هذه الوزارة . وكان « العقاد » يكتب مقالاته وقتئذ في جريدة روز اليوسف ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه ، واضطر نسيم باشا ان يصدر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥م بيانا سياسيا جعل عنوانه : « بيان للناس » . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف في اليوم التالي بعنوان : « قصة الدستور في بيان نسيم باشا » جاء فيه :

« وان للدستور في بيان نسيم باشا - على حد تعبير

صديقنا الدكتور طه حسين - قصة ، وانها لتختلف عن كل ما اذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرين ، حين منعوا علينا باسطورة منتصف شهر مايو الماضى ومنتهاه، ثم براعوبة الخريف والشتاء .. لكن مالنا وللانشاء الذى ينطرق اليه التحريف والتصحيف او الشدة فى التعبير والاساءة فى التصوير .. وامامنا بيسان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع مايكفى سرده فى ترتيب لتقديم القصة للقراء اصدق تقديم .. »

ثم سرد هذه الوقائع التى احصاها فكانت ثلاثة وعشرين واقعة . وفى مقدمتها : « ولى نسيم باشا الحكم ، وهو لا يقصد الى اعادة دستور ١٩٣٢م بالذات ، اذ اكتفى الامر الملكى الذى استصدره فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤م بان يشر الى ان البلاد سيوضع لها نظام دستورى ولما اراد نسيم باشا تنفيذ الامر الملكى الصادر له ابغاه المندوب السامى ان الحكومة البريطانية ترى « ان البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة ، وان مصلحة البلاد تقتضى عند سنوح الفرصة ان يكون شكل الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة »

وقد علق العقاد فى نهاية مقاله على الوقائع التى تضمنها البيان ، فقال :

« وبعد ، افليست هذه القصة التى استخرجناها بكل امانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ماسنى لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الانجليز ومن الدستور ؟

« وقد قلنا منذ الساعة الاولى انه قد ولى الحكم متفاهما مع « مستر بيترسون » على أن يحكم مصر من غير دستور سنتين كاملتين ، وان الدستور الذى يقدم



لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣ م ، بل دستور جديد محدود !!

## - ٦ -

لقد اقسام « العقاد » لزعيم الوفد في اكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير الى قلمه الرصاص الذى كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالاسكندرية - الا ينتهى هذا القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يعضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦م حتى استقانت الوزارة النسيمية استقالة اشبه ما تكون بالاقالة وتولت الحكم بعدها وزارة « على ماهر باشا » .

واصر « العقاد » على مخالفته لزعيم الوفد في سياسته التى كانت تهدف الى تولى الوزارة في ذلك الحين ، مع مهادنة الاستعمار ، وممالة مندوب المستعمرين في مصر ، واشتد في حملته على الوفد في معارضته ، واحتد زعيم الوفد ، وهو يجادله في اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض اعضائه ، وذكره « بانه زعيم الوفد » فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، واجابه قائلا :

« انك زعيم الوفد ، لان هؤلاء الذين حولك اجلسوك على هذا الكرسي ، اما انا ، فان قلمي وحده هو الذى وضعنى في مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الامة » .  
واخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة . وكان قد انفصل قبل ذلك من عبد القادر حمزة صاحب البلاغ لخلاف شخصي لا صلة له بالسياسة . فاتفق مع صاحب امتياز جريدة « الضياء » عبد الحميد حمدى على اصدار جريدته لحسابه . وكان هو « مدير السياسة » . ورئيس التحرير « كليم ابو

سيف « وصلر العدد الاول منها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦ م في ١٢ صفحة افتتحه «العقاد» بمقال ملاً أعمدة الصفحة الاولى بعنوان : « عهد وذكرى » . جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال :

« في هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد ، ومشاربون على خطة معروفة معهودة لزمانها عشرين سنة في خدمة الصحافة والقضية الوطنية . فمن الاطالة على حضرات القراء ، ان نفيض في الشرح ، ونسهب في العهود والوعود فيما هو معروف معهود . وحسبنا اليوم ان نقول اننا ستمضى على ما كنا فيه ، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغنيا عن الفضول والتكرار . فان كان لابد من ايضاح لهذا الاجمال ، فايضاح هذا الاجمال اننا سنعلن ما نعتقده من رأى في غير محاباة ولا احجام ، واننا لن نتردد في ابداء الرأى الذى نؤمن به ، كلما وجب ابدؤه وتعزيزه واننا منذ اليوم الذى قضت فيه هذه الخطة نفسها بان نستقل عن جميع الهيئات والاحزاب قد آلينا على انفسنا الا يعوق هذا الاستقلال عائق ، ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على ان نميطه ونعلو عليه . . فسياستنا في جميع المسائل والحوادث سياسة قومية تنظر الى الاعمال ، لا الى العناوين ، والى المبادئ القومية ، والمصالح المصرية ، لا الى الاحزاب والهيئات . . »

ثم انتقل الى حرية الرأى والشجاعة الادبية في ابدائه - تلك الحرية التى حاربه فيها زعيم الوفد وقتئذ . فقال :

« حرية الرأى والشجاعة الادبية في ابدائه هما المثل الاعلى فيما نتوخاه من عمل صحافى ومن خلق قومى تدين به الامة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلباً من المطالب ، ولا برنامجاً من البرامج ، ولا وعداً من الوعود ! . . »

« حرية الرأى والشجاعة الادبية في ابدائه انفس من

الاستقلال ، لان الامة التى تملك رأيا ، وتملك شجاعة  
 ايمانها هى مستقلة فعلا وحقا . ولو احتلتها فيسألقي  
 الفاصبين . . فاما اذا خسرت الامة حرية رأيا وشجاعة  
 ايمانها ، فلا خير لها فى استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ،  
 ولا انتخاب ، لانها تساق سوق العبيد لكل من خطر له  
 ان يسودها من الاقرباء او البعداء . وتعيش عيشة العبيد ،  
 ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب . . ولا فرق بين عبد  
 مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين . لان العبودية فى  
 النفوس والقلوب لا فى القيود والاغلال . . »

ثم أخذ يحصى الحقائق التى دافع عنها ، واختلف فيها  
 مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ،  
 وأثبتت صحتها الايام . ثم قال فى النهاية :

« . . نعم ذلك ما صنعناه ، وتصنعه فى كل حين . وذلك  
 هو العهد الذى نعاهد القراء عليه . وتلك هى الذكرى  
 التى نعود بها الى الاذهان والضمائر . . » !

## - ٧ -

هذه مقتبسات من الافتتاحية التى صدر بها هذا  
 العدد . وقد وطد « العقاد » العزم على متابعة اصدارها .  
 ولكنه ما لبث ان حاربه خصومه بأساليبهم الحزبية ،  
 وانفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهى فى  
 المهد . فانصرف « الكاتب الكبير » عن السياسة الى  
 الكتابة الادبية وتأليف الكتب كما كانت عادته فى كل ازمة  
 يتعطل فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد فى ميدان  
 التأليف والكتابة فى الصحف الادبية والعلمية مجالا لعلمه  
 البليغ وفكرة الخصب ، وادبه الرائع ، وعلمه الفياض  
 انقطع « العقاد » عن الكتابة السياسية ، أو انصرف  
 عنها حيناً . . ثم كان انشقاق الوفد الثانى بزعامه احمد

ماهر ، وتألف « حزب السعديين » . وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه ان يكون رئيسا لتحريرها ، فلم يقبل ، واعتذر بانصرافه عن الكتابة السياسية . وكان وقتئذ يؤلف كتاب « سعد زغلول » الذى صدر فى ستمائة وثلاثين صفحة . ولما اصدر هذا اّحزب جريدة «الاساس» كان محمود فهمى التّقسراشى زعيم هذا اّحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل احمد ماهر ، فالح على صديقه « عباس العقاد » ان يحرق فى جريدة الاساس ، فاخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا فى آرائه التى يراها فى الاحداث الوطنية والمسائل النّومية كمادته فى كل ما يكتب وخصص « يوم الثلاثاء » للكتابة الادبية . وكن جهده الاكبر منذ تعطلت جريدة الضياء فى سنة ١٩٣٦ قد انصرف الى تأليف الكتب وتحرير الفصول الادبية فى المجلات الشهرية والاسبوعية

ونستطيع ان نقول ان المدة التى بدأت من سنة ١٩٣٦ الى ان انتهت بوفاته فى مارس سنة ١٩٦٤ كانت اخصب انتاجا ، واكثر تأليفا من غيرها فى « حياة قلمه » المباركة . فقد اف فيها خمسة وسبعين كتابا من نحو مائة كتاب ونيف الفه طول حياته

هذا عدا نحو خمسة عشر اّلف مقال او تزيد كتبها فى الاداب والعلوم والفنون فى الصحف العلمية والادبية مما يملأ مئات من الكتب الاخرى الى ما خلف من مؤلفات غزيرة

- ٨ -

ولقد كان ديمقراطيا فى حياته ، واشتراكيا تعاونيا فى مذهبه . فقد سئل يوما : « لماذا هو ديمقراطى ؟ » فاجاب : « لاننى لست بالمدل ولست بالدليل ، ولست

بالمؤمن بصلاحيه الاستبداد فى جميع الاحوال ، وهذه هى  
الاسباب التى تبغض الى الاستبداد حيث كان ، وتحبب  
الى الديموقراطية حيث كانت . ولو كانت بين اناس  
لا يستحقونها احسن استحقاق

« فالحرية فى اقبح اوصافها خير من الاستبداد .. وقد  
شبع العالم من عيوب الحكم المطلق الوفا بعد الوفا من  
السنين .. »

وقال عن مذهبه الاشتراكى من مقال كتبه فى ذلك :  
« انه هو اشتراكية التعاون التى تحراها ولاه الامر فى  
وطننا ، لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة اعامل والمفرد ،  
وتحديد الثروة على انواعها ، وبقرىب المسافة بين طبقات  
الامة وهى اشتراكية تؤتى ثمراتها على التحقيق ، كلما  
تتابعت بها التجربة بعد تجربة ، على اساس التوفيق بين  
تقييد الاحتكار والاستغلال ، واطلاق النشاط الحر ،  
والكفاية الضرورية فى ميادين العمل كافة ... »

## - ٩ -

وقد كتب فى عهد ثورتنا الحاضر مقالات عن العروبة  
والعرب والسياسة العربية من جوانبها انعاما . وكتب  
عن كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر  
مقالاتا اضافيا قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثورة  
التركية ، والثورة الصينية ، والثورة المصرية . ثم قال  
عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

« .. وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات  
غيرنا نرى ان التفاهم على التفاصيل قريب كالتفاهم على  
الاصول الكبرى

« فقد قرأت الصفحات الثمانين التى كتبها الرئيس  
جمال عبد الناصر فى كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت

منها وانا اعتقد أن الخلاف عليها اقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع

« صواب ولا شك ان الحركة المصرية ، لا توصف بانها تمرد عسكري

» و صواب ولا شك ان الحاضر يعيش ببقية من مساويء العهود الماضية . وهذا هو باب الاسف والاسى ، ولكنه كذلك باب الامل والعزاء ، لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « اذ لم يكن يمكن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون »

« و صواب كذلك ، ان الشك آفة معطلة للجهود معطلة للافكار والآراء ، فليس الانصاف وحده بالذى يشفع لاصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد اجيال واجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيح البليغ قبل شفيح الانصاف

» يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : ( كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الان ان تريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ، ونرغمها على ان تبتلع شهواتها واحقادها واهواءها .. )

» ثم يقول : ( .. ولكن اية نتيجة كان يمكن أن يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟ .. كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التي سر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار )

« نعم . يكون ذلك ظلما ، ويكون اكثر من ظلم ، لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويبطل فائدة العلاج ، ويئس من عقابه .. »

ثم يتناول « العقاد » بعد ذلك سائر ما جاء في « فلسفة

الثورة « بالتعليق .. ويقول فى ختام المقال :

« .. على ان الصفحات الثمانين التى تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارىء فى حدود الافق المصرى ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية فى اوسع حدودها . فالعصرى فى عصرنا هنا لا يهتم بوطنه حقا ان لم تشغله علاقته بثلاثة آفاق او عوالم ، لانفصال لها من وطنه ، وهى العالم العربى ، والعالم الافريقى والعالم الاسلامى من اقصاه الى اقصاه

« .. اين نحن من العالم العربى ؟

« اين نحن من العالم الافريقى ؟

« اين نحن من العالم الاسلامى ؟

« نحن فى قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس فى وسعنا ان نجعل علاقتنا بها ومستقبلنا معها . يقول الرئيس جمال : ( ان نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت ارض المنطقة العربية . فنحن اقوياء اقوياء .. )

« ويقول : ( اننا لن نستطيع بحال من الاحوال حتى لو اردنا - ان نقف بمعزل عن الصراع اندامى المخيف الذى يدور اليوم فى اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتى مليون من الافريقيين . اننا فى افريقيا ، والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .. )

« ويقول الرئيس عن العالم الاسلامى : ( حين اسرح بخيالى الى ثمانين مليوناً من المسلمين فى اندونيسيا ، وخمسين مليوناً فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو ، وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى اباكستان ، واكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الاوسط ، واربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى ارجاء

الأرض المتباعدة - حين أسرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخرج باحساس كبير بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة )

ويعلق « العقاد » على كلام الرئيس ، فيقول :

« وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل . وليس الاهتمام به من طموح الشباب ، كما يتخيل المتخيل الوادع في عقر داره ، بل أخشى أن أقول أنه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها . . بل من همومها في أبنائها ، أن كان حمل الهموم البعيدة وفقا على الشيوخ . »

« ماذا نصنع أن جنى البترول على العالم العربي ، فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمناعة

« وماذا نصنع أن أصبحت أفريقية للمستعمرين الأوربيين ولم تصبح في الغد القريب أفريقية للأفريقيين

« وماذا نصنع أن تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية الحيوانية ، أو كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار التنوط والحيرة ؟

« فروض جسام . ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام . . . !!

- ١٥ -

ذلك بعض ما جاء في مقال العقاد عن « فلسفة الثورة » . وهو مقال يعد من عيون مقالاته التي لم تجمع في كتاب . وقد آثرنا أن نتحدث عنه في هذا التقديم

- ٢٥ -



أما مقالاته الفلسفية والادبية والعلمية الاخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن الى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوى على « ذكريات شخصية » ومقالات عن أرض الميعاد وهي بحوث كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى فى الادب والفلسفة والشعر والدين . وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر فى كتاب من كتبه . وفى عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى فى كتب ملاءمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو المتجانسة فى الفن ، والفلسفة والعلوم ، والاداب . . عما قريب !..

وقد أنتج فى الاثنى عشرة سنة الاخيرة أضعاف ما أنتج فى غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة . فمنذ قامت الثورة المصرية فى سنة ١٩٥٢ الى أن توفى ألف ما يربو على أربعين كتاباً . وهذا يدل على نشاطه الكبير فى شيخوخته بعد أن بلغ اثنالثة والستين من عمره

ولقد كانت الدور العلمية والادبية تتسابق الى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته . وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية أن يفضل اقتراح الجريدة أو المجلة فى الموضوع الادبى أو العلمى الذى تريده ، أما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملى عليه اقتراحاً سياسياً يكتب فيه ، ولو كان سعد زغلول الذى كان يقدره ويحبه . وفى ذلك يقول :

« اننى أفضل اقتراح المقالات الادبية للمجلات والصحف السيارة لسببين :

« أحدهما أنه يريحنى من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا أضيع الوقت بين المناسب والاناسب ، وبين الحسن والاحسن . وثانيهما أن محررى المجلة أو الصحيفة

أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها . لان الكتاب قد  
يكررون الموضوع اذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره  
من غير مشاورة ولا مقابلة . فلا محل للاعتراض على محرر  
المجلة اذا اقترح موضوعا لكل كاتب يعاونه على عمله . ولا  
مساس بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه ، بل هو نقيض  
ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : « اطلب تجد »  
ويقصدون به التدرية على الاستجابة لكل سؤال

« واننى على ترحيبي بالاقتراح الادبى ، ارفض كل  
اقتراح سياسى بالكتابة فى مسألة من مسائل السياسة  
وقد كان سعد زغلول رحمه الله - وهو زعيمنا الذى نحبه  
ونحله - يعلم ذلك ، فلا يقترح على الكتابة ، ولا الكف عن  
الكتابة . وغاية ما كان يستبيحه من طلب الكتابة اذا ارادها  
ان يبسط المسألة للمناقشة ، ويسمع ما نقوه فيها ، فان  
وجد أن الرأى متفق مع وجهة نظره قال : « اود أن  
أقرأ لك شيئا فى هذه المسألة » !

« وقد حدث أن اللورد جورج لويد « المنسوب السامى  
فى ذلك الحين » طلب اليه أن يكفنا عن الحملة عليه ، وارسل  
اليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على ان قال  
قولته المشهورة : « هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها »  
« ولم يفض الينا بما حدث الا بعد انقضاء الازمة .  
وقد سيرت فيها الاساطيل للانداز والارهاب ، أو للتهويل  
والتمثيل . واننا نحمد الله على ما فرق به بين الادب  
والسياسة ، فلولا ذلك ما طلبنا بانفسنا اقتراحا فى  
الكتابة الادبية ، ورفضنا الاقتراح فى السياسة وانكرناه  
وان تحركت له الاساطيل » ! .

هذا ما اردنا أن نقدم به « حياة قلم » . وأن نتابع  
أحداثه وتطوراته السياسية والادبية بالاجمال ، بعد ما

وقف به الاستاذ العقاد عند ابتداء ثورة سنة ١٩١٩ م .  
فقد كان في عزمه أن يكمله . ولا مراما وقف به هذا  
الموقف ..

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هذا التقديم  
صورة واضحة - وان كانت مركزة في لمحات - عن  
جهاد هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما  
من حياته الفذة .. !

فحياة قلم العقاد حياة فذة عظيمة بلا ريب ، ليست  
كحياة أي كاتب أو أديب في عصره . ويزيد هذه الحياة  
قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان عصاميا في نشأته  
وجهاده ، وأنه في كل ما حصله من علوم وفلسفة وأداب ،  
كان أستاذ نفسه وولي أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ،  
ومكتبة نفيسة حافلة بالاطلاع الواسع

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة  
إلى ثروتها الكبرى . ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ،  
فقدت من المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لانعوض ،  
لأنها عصارة فكر قدير ، وحصيلة قريحة خصبة ووليدة  
ثقافة أصيلة ، وإنتاج ذهن عبقرى ، عاش صاحبه أديبا  
مجاهدا ، وعالما مفكرا ، ومؤلفا غزير الإنتاج واسع الاطلاع ،  
وفيلسوبا سامى المبادئ ، عظيم الاهداف .. !

**ظاهر احمد الطناحي**

ولادة قلم

الفضل

الأول



## ولادة قلم

### الا اعرف نفسى ؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه ، ولا يجيب عنه قائله ، لانه فى عرفنا جميعا غنى عن الجواب ، أو جوابه بلسان الحال يقنى عن جوابه بلسان المقال ، وكأننا نقول لكل من يسأله : عفوا .. كيف لا تعرف نفسك ؟ .. تعرفها بالتحقيق !

ومع هذا اقول بعد تجربة طويلة للبواعث النفسية التى تدفعنى الى اكبر الاعمال واصغر الاعمال على السواء : ان الانسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وانه كثيرا ما يكون فى تخمينه عنها غريبا يبحث عن سر غريب ، ولا فرق فى هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا الا فى الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار

### حديث مع نفسى !

اننى اعمل فى تحرير الصحف من خمسين سنة ، (1) وكنت اكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة ...

---

(1) كتب هذا الفصل - وهو اول فصول حياة قلم - فى المطب سنة 1957

وأريد القارئ فأقول اننى منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئاً يسمى المستقبل لم اعرف لى أملا فى الحياة غير صناعة القلم ، ولم تكن امامى صورة لصناعة القلم فى اول الامر غير صناعة الصحافة

ولكننى مع هذا اسأل نفسى الآن كما سألتها من قبل : لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها فى طفولتى ، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى . . بل أمل الحياة الاكبر؟ فلا ادرى باعث هذا الاختيار على سبيل التحقيق، ولا استظنى فيه عن التخمين او التخمين الكثير ، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة وملابساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك ، كما يفعل الباحث فى السير والتراجم حين يعتمد الى التخمين عن حياة الاخرين واكثر من هذا اننى « أضبط » نفسى وهى تروغ منى وتحاول ان تقنعنى بوجهة غير الوجة التى تعنيها او تعينى ، ثم نتلاقى مبتهمين ، واكاد اسألها : انت هنا ؟ وتكاد تسألنى : وها أنت يا صاح ؟ . . ثم لا نلبث ان نعلم اننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الاولى ، واننا نحتاج بعدها الى كلمة او كلمات تثوب بعدها الى التفاهم والاتفاق



قلت اننى لم اعرف لى فى طفولتى أملا غير صناعة القلم

وهذا صحيح . .

وهذا غير صحيح . . !

صحيح اذا نظرنا الى الوجة القصوى فى نهاية الطريق وغير صحيح اذا نظرنا الى عطفة هنا او منحرج هناك او زقاق بين بين فى اثناء الطريق . .

كلا ! بل تمثيت حيناً ان اكون جندياً . وتمثيت حيناً  
آخر أن اكون عالماً زراعياً ، وهما فيما يبدو صناعتان  
متباعدتان !

ولكننى لم البت ان علمت اننى تعلقت بالجنديّة لاننى  
اريد صناعة القلم ، وتعلقت بالعلوم الزراعيّة لاننى اريد  
صناعة النقام ، وان صناعة القلم كانت تلمحنى بعينها  
الساحرتين من وراء النقاب وأنا احسبني اغازل صناعة  
السيف او اغازل صناعة المنجل والمحراث ..

### حادث مع قومندان الانجليز

كانت لعبة الجيوش في اواخر القرن التاسع عشر لعبة  
الاطفال المفضلة في اسوان . وكانت دروب المدينة وحيشان  
المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهى بين جيش مصر  
وجيش السودان وجيش الدراويش وجيش اتترك  
وجيش الانجليز .. وكلهم بين قادة وجنود من صفار  
الاطفال الذين لا يجاوزون العاشرة ، لان المسألة كانت  
جداً - ولم تكن لعباً فحسب - مع الاطفال في هذه السن  
على الخصوص . اذ كانوا يسمعون ان الدراويش اذا  
دخلوا قرية قتلوا رجالها ، وسبوا نساءها ، وحمّلوا  
اطفالها مطعونين على أسنة الحراب ، فلا جرم تشغلهم  
هذه الحرب عن كل شاغل من شواغل الخطر والخوف  
فضلا عن شواغل الالعب ..

ومما اتمثله امامى حتى الساعة ، وابتسم له كلما  
تمثلته - منظر زميلنا المقدم « عبد المعطى فرج » قائد  
الجيش السودانى المقيم على مكتب « القومندان » في  
المعسكر الانجليزى وهو يصيح واذنه في يد القومندان  
الجبار :

« مش انا يا عمى .. مش انا والله يا مستر » ..

ويكاد القومندان يقهقه وهو يدفعه الى الخارج ويزجره  
قائلا « سأعلمك كيف تنط يا خنزير ! »

ذلك اننا في هذه الهجمة زدناها حبتين ، ولعلها زادت  
في الحقيقة أكثر من حبتين ! ..

قرنا - نحن قادة الجيوش المصرية والسودانية - ان  
نهجم حقا على القومندان الانجليزى فى معقله بجسانب  
المدرسة ، وكان هذا القومندان رجلا صارما يخشاه  
الانجليز من مرءوسيه ويستعيذ من شره أهل المدينة  
الخاضعون لاحكامه العرفية ، فما هو الا ان سمع دبة  
عبد المعطى تحت السور حتى وثب الى الباب مستغربا ان  
يجترىء احد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام فى  
وضع النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار - عبد المعطى  
- بالعدر الوحيد الذى لا يقبل التصديق فى هذا الحرج  
الشديد : اذنه بين اصبعى الرجل ولسانه يصيح : انه  
ليس هو المقبوض عليه

### على الريابة !

هذه اللعبة - لعبة الجيوش - كانت شغلنا الشاغل  
فى المدينة التى لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبى أنا  
على الأقل لعبة عسكرية ادبية فى وقت واحد .. لاننى  
كنت قائد الجيش المصرى الذى يطلب المبارزة من الاعداء  
ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة  
فى ملاحم شعراء الريابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل  
الشعر الحماسى على حسب المقام ..

وكان زملاؤنا - او اعداؤنا - يستعينون فى تحضر  
هذه الحماسيات بشعراء الريابة الذين امتلات بهم قهوات  
البلدة فى ايام الحملة السودانية وأغنوها عن المسارح



وملاعب البهلوانات والقرقوزات ، لاذحام المدينة بالجنود والبيعة من أبناء الصعيد - طلاب هذا الضرب من القصص والانشيد - ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الرماية طلبها في بيت هنا او قطعة هناك من كتب المحفوظات او روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف الفخر والحماسة او مواقف التخويف والتهويل . .

وكنت انا قد جربت نظم الشعر في بعض المقاصد المدرسية ، فشجعتنى التجربة على نظم الاناشيد الحماسية لميدان المبارزة ، و اردت ان اثبت للسامعين اننى صاحب تلك الاناشيد فالتزمت في نظمها ان اذكر اسمى كاملا فى كل قطعة منها . وانتصرت بها انتصارا اعظم من انتصار القتال . اذ اوشكت المناوشة كلها ان تنحصر فى الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال . .

وانتهت مدتى فى الجندية بنهاية هذه الجندية المتطوعة !! . . فلم يعسر على ان افهم ان حماسنة النشيد هى بيت القصيد عندى من الجندية والتجنيد ، وانها كانت منفسا للملكة الناشئة التى لم تستقر بعد على قرار . .

### سر الولع بالزراعة

اما الولع بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث ان علمت انه فى دخيلته ولع بتطبيق الاشعار التى كنت اقرأها عن الازهار والعصافير واحداثق وجداول الماء والانهار . . وربما كان مدخلها الى نفسى اعمق من ذلك واخفى مكانا على النظرة الاولى التى نظرتها بها يوم ذاك ، فان علوم الزراعة تعين على مراقبة اطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس اوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك

الفرايب والاطوار ، ولا ارانى حتى الساعة اوثر كتابا في  
سيرة علم من اعلام التاريخ على كتاب في طبائع الاحياء  
والحشرات او آثارها القديمة في بقايا الحفريات ..

كانت أمنية الجندي وعلوم الزراعة اذن ترجمة لامنية  
الكتابة مستعارة في صورة من صور الصناعات الاخرى ،  
وبخاصة حين نذكر انها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو  
كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والاحياء ..

ومثل هذه الترجمة فيما اظن معهودة في كل محاولة  
ناشئة قبل ان تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشئ  
يتمنى شيئا بعد شيء ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه  
على القرار الاخير .. ويومئذ يعلم انها كانت جميعا أمنية  
واحدة في باطنها ، وانه كان بينه وبين نفسه في هرب  
ولقاء كأنهما في طراد البحث والاستخفاء

## اول مجلة !

واحسبني حتى الساعة لم ابلغ من معرفة الباعث  
الصحفى في نفسى مبلغ اليقين الجازم الذى لا رجعة فيه  
ولكننى على يقين جازم من اننى انشأت صحيفة في طفولتى  
الباكرة ، واننى لم انشئها قبل ان اطلع على ودائع دولاب  
المنظرة في بيتى ، واكثر ما فيه صحف اسبوعية او شهرية  
قديمة ، واكثر هذه الصحف القديمة من مجلات عبد الله  
نديم ، وليس بينها اكثر عددا ولا اكبر حظوة عندى  
يومذاك من مجلة « الاستاذ »

ودولاب المنظرة مستودع عزيز يعرفه ابناء الريف  
ولا تخلو منظرة في بلدة ريفية من دولاب منه على الاقل ،  
يفرغ في جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح او بغير  
مفتاح ، ويغلب ان يكون الباب بغير مفتاح لان الودائع التى

يحرص عليها اصحابها لا تودع في المناظر على متساؤل  
الداخل الغريب

وعلى تعداد الصحف في دولاب النظرة عندنا لم تكن  
بينها صحيفة أبرع في العناوين من صحف عبد الله نديم ،  
وكان هذا الصحفى المطبوع استاذ زمانه ، بل لعنه  
استاذ من اساتذة العناوين في كل زمان ..

من عناوينه عنوان « كان ويكون » للترجمة وعنوان  
« التنكيت والتبكيث » لاسم صحيفة ، وعنوان « المسامر »  
لكتاب هجاء ، وعناوين اخرى بهذه البراعة لعشرات من  
الفصول والايخبار

### معارضة النديم !

ولفتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من  
صحف النديم ، ووجدتني ذات يوم اقطع الورق قطعاً  
على قدر المجلة وأعمد الى مكان العنوان منها فأكتبه  
بخطى متأنقا وأعارض عنوان « الاستاذ » بعنوان  
« التلميذ »

اما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضا من قبيل  
المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زمنا  
في البيئات المصرية ، وهى المقالة التي جعل عنوانها « لو  
كنتم مثلنا لفعلمتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثانى  
والعشرين من السنة الاولى

فكتبت مقالى الافتتاحى وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم  
ما فعلنا فعلكم »

وكان فحوى مقال النديم اننا نطلب الاستقلال وندعى  
اننا والاوربيين اشباه وأمثال ، ولكن الاوربيين ينكرون  
هذه الدعوى ولا يكلفون انفسهم غير دليل واحد يثبتون

به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا ..

واستفردت مقالة النديم اكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : « ان آخر الدواء الكى وقد بلغ السيل الزبى فان رفانا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا .. أمكننا أن نقول لاوريا نحن نحن وانتم انتم ، وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالاجانب فريقا بعد فريق حق لاوريا ان تطردنا من بلادنا الى رعوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشى وتصدق في قولها لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا »

\*\*\*

وتناولت في مقالى فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا أذكرها الان ، ولكنى أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفحواه اننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم - أيها الغربيون - فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الاموال واستباحة الحقوق وافتراء الاكاذيب والتعطل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد ان نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب ..

ثم اصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة اعداد لم يكن لها من قراء غير زملائى فى المدرسة واقاربى المشجعين أو المتنדרين المتفككين . ولم يكن لها من استبراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقه لهذا الثمن ..

عارة .. من أيامها !

اخالى الآن على حق اذا قلت ان هذا السر - سر دولاب المنظرة - هو كذلك سر الاتجاه الاول عندى الى

صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجع اننى تعودت من أيامها عادة لم تفارقنى الى اليوم فى تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة . . فهذه الورقة التى اكتب عليها الان مقصوصة على النحو الذى اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » . . . ومتى كتبتها طويتها طولا كما تطوى المجلة ووضعتها فى غلاف مستطيل كالفلاف الذى توضع فيه المجلات ، وقد اتخذت من هذه الاوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة اوصى بصنعها اذا نفسدت من السوق ، كما تنفذ احيانا فى بعض ايام الحروب العالمية العالية



وعلى هذا النحو من التخمين نعرف انفسنا باحثين مترددين ، قبل ان نصل الى اليقين ، ان وصلنا الى يقين . .

لكننى لا تفوتنى كلمة سمعتها من صديق كان يناقشنى كلما تساءلت عن سر اتجاهى الى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة الى البحث عن سر لهذا الاتجاه ؟ ألا يكفي أنك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت الى صناعة الكتابة ؟ . .

ولست على رأى الصديق فى هذا التعليل لاتجاهاتنا النفسية ، فان الملكة النفسية تخلق فىنا قبل ان تخلق لها ادواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندى نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا الا لاننى سأكون كاتباً يوماً من الايام متى تسرت الاداة

على ان شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يابى عليه ان يتمنى الوزارة او يتمنى الوجهة الاجتماعية او يتمنى

صناعة القلم مبتدئا يعمل من الاعمال الكتابية فسير الصحافة ، ولست أعتقد ان مئات الاطباء والمهندسين والصناع وذوى الملكات المنوعة الذين ظهوروا من ابناء جيلنا قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحي القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل لعلهم توجهوا وجهتهم في مستقبلهم على الرغص من جميع تلك العلوم . .

## جيل وجيل

كان عبد الله النديم استاذ مدرسته في الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : اما تلميذ يقتدى به ، واما خصم يبفضسه وينحى عليه . .

ونشأ مصطفى كامل في هذه المدرسة ، وكان خصوم النديم يزعمون ان الخديو لم يعرض عن الاستاذ ويقبل على التلميذ الا لان ابناء الاسرة الخديوية غضبوا لتقريبه رجلا كان يحاربهم في الثورة العربية ويعمل على تقويض عرشهم ، فاختر الخديو من تلاميذه شابا بعيدا عن هذه الشبهة وميزه على استاذه لمعرفته باللغة الافرنجية ، وقال ولي الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » :

« من اجل هذا قال اكثر الامراء من الاسرة الحاكمة على مصر ان مقام الامارة يقرب منه النديم لانه عدو اسرته وجنسه ، وبهذه السياسة المضحكة آل الامر الى الاعتماد على « كامل » وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وانما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك »

الا ان الامر لم يكن في هذه المسألة خاصة امر اللفظة  
الافرنجية ، لان الخديو قرب اليه الشيخ على يوسف  
الازهرى وهو ممن انشأوا الصحف منافسة للنديم  
وتطلعوا الى محاكاته في المنهج والاسلوب ، ولكنها مسألة  
المدرسة الصحفية التي كانت تحمل علم الدعوة امام  
الصحافة المسخرة للدعاية الاجنبية ، ولم تكن هناك  
مدرسة تحمل هذا العلم في اول عهد الاحتلال غير مدرسة  
النديم

ويصدق على هذا جيل النديم واجيل الذي تلاه ،  
ولكنه لا يصدق على الجيل الذي نشأ بعد ذلك بسنوات ،  
لان هذه الفترة قد اتسعت لعوامل جديدة في السياسة  
والتفكير تخالف العوامل التي غلبت على الثورة العراقية  
او على جيل المخضرمين بين الثورة والاحتلال

### أنا .. والنديم

ولهذا ارجع الى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتى  
الصحفية فلا أستطيع ان أقول اننى على الجملة من تلاميذ  
مدرسة النديم ، وان كان النديم اول من لفتنى الى العمل  
في الصحافة وكانت مطالعته اول مطالعة وجهتنى الى هذه  
الصناعة ..

لا بل هنالك مشابهاة عديدة بين النديم وبينى لا أدرى  
هل جاءت من وحي القدوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير  
قصد منى ولا من أحد ..

فقد تعلمت صناعة التلفزيون كما تعلمها النديم ،  
واشتغلت بالتعليم في مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ،  
وجربت الاستخفاء على الطريقة البوليسية اكثر من مرة

في ابان الحرب العالمية الاولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته في أعقاب الثورة العرابية ..

ولكنني - مع هذه المشابهات - لم أشعر من قبل ولا أشعر الان بأن الرجل قدوتى المختارة بين أمثلة النبوغ التي أتعتها أو بين « الشخصيات » المثالية التي أجلها واحب ان أنتمى اليها ..

واحسب ان المرجع في هذا الاختلاف الى سببين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، والاخر يرجع الى المزاج الشخصى الذى فطرت عليه ..

فلاحوال العامة في عصرنا تخالف الاحوال العامة فيبل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العرابية والاحتلال ، لان دخول الانجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملا « قانونيا » يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار بابامفتوحا على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الامل به من جانب المصريين ، ولو الى حين ..

وهذا فيما نظن أحد الاسباب التي تحولت بأنظار عبد الله النديم وتلاميذه الى الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى قام على يديه ..

اما في عصرنا - نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال - فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا للمناورات الدولية ، وانما يقع العبء الأكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين .. فلا يجوز لنا أن نفرط في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة « شكلية » لإتفيدنا في جهادنا ان صح انها كانت تفيدنا قبل ذلك ..



هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع الى الاحوال العامة

وأما سبب الاختلاف الذى يرجع الى المزاج الشخصى فخلاصته فى كلمتين : ان الرجل كان ينزع كثيرا او قليلا الى شوء من التهريج ، واننى نشأت فى بيئتى البيتية بين ابوين محافظين اشد المحافظة على سمع الوقار و«اللياقة» ونقلت هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة ..

### كل الناس .. ولا عباس !

ومما يحضرنى من ذكرياتى فيما دون العاشرة اننى رفضت كل الرفض ان ألبس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة فى نحو السابعة من عمرى ، واننى رفضت اشد الرفض ان أجيب نداء المعلم حين دعانى باسم « عباس حلمى » جريا على تقاليد ذلك العهد التى بقيت الى الآن فى أسماء المعاصرين . . فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم ابيه ولكنهم كانوا يلقبون بالقباب حلمى وصبرى ولطفى وحسنى وشكرى وماشاكلها على حسب المطابقة لاسماء المشهورين او الموافقة لجرس اللقب ورئيته فى الاسماع ، فبقيت واحدا من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل ، ولولا اصرارى على رفض اللقب المستعار لكان اسمى اليوم « عباس حلمى محمود » كما كتب فى قائمة « التصنيف » اى توفيق الاسماء والالقب ..

والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا فى الاسرة كلمة الامهات التى كن يرددنها لاطفالهن كلما أصابهم مايسوءهم مع التورط فى المزاح معى وراء الحد الذى اسيغه ، فاذا ذهبوا الى امهاتهم يشكون ماأصابهم كان الجواب الذى

يقال بين الضحك والغضب : أمزح مع من شئت يا بنى ..  
ولكن « كل الناس ولا عباس ! »

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج أن ينظر الى مثله الاعلى فلا يراه في صاحب التنكيت والتبكيت وصاحب المسامر ، واحسبني لم افضل الاستاذ الامام محمد عبده على صاحبنا النديم الا لسبب من جملة أسباب ترجع ائى هذا المزاج ، فان وقار محمد عبده هو القدوة التى ارتضيها حين انظر الى النديم فيظفر منى بالشناء ولا يظفر منى بالاقتداء ، وكلاهما فيما عدا هذا الخلق صنوان ينتميان الى الثورة العرابية والى مدرسة جمال الدين والى العمامة والبيئة الازهرية ..

### مدرستان ! ..

وايا كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبينى ، فالعصر الذى نشأنا فيه لا يسمع لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة فى كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لانه كان عصرا مزيجا مضطربا بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقه من التفكير الحديث

كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين حمام وهام ..

كنا نعيش فى عصر الجامعة الاسلامية على مذاهب ، ونعيش فى عصر الجهاد الوطنى على مذاهب ، ونعيش فى عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا نرى امامنا مذهباً واحداً فى قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات ..  
فالجامعة الاسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعنى بالجامعة الاسلامية ان تكون  
جامعة شعوب متيقظة مسئولة عن شؤونها مرعية الحقوق  
مع ملوكها وامرائها ، فضلا عن حقوقها مع الطامعين  
التربصين بها ..

ومدرسة النعاة الرسميين تعمل للملوك والامراء وتريد  
من الجامعة الاسلامية ان تكون وحدة سياسية بزعامة هذا  
الخليفة او ذلك من ملوك المسلمين ، واعلاهم صوتا فى  
مصر من كان يعمل لخليفة بنى عثمان ..  
ومدرسة الجهاد الوطنى على هذه الحال :

مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق السيادة  
الشرعية ، ومذهب يستضعف هذا الرأى ، ويحسب  
العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة  
فى أمر التعويل على السيادة العثمانية . لان حقوق هذه  
السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد  
الانتماء الى الرجل المربض صاحب التركة المنتظرة - كما  
كانت الدولة العثمانية تسمى فى ذلك الحين - ذريعة الى  
ضياع البلد فى معركة النزاع على التركة او فى مساومات  
التقسيم والتفريق !..

## بلبال !

ويزيد البرج بلبالا خليط الاصوات المنبعثة من طفمة  
النعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الاجنبية ..  
فمن هؤلاء من كان يضرب المعول فى اركان الدولة  
العثمانية جاهدا مكابرا باسم الاصلاح والثورة على  
الاستبداد ، وهو فى باطن الامر صنيعا للدول وسمسار  
من سماسرة الاستعمار الذين يقصدون فى الواقع الى هدم  
الاسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية  
بين بلاد المسلمين ..

ومن هؤلاء من كان يعلن الفيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو في باطن الامر صنيعا السياسة الفرنسية في الشرق يناوىء الاحتلال بأمرها ويورط البلد في المشكلات تحقيقا لمآربها ..

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الاسلامية ليتخذها وسيلة الى ايقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييدا لدعوى الدول التي تستفيد من تهمة التعصب الديني ، وتلوح بها لاقتناع الاجانب بحاجتهم الدائمة الى الحماية من دولة أوربية ..

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حبا للحرية ولا انصافا للامة بل تعزيزا لسلطان الخديو .. وتمهيدا لاطلاق يده في ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المندوب البريطانى ومستشاريها فى الدواوين ..

بلبال ، واى بلبال ..

وأشد منه اختلاطا بلبال آخر فى ميدان الفكر والثقافة ، يضطرب فيه القول بين تكفير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدريها بالجهل المطبق والبهيمية العجماء . وسوف نعرض لهذا البلبال الفكرى فى مكانه من الفصول القادمة .. لاننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالى بالتحضير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات ..

بلبال يهون الى جانبه ضوضاء برج بابل .. فأين يذهب الطفل الناشئ فى دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقبه .. ؟!

## وانا فى السادسة عشرة !

لا أعيد هنا كل ما عرض لى فى هذا الطريق من حيرة وشك

## ومشرات وأزمات

لكننى أعلم علم اليقين أننى كنت على قرار واضح فى كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت لأول مرة فى تحرير صحيفة الدستور ..

الجامعة الإسلامية عندى هى جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان ..

الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لانتمنى سيادتها ولا نستمتع لمن يحاربها باسم الشورى أو النعمة على الاستبداد ..

الدول الأجنبية لاتنفعنا ان لم ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هى أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب ..

الحزب الوطنى حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط فى مجاملة « يلدز » و « هابدين » مقصر فى مساعيه نحو « مصر للمصريين »

الملوك والأمراء يخدمون القضايا القومية بمقدار ماتخدم مروشهم ، فان تلاقى مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم ..

الحكم الدستورى لاغنى عنه ، ولاوجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الأحوال ..

## داخل النطاق

منذ كتبت فى صحيفة الدستور لم تخرج كتابتى من هذا النطاق فى قضية من هذه القضايا ..

لم أمدح الخليفة « عبد الحميد » الا فى مناسبة واحدة

وهي اعلان الدستور ، ويومئذ كتبت ابيانا اهنئه بها  
واسجل تاريخ السنة بحساب الحروف الابدية ، فكان  
التاريخ هذه الشطرة :

« قد انشا الدستور عبد الحميد »

ومجموع حروفها بحساب الجمل « ١٣٢٦ » وهي  
السنة الهجرية التي اعلن فيها الدستور ..

ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور -وهي  
من صحف الحزب الوطني - برئاء ابلغ من رثاء صحيفة  
المواء ، ولكنني اجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد  
واجمت في ذلك المقام من نقد سياسته قبل الاستانة  
وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكاشفت الاستاذ  
فريد وجدي بحرجي وحرج صحيفته وهي لسان  
الجامعة الاسلامية الاولى ولسان الحزب الوطني  
الثاني بعد المواء ، فقال لي رحمه الله انسه يفهم  
هذا الحرج وانه يقوم عنى بما اتحاشاه ، فاثرت الصمت  
عن الرثاء على ثناء بغير نقد ، او نقد متحفظ ، متحرج ،  
بين مضطرب الاراء ..

\*\*\*

وانقطعت الصلة بيني وبين الصحيفة بضعة اشهر  
لا اكتب فيها ولا اكتب اليها ، ولكنني كتبت اليها مقالتي  
الوحيد من الخارج يوم اعلن الدستور في ايران ، وقلت  
فيه مهنثا للشاه الصغير : لو كنت في فرنسا لسكان  
مصرك كمصير الصبي ابن لويس السادس عشر ، ولكنك  
تحمد الله لانك في بلد اسلامي وتحمد لشعبك - ولاريب  
- جميل هذا الصنيع

والان - بعد نصف قرن كامل - اقول انني قد  
جربت هذا البرنامج السياسي ، الصحفي ، في مشكلات هذه  
الحقبة وازماتها جميعا .. فحمدت مغبة هذه التجربة ،

ولم أجد فيما وجدته من الحوادث المناقضة برنامجيا أصح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الامم الشرقية ، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدي منه للعاملين وأحق منه باتباع المتبعين ..

وبعد ، فانى لا أحب أن أوافق القارىء باصطناع التواضع الكاذب طلبا للنناء الاكذب ، فأقول ان الحكاية سهلة على كل من يطلبها ، وانها حكاية يطلبها كل من شاء بغير عناء ..

### الاستقلال ..

كلا! .. ليس من السهل على كل ناشئ في العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين تلك النقائض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأى بين شتى الدوافع والمفريات ..

ولكننى أعود فأقول انه لاستقلال الرأى ، ولااستقامة القصد ، كانت كافية لهدايتى الى سبيلى لو لم أستفد من ظروف الآونة التى نشأت فيها وظروف البلد الذى نشأت فيه ..

لقد كانت الآونة فى مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن فى العصر الحديث : محنة تكوين الرأى جماعات جماعات ، فلا ينطوى الشاب فى جماعة صاحبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التى انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الاخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخاسر مضلل فى كلتا الحالتين ..

وكانت البلدة التى نشأت فيها بلدتى اسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ فى مثل سنى أن يأوى بها الى

صومعة من صوامع الفكر يقرب فيها وجوه النظر في كل ما يسمع أو يبصر من الشؤون العامة ، بغير تضليل أو تهويل .. وتهدب الزوابع القومية فلا تفتاجنا في وسط غبارها فتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منا رويدا رويدا فلا تصل إلينا حتى تنكشف على جلاء ..

\*\*\*

وهل في ذلك عبرة ؟ ..

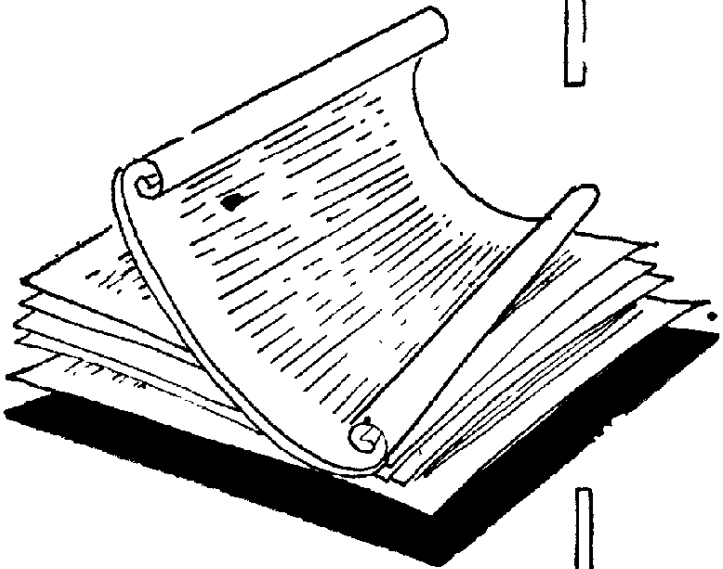
نعم .. عبرة قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشاب في فترة تكوين الرأي أن يروض نفسه سنوات على النظر الى ما حوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فاذا دخل في جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معسرة تمييز وتقدير ، ولم يعمل فيها آلة من الآلات ..





الفصل  
الثاني

قلم ريشق طريقه



## صحيفة مطبوعة بعد المخطوطة

أصدرت صحيفتى المخطوطة - التلميذ - وأنا تلميذ فى الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة ، ولم أملك فى يدى مبلغا من المال يكفى للتفكير فى طبع ورقة ... ان وجدت المطبعة حيث كنت فى الصعيد الاقصى .. وهى غير موجودة ! ..

لكنى الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرسة الابتدائية واشتغلت بالقسم المالى فى مديرية الشرقية ، وعرفت لى مبلغا من المال أقبضه فى أول كل شهر : خمسة جنيهات ! ..

ومن هذه الجنيهات الخمسة أستطيع ان ادخر جنيها فى كل شهر ، وان اجمع من هذه الجنيهات المدخرة مبلغا يكفى للانفاق على العديدين الاولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك الى المال لان الصحيفة تباع وتأتى بتكاليفها عددا بعد عدد ، أو عديدين بعد عديدين ..

وكنت قد عرفت شيئا عن تكاليف الطباعة فى مدينة الزقازيق عاصمة الشرقية ، لاننى اشتقت الى بلدتى بعد ان فارقتها يافعا لأول مرة فنظمت قصيدة على وزن قصيدة المعرى التى يقول فى مطلعها :

عللانى فان بيض الامانى

فنىت والظلام ليس بفان

فقلت فى مطلع قصيدتى :

ذكرانى نعيمها ذكرانى

حبذا لو علمتما ما أعانى

وقلت منها اذكر اسوان :

« الست ارجو عودة الى اسوان »

ولا يحضرنى الآن الشطر الاول من البيت ..

ورأقت القصيدة من سمعوها من الزملاء المناذيين ،  
فاقترحوا على طبعها ليحتفظ كل منهم بنسخة منها ..  
وتكفل احدهم بتقديمها لطبعة المدينة فلم تكلفنا ورقا وطبعاً!  
أكثر من ثلاثين قرشاً لمائتى نسخة ، وقيل لنا أنها تكلفنا  
أقل من خمسين قرشاً اذا طبعنا منها مائتى نسخة أخرى  
فعرفنا السعر وعرفنا الفرق بين تكاليف طبع القصيدة  
وتكاليف طبع الصحيفة ، وهى فى تقديرنا تقع فى ثمانى  
صفحات بدلا من صفحتين

حسبة مسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفى  
للبدء فى طبع الصحيفة على بركة الله ! ..

وماذا يبقى بعد الطبع مما يحتاج الى التدبير  
والاستعداد ؟ ..

لا شيء ! ..

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لاننى محرر الصحيفة  
الوحيد ..

والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لا يكون مضمونا  
وهؤلاء قراؤنا يتهافتون على اقتناء الطبعة الاولى

ويستنفدون منها مائتين فى يوم أو يومين ؟

\*\*\*

ومن البديهى اننى لا أصدر الصحيفة وأنا موظف بالحكومة .. ولا أطبعها ، من ثم ، فى الزقازيق حيث طبعت القصيدة

الا انها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس أهون من الانتقال الى القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس ابناء القاهرة بأقل من ابناء الزقازيق اقبالا على قراءة المنظوم والمنثور .. وكنت اذهب الى القاهرة مرة فى كل أسبوع أو أسبوعين ، أشهد التمثيل فى مسرح الشيخ سلامة حجازى ، وأزور حى الأزهر باحثا عن الكتب الادبية القديمة بشئ رخيص ..

فذهبت الى القاهرة ، وأحببت أن احقق وادقق واستوفى المعلومات اللازمة قبل الشروع فى العمل .. ووقع اختيارى - لاستقصاء البحث فى المسألة - على صاحب مكتبة عتيقة عظيم الخبرة بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصحفيين والادباء ، تعودت أن اشترى منه ما أجده عنده وان أوصيه باستحضار الكتب النادرة من الطبقات المرجوعة ..

والواقع ان « الاستقصاء » الذى عولت عليه لم يكن ليعوقنى عن المضى فيما نويت ، وإنما هو مسألة شكلية على حكم العادة فى الاستشارة والاستخارة .. وليقل صاحبنا ما يقول ، فانى أعددت الصحيفة كتابة وتقسيما وتبويبا وتسمية واخطارا للحكومة ، ولم يبق من معداتها شئ غير الطبع والتوزيع ..

\*\*\*

وكنت اتردد بين اسمين : اسم البرق واسم رجس

الصدى ، ولا أحسبني يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين  
وعنيت مافيه من الدلالة على الصحيفة التى تقود الآراء  
ويلتف بها الشعراء كما يلتفون بالبرق ، أو عنيت مافيه  
من الدلالة على الصحيفة التى تردد اصداء الآراء ولا تزيد  
على عرض الحوادث والانباء ..

لا أحسبني قصدت الى هذه التفرقة ، ولكنى انتهيت  
على غير قصد منى الى تفضيل اسم « رجع الصدى »  
على اسم « البرق » . . . وكتبت العنوان بخطى ليخرجه  
الحفار كما كتبت ، بدعة من بدع التجديد فى العناوين ! . .  
ولست انسى نظرة الكتبى العتيق الى من تحت نظارته  
الملحومة فى موضعين او ثلاثة ! ..

ماذا ؟ تترك خدمة « الميرى » وتشغلت بالغازيطة  
والجرانيل ؟ ان كنت لاتدرك ما انت مقدم عليه فانظر  
هنيهة لترى مائة من هؤلاء « الصائعين »  
الصائعين يتمنون التراب تحت قدميك فى وظيفتك ولا  
يصلون اليه . . . لا يا صاحبي لا . . . اننى أراك أعقل  
من هذا يابنى .. فلا تخيب املى فيك ! ..

ولم يقنعنى كلامه لاننى لم اسمع منه جديدا عن خدمة  
« الميرى » وقد استها فى عرف ابناء جيله ، ولم يزحزحنى  
تحذيره قيد شعرة عن نية المضى فى الاستعداد  
والتنفيذ ..

وانما زحزحنى عن هذه النية قيد فرسخ - لا قيد  
شعرة وحسب - منظر او منظران من المناظر التى كانت  
تتكرر فى كل حلقة صحفية ولا يستغربها أحدا من المتفرجين  
لانها من ادوات المهنة المتفق عليها ومن ادوارها التى تعاد  
فى كل قصة ، فلا يجهلها الا الذين يجهلون الصحف  
والصحفيين او الجرنالجية وجماعة الغازيطة وتجار

## التجريس والتنبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الاسبوعية وكان « مدير » إحدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يعجل باصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذى صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير ينتظر وكيلا له أرسله الى المشتركين للتحصيل وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل المتسول الذى يريد أن يبالغ فى اثبات صناعة النسول واستدرار شفقة المحسنين ، والمسيئين ! ..

فصاح به المدير : ما وراءك ؟ ..  
فأخرج له الوكيل ايصالا معادًا من أحد المسركين ،  
وقال ان الاشتراك مسدد قبل الآن ..  
فسأله المدير : واين الايصال الآخر ؟

قال الوكيل : ان الرجل قطعة ورماء فى خلقتى ! ..  
فهم المدير بضربه وهو يقول مختنقا من الغيظ : رماه  
فى خلقتك ؟ مستحيل .. ان فضيحة بيته معروفة بخشى  
من الاشارة اليها بكلمة ، فلا تقل انه قطع الايصال  
ورماه فى خلقتك الشريفة ، بل قل انك سكرت بالاشتراك  
كعادتك وجئتنا برائحة الخمر تفوح من فيك ..

وكان هذا اول الادوار التقليدية المحفوظة ولم يكن  
آخرها ولا أقبحها ، وفى واحد منها الكفاية للعدول على  
الاقل عن الخطوة الاولى ، وقد عدلت عنها الى الآن

## ولكن .. لم احتقر الصحافة

ان هذه المناظر المخجلة حققت فى نظرى طائفة من  
التطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة

الصحافة ، ولا نزلت بأعلامها النابيين الى منزلة اولئك المتطفلين ، ولست اعتقد اننى كنت مستطيعا ان احتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظر المخجل ، ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها . . . لأن قوة الدعوة القلمية فى تلك الفترة قد بلغت فى القاهرة مبلغا لا يدانيه ما بلغته فى عاصمة من عواصم المشرق والمغرب ، ولا اخالها تبلغه اليوم على عظم الفارق بين صحافة اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنة . . .

كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع فى الشرقين الادنى والاقصى ، ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاة ودعاة الاصلاح فى ايران واوسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية فى مصر نفسها وفى سائر الاقطار الافريقية من شمالها فى بلاد المغرب الى جنوبها فى بلاد السواحل وزنجبار

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى ارواحهم وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلواها أو يغفلوا طرفة عين عن أخطارها وعواقبها ، وقد حدث أن حركة فى القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد فى الآستانة ، وان رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم قضاوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين . . .

كانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الضنية عن المقال ، ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام فى



بلذ وعيناه في شارع محمد على بالقاهرة ، وانفق يوماً  
أن المويلحي الكبير (١) صاحب مصباح الشرق - دخل  
مكتب « المؤيد » ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ،  
فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف  
الحجرة : قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من  
تحتة فيستريح عبد الحميد ! .. قال محمد عبده ، وكان  
من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين !

وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التي تخلقها الحقيقة  
الواقعة ، وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح ! ..  
تهيأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين  
عواصم الشرق بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ، ولم  
تهياً لها مدينة أخرى على مثالها من الاستانة عاصمة  
الخلافة الى ما دونها من عواصم الولايات والحكومات ،  
ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعله  
من العلل العارضة ..

فلاستانة هي عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة  
أهم المراكز في العالم الاسلامي وعالم السياسة الشرقية  
على اجماله .. ولكن قيام الدعوات القلمية ، أو اللسانية  
فيها أمر لا يخطر على بال الدعوة لشدة الحجر فيها على  
الاقلام والالسنه ، وحظر الاجتماع فيها وتآليف الجماعات  
للمقاصد السياسية ..

وعواصم الشرق الادنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها  
لم تكن قط مركزاً يتلقى منه العالم الشرقي دعوة عامة على  
نطاق واسع ، وحكمها حكم الاستانة في حرية الدعوة  
والاجتماع ..

---

(١) يقصد ابراهيم المويلحي صاحب صحيفة « مصباح الشرق »  
والده محمد المويلحي

اما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت في أيام الفاطميين ، مركز داعى الدعوة ، استاذ الاسانذة في فنون الدعوة بالقول والاشارة ، اى بالخطب والرسائل والرموز السرية والموالد والزفات ! ..

ثم أصبحت مركز الاعلان الاقتصادى والسيسى فى الحقبة التى اشتدت فيها المنافسة بين اصحاب التجارة من طريق البحر الاحمر واصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء ..

ثم جعلها الخديو اسماعيل قطعة من أوروبا بمحاكمها المختلطة ، وامتيازاتها الاجنبية ، واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية فى شؤون الحكم او شؤون الثقافة ..

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، فتمت فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث ..

### تاريخ الشرق مرتبط بصحافته ..

وفيما تقدم من العوامل والمهيات كفاية .. ولكننا نحسب انها لم تكن لتفعل فعلها بين اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة فى هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشة الاسماع الى كل صوت ينادى بكلمة الأمل ، او كلمة النصيحة والتحذير ..

ولا ننسى سحر « الكلمة المطبوعة » فى جدتها قبل ان تبذلها كثرة التداول ، وتدخلها الالفة فى عداد اليوميات الرتيبة التى تنتظر فى أوقاتها ولا تحتاج الى لهفة فى الانتظار ..

وان تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة في نفساها ،  
وبعد مداها ، فأعجب لليون الشاسع بين ضخامة أثرها  
وضآلة وسائلها ، وأنظر الى اليون الشاسع مملا في  
صحيفة كصحيفة « العروة الوثقى » أو « أبو نضارة » أو  
« انطائف » أو « الاستاذ »

وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الاخبار  
البوليسية او البرقيات المقتضية ، وتحاول ان تتبع أثرها  
الى أقصى مداه فلا تستقصيه ، لانك قد تسمع صداه في  
تحوم الصين وعلى متون الرمال في جوف الصحراء ..

ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة  
وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمقارنة بين دعوة  
يطلبها الناس ويتشوقون اليها ودعوة تطلبهم وتحنل  
عليهم بأفانين الترغيب والتقريب

منظر الحساب بين مدير الصحيفة الاسبوعية ووكيلها  
قد يصح ان يثنى عن طبع العدد الأول من صحيفتي  
المطوية وأن يضعف أمل في تحصيل تكاليفها بعد عدد أو  
عددين ..

ولكن هل تراه يذهلني عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها  
من حولي كاللدامة المدوية في لجة البحر الموار بالامواج  
والرياح ؟ ..

ان الف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من  
الضمائر قداسة الدين ، وان الف دجال باسم الصحافة  
لا يمسحون قداسة « الكلمة » الحية بين أناس يحتاجون  
الى الكلمة حاجتهم الى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم  
الطويل ..

ان الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول  
لا تستطيع أن تملأ الجو من أعلاه الى أدناه ، ولا أن  
تستوعبه بجميع زواياه . .

فاذا وجدت هذه الصحف ، فهي الشفاعة المقبولة أو  
غير المقبولة لوجود طبقات في الجو الصحفي الى جانبها ،  
تنزل من الملك الى الوزير ومن الوزير الى الرئيس الصغير  
ومن الرؤساء الى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن  
هؤلاء الى ما دون ذلك في طبقات ذلك الجو الفسيح . .

وليقبل العائب العاتب ما شاء ، فانه لن يستطيع أن  
يقول في النهاية شيئاً عن تاريخ الشرق الحديث دون أن  
يقول معه شيئاً عن الدعوة القلمية وعن الصحافة  
والصحفيين . .

### صحيفة الدستور

كانت صحيفة « الدستور » التي اصدرها الاستاذ  
« محمد فريد وجدي » منذ نصف قرن أول صحيفة يومية  
عملت في تحريرها . .

ولا أقول انه كان « عمل ضرورة »

ولا أقول كذلك انه كان عمل اختيار

ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، اذا صح هذا  
التعبير ، وأبادر فأقول انه صحيح غاية الصحة ، لاننا  
في اعمالنا التي نعدّها من معالم حياتنا لا نستطيع ان  
نقول عن عمل واحد انه كله اختيار ، أو أنه كله  
اضطرار . .

وكان في وسعي قبل العمل في تحرير الدستور ان  
أعمل في تحرير « اللواء » أو في قلم الترجمة باللواء علي  
الاصح . . لانني علمت انهم يطلبون مترجمين يعرفون

الانجليزية او الفرنسية ، بعد تفكيرهم فى انشاء «لواءات»  
غير اللواء العربى تصدر باسم «الاستاندرد» و  
«ليتندار» ..

## التحرير أو الترجمة

وكانت الترجمة الصحفية من اعمال تلك الفترة التى  
كان امثالى يستطيعونها ، وكانت ظروف التعليم والنشأة  
«الاسوانية» مما يرشحنى لادائها ، ويجعلنى من المفضلين  
فى «امتحاناتها»

فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الانجليزية ، ومنها  
دروس الجغرافيا والمعلومات العامة «أو الاشياء»  
وكانت صحف المدارس المقروءة فى انجلترا بين  
«المطابعات» الاضافية المقررة علينا فى السنة الرابعة  
الابتدائية

والى هنا نتساوى جميعا فى مدارس القطر كله ، ثم  
ياتى دور النشأة الاسوانية بمزية تنفرد بها مدينة أسوان  
ولا تشاركها فيها سائر المدن فى الوجهين

كانت المكتبات الافرنجية تفتح فى موسم الشتاء  
لبيع الكتب والمجلات والصحف الاجنبية المحلية ، وكان  
كبار الزوار لا ينقطعون عن زيارة المدرسة خلال الموسم  
الذى كان يمتد من ديسمبر الى مارس ، وتتبع زيارتهم  
احيانا دعوات خاصة نجلس فيها مع ابنائهم وبناتهم ولا  
نتكلم اثناءها بغير اللغة الاجنبية ..

وتضاف الى ذلك حالتان طارئتان على أسوان - فى ذلك  
الحين - لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملة  
السودان وبناء الخزان ..

ففى اثناء حملة السودان ، كان الحاكم العسكرى

ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على  
المصالح ، طائفة من الانجليز العسكريين او المدنيين لا  
يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه « ولد من اولاد  
المدارس » مرجعا نافعا لقراءة الاوراق الرسمية او ترجمة  
العرائض الى « الحكام » على حسب الاجتهاد ، وكان « نصف  
الفرنك » نفحة سخية يحصل عليها « الولد » المترجم الذى  
يستطيع ان يخط فى اوراق بضعة سطور تدل على معنى  
من المعانى مفهوم بالاشارة او بالتخمين .. فأما « الولد »  
الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد  
يصعد فى معاملته الى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع  
زيادة القربة أو الجوار ..

أما بناء الخزان فقد جلب الى المدينة مئات من المهندسين  
والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الافرنجية طسوال  
العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع الى النظر فى هذه الصحف  
وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا - مع تتابع النظر -  
أن نعرف اقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن أبرقيسات  
والاخبار منها ، وان نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا  
يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة او بالتصحيح بعد  
التصحيح ..

### مع مصطفى كامل ..

فلما علمت أن « اللواء » يطلب مترجمين يعرفون  
الانجليزية ، خطر لى ان استقيل من وظيفتى وان ارشح  
نفسى للعمل فيه ..

ولكنى ترددت ، وطال التردد حتى اجمعت ، ثم فضلت  
ترك هذه « الفرصة » وانتظار فرصة غيرها لسببين :

« اولهما » اننى اذا اقدمت على هجر اوظيفة الحكومية

مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لاكتب لا لاتسرجم ،  
فانني ما احببت الصحافة لانها مورد رزق افضل من موارد  
الوظائف الحكومية ، ولكنني احببتها لانها مجال للكتابة  
او صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل أو  
انترجمة ! ..

والسبب الثاني شخصية مصطفى كامل رحمه الله ،  
فان محادثتي الاولى له لم تشجعني على مزاملته في عمل  
دائم ، وصورته لي رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا  
يسمح حتى للفكاهة او « للقافية » أن تفتح عليه بابا  
لتصحح قوله قانها أو رأيا ارنآه ..

كنت اتبرع بالتعليم في المدرسة الاسلاميه بأسوان ،  
وحضر مصطفى كامل متفقدا للمدرسة ومعه الكاتبة  
الفرنسية مدام « آدم جوليت » وسيدة انجليزية ، وكانت  
الحصة حصة محفوظات ولغة .. فأملى مصطفى كامل على  
التلاميذ هذا البيت لابي العلاء :  
والمرء ما لم تفد نفعا اقامته

غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر  
وترجمه للسيداتين بطلاقة وإيقاع ، ثم طلب من التلاميذ  
ان يشرحوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح  
، والتعليق ..

وانتفت مصطفى كامل الى ، والى الاستاذ « محمد شلبي  
عيد » متسائلا ، فأدركته قائلا ان التلاميذ معذورون ..  
لانهم في أسوان يعلمون ان الغيم الذي يظل الرؤوس شيء  
نافع لا يضربون به المنزل لقللة النفع .. فلعله انفع لهم من  
سُعاع الشمس ومن المطر ..

« حسن تخلص » كنت أقدر من « خطيب » منله ان  
يتغبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ،

وبدا لي ان الاستدراك عليه - ولو من باب الفكاهة - امر كثير على طاقته الفكرية والنفسية ، وأرى الان انها لم تكن منه فلتة عارضة في زيارة عاجلة ، لان حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لمحة واحدة فيها شيء من سماحة الفكاهة او سماحة التوفيق بين الاراء ..

### فريد وجدى .. والدستور

ولم يطل بي الانتظار حتى اعلن الاستاذ فريد وجدى ، عن عزمه على اصدار « الدستور »

ولم يكن اسم « فريد وجدى » غريباً عني ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الاسلامية الفلسفية .. فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الاسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة المدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقيته وحادثته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل في صحيفته ، وخرجت اقول لنفسي ان اكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني عن العمل معه ، لانني عجبت بحرية فكره ، مع اشسستهاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والحرص في شئون الدين والدنيا .. فما من فكرة قط كان يرى انها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة

وأظن اليوم أن فرط النقه بقوة الحجة والقسدره على الاقناع هو الذي كان يسوغ له ان يسمع كل رأى ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال . ودام عملي في صحيفه الدستور من عددها الاول الى عددها الاخير الا أشهراً قليلة فارقتها فيها ثم عدت اليها .. فأكاد اقول ان ما خالفته فيه اثناء هذه المدة اكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير



كلمة واحدة كتبها لمخالفة رأيه

كان شديد الايمان بالجامعة الاسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير في اخرج اوقات الحاجة الى المال . ومن ذلك انه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار « الدستور » لسان حال للحزب في سياسته العثمانية بعد ان تكفل الحزب بالانفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لان الحزب كان يشترط ان ترفع من عنوان الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » . ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمان يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت اخالفة فيها ، وأرى انها تعمل لنفسها ، ويعمل لها الزمن أضعاف ما يعمله المنقطعون لها من دعواتها المخلصين وغير المخلصين . . فلم يحاول قط ان يفرض على رأيا في قضية من قضاياها بغير الاقناع أو السكوت . .

وكانت صحيفة « الدستور » لسانا ثانيا للحزب الوطني بعد اللواء . وكان موقف الحزب الوطني معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحرير اللواء ، ولكنني كنت أؤيد سعدا وأرد على ناقيديه في الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبت في هذا الموضوع . .

وكان من غلواء الأستاذ وجدى في محاربة الاختسلاط الجنسي أنه كان يشجع الهواة على انشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه حذقة تقرى بالسخرية حتى في تلك الاونة . . ولم يكن الرجل

على جهل بتاريخ التمثيل في الغرب الحديث أو القديم ، فكان اذا لمح منى بادرة من بوادر السخر الخفية لم يزد في حديثه على أن يقول : « لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته .. فهل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير » !

## الفاضبون !

واعتقد ان اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزاناً لنزاهة هذا الرجل ولحرية الفكرية والدستورية ، يغنى عن كثير من الموازين ..

وماذا في « اسم » على رأى شكسبير أيضاً ؟ .. فيه كثير وكثير ، ولا سيما في العصر الذي سميت فيه الصحيفة باسم الدستور ..

كان اسم « الدستور » يفضى قصر « يلدز » ويفضى قصر عابدين ، ويفضى « قصر الدوبارة » ..

وكان الحزب الوطنى يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة إليه ، لانه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد . ويراجع القارئ اليوم صحيفة « اللواء » فيرى انها كتبت عن المطالبين بالدستور فى تركيا ، قبل اعلانه هناك بيوم واحد ، فقالت انهم قوم يسبحون فى الخيال ..

وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما اراد بالتحريض عليه احراج الانجليز والحد من سلطة المندوب البريطانى والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الاصغاء الى هذا الطلب كلما تاب الى شىء من الوفاق بينه وبين المحتلين .. ولهذا كان حزب انقصر يسمى نفسه « حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية » .. ولا يخفى الفارق بين الدستور

واصلاح الدواوين على مبادئ الدستور !

وكان حزب الامة ، كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق للعرش ، وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية ، وكان ينادى بالاستقلال التام فيهدده المؤيد بحكم القانون لان السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن حزب الامة على مناداته بحصر الحقوق كلها في الامة لم يخل من اقطاب مخلصين كانوا يحسبون الطفرة في الحكم النيابي خطرا حقيقا بالحذر والاجتناب ..

فاذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سند له من اصحاب العروش ، ولا من جمهرة الاحزاب ، فاختر كلمة « الدستور » دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة فهو اسم يدل على كثير ، وان غضب صاحبنا شكسبير ! ..

### صحافة المتطوعين

في هذه الصحيفة بدأت عملي الاول ، فماذا كان عملي الاول هذا ؟ او بماذا نسميه في « تقاسيم » الصحافة الاخيرة ؟

لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة اننى كنت نصف هيئة التحرير برمتها ، اذ لم يكن في قلم التحرير غير كاتبين اثنين ، احدهما انا والاخر صاحب الصحيفة !

ولا نبخس في هذا المقام فضل « التطوع » في تحرير صحيفة الدستور ، ولا في تحرير غيرها من صحف تلك الفترة . . . فقد كان قوام المقالات الصحفية من « تحرير المنازل » وكانت اشهر الفصول على الاطلاق في ذلك العهد فصولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم في البلد محرر متطوع ما عدا الجالسين على مكاتبهم في دور

الصحف المحدودة ، وهم معدودون على الاصابع  
ولقد كان نصيب « الدستور » من التطوع اوفى نصيب  
اذ كان فيها « محرر متطوع » دائم يكاد ينهض بعمل  
الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب الى جانبها التعليقات  
وحواشي الاخبار والمتفرقات . .

كان الاستاذ « احمد وجدى » شقيق الاستاذ فريد  
صاحب الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان  
رحمه الله شابا المعى الذكاء كريم الخلق مستقيم الذهن  
مجتهدا فى كل عمل تولاه ، وقد تولى عملا قليلا فى  
انصحافة ثم تولى عمله فى المحاماة امام محكمتى الزقازيق  
والمنصورة ، فاشتهر فى الاقليمين ايما شهرة ، وقامت  
شهرته على الذمة والنعفة كما قامت على البراعة والبلاغة ،  
ولو امهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما اشهر  
من اسمه فى عالم المحاماة

وكان زملاء « الاستاذ احمد وجدى » يتطوعون معه  
بالكتابة والترجمة من حين الى حين ، ولكنهم اضربوا جميعا  
- او كادوا - بعد الخلاف الذى حدث بين فريد وجدى  
ومصطفى كامل . . وكان فحوى هذا الخلاف ان صاحب  
الدستور اعترض فى مجلس ادارة الحزب على اختصاص  
وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال  
ان هذا الاختصاص ربما اعطاها الصفة « الاستثنائية »  
التي تدعيها فى مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على  
صيغة من الصيغ اذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح  
بتوجيهها الى اكثر من دولة واحدة ، فاعرض مصطفى كامل  
عن اقتراحه واعرض معه اكثر الاعضاء ، وكتب فريد  
وجدى خلاصة المناقشة فى الدستور فحسبه المؤيدون  
الاليون منشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض اولئك

الطلبة « النجباء » الذين كانوا يتطوعون للكتابة في صحيفة الحزب الثانية !

الا انا - نحن هيئة التحرير - المؤلفة من صاحب الصحيفة ومنى ، كنا نعمل في التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والاخبار .. وكان الاستاذ وجدى قليلا ما يبرح داره ، فكنت انوب عنه في أعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الاخبار وعلى الاحاديث ، وبينها اول حديث للوزراء المصريين ..

والاخبار لم يكن خطبها في ذلك العهد بالامر العسير ..

كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل اليه النشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتنقلات وصرف الاموال في المشروعات العامة .. ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين الى استطلاع النيات والتقاط الاسرار ، فان السياسة الكبرى كانت في علم المندوب البريطاني ومستشاريه ومفتشيه ، وليس لاحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير اصحاب « المقطم » وبعضهم وكلاء الصحف الاوربية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من اسرار السياسة العليا ، ولا تطلعهم على خبر من اخبار الميزانية قبل اوانه (١٩٠٥)

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، في النهاية على حد سواء .. الا أن طائفة من المخبرين كانت تسامون « الادارة » على تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها انها تحصل على اخبار النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات « المسودات » في سلال المكاتب المهمة ، وظلت هذه الحيلة تروج عند بعض الصحف الى ما بعد ايام الثورة في اعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعينى واحدا من هؤلاء المخبرين يبسط هذه القصاصات ويجمع

متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد ذلك انه قد جاء بالخبر  
المضنون به على غير المجتهد الاريب

\*\*\*

كنت اذهب الى مكتب الاخبار الصحفية بديوان الوزارة  
فأرى هناك على التناوب عشرين أو ثلاثين صحفيا من  
مندوبى الصحف العربية ..

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفه  
السامعون اذا ذكر ، ولكن القارىء قد يعجب لاختلاف  
مقاييس النظر والتقدير اذا علم اننى كنت فى نظرهم  
جميعا فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت احدهم يتكلم  
عن عمر منصور مندوب المؤيد ، وعبد المؤمن الحكيم مندوب  
الاهرام ، وسامى قصيرى مندوب المقطم ، وجورج طنوس  
مندوب الوطن .. فاذا هو يشيعنى بالاشارة الساخرة ،  
وهو يسب الزمن لانه قضى عليه بالعمل فى الصحافة مع  
أمنالى :

« يحرق دين ها » البريس « press .. ما عاد غير  
ها الزعران يسود ورقاتها .. »



الفصل

الثالث

الصحافة قبل خمسين سنة





## قبل خمسين سنة

بعد شهرين من العمل في داخل الصحافة المصرية ،  
أمكننى أن أخص حياتها عند أوائل القرن العشرين في كلمة  
واحدة :

تلفيق ! ..

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة  
من الصور لكان من أعجب العجائب حقا أن توجد صحيفة  
واحدة ، وان تعيش - اذا وجدت - أكثر من بضعة شهور  
كانت موارد الصحف كلها من الاشتراكات ، وثمان  
النسخ الموزعة ، وأجور الاعلانات ٠٠ وكانت هذه الموارد لا  
تكفى كالم الكفاية للانفاق على الصحيفة الى أمد طويل ،  
ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من  
جرائر الخلل الدائم في وسائلها ومواعيدها

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بد من مورد آخر غير  
الاشتراكات وغير البيع وغير الاعلانات ، وهو كذلك مورد  
مضطرب معرض بطبيعته للفوضى وتبدل الأحوال ، ونعنى  
به مورد «الاعانات» السرية من اصحاب الدعايات ،  
ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك والامراء أو من  
دواوين وزارات الخارجية والسفارات

فلاشتراكات الصحفية قبل خمسين سنة - كانت من

الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقياس الى موارد الصحف في العصر الحاضر لان الصحف في العصر الحاضر تعتمد على البيع في الاقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات ولم تكن وسائل البيع في الاقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الاسبوعية او الشهرية الى زمن قريب ..

وكانت الاشتراكات خليقة أن تمتد الصحف بمورد نافع لو خلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت في الواقع مولودة بموانعها وعثراتها ، أن صح هذا التعبير ..

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا في الصحف اليومية لأنها مظهر من مظاهر الواجهة و « الاهمية » في القرية او البلدة الصغيرة .. ولم يكن بالقليل بين مظاهر الواجهة اليومية ان يحضر ساعى البريد الى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادى بصوت يشبه صوت المنادى باسم « المحكمة » في ساحة القضاء :

« بوسطة » ! ..

فاذا بالحي كله يترقب « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بانباء الارض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و « الانجلاطيرا » وملك «الفرنسا» أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالاسطورة الطريفة التي تسمى بالترنسفال .. وبينها وبين السودان في الجنوب الوف الاميسال ، وباله من « واقع » وراء الخيال !

ولم يكن الوجيه الريفى يبخل بثمن هذا المظهر ، او يماطل الصحفية بقيمة الاشتراك حبا للمطال .. ولكنه وجود به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة ، وأين هذا الذى يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالامانة والوفاء ؟ ..

لقد كانت الصحف تنشر ، بين آونة وأخرى ، خبراً مكرراً عن الوكيل « فلان » الذى ألقى توكيله وأصبح غير معتمد فى تحصيل الاشتراكات ٠٠ وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك إعلاناً موجهاً الى وكيلها فى هذا الاقليم أو ذاك تنبهه الى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والانذار . وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغنى الصحيفة عن مراجعة الوكيل القديم لقلّة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة أو المدرّبين عليها فى معاملة الصحف والمشاركين والموظفين وأفراد « الجمهور الصحفى » على التعميم ..

### « حق » الصحيفة

وكانت للوكيل فنون فى معاملة الموظفين وأغرائهم بالثناء أو تهديدهم بالتشهير والانتقاد .. ولا غنى له عن هذه الفنون لأنه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير فى تحصيل « حق » الصحيفة و « حقه » هو فى سوقه السوداء .. من وراء الستار ..

ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات ..

ولا حيلة فى قبول الوكيل على علاته ، لان معاملات الصحف لم تكن فى ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذى يسمح « بتكوين » طائفة من الاعوان المدرّبين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فاذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فانما ينجح بعد ابتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولنذكر أن الوكيل - على عيبه هذا - لا يستطيع ان يعمل فى بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها .. فلا بد له

من موطن في إقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الاقليم الحدود  
لاكثر من مئتي مشترك على أكبر تقدير ..

وكم يصل من هذا المحصول الى خزانة الصحيفة بعد  
المطال والعمولة والسوق السوداء ؟ ..

قليل .. جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت الى هذا القليل ، فقد كان عليها  
ان تقبل وسائله وتتجرع غصصه ، وتفرض عما تعلمه  
من عيوبه ومحظوراته ..

### عدة الشغل

ومنها - بل في مقدمتها - ان تنشر الصحيفة كل ما  
يصل اليها من رسائل الوكيل أو من مدائحه وأهاجيه في  
الواقع ، لانها « عدة الشغل » التي يعمل بها ، ولا عمل  
له غيرها ، بين الاعيان والموظفين .. فمن تصدى لتحصيل  
الاشتراكات - وتحصيل غيرها في السوق السوداء - فلا  
أمل له في محصول ينفعه وينفع الصحيفة بغير تخويف  
واغراء ، ولا ضرر بالتخويف والاغراء في سبيل الخدمة  
العامة والمصلحة القومية .. ولكنه الضرر كل الضرر على  
الوكيل « الاريب » الذي يستطيع ان يجمع المئات من  
لذعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركها ليقنع بالعشرات وما  
دون العشرات

واحسب - بعد هذا كله - أن التفاؤل فريضة على  
الناس يضطرهم اليها الصدق الواقع ان لم يضطرهم اليها  
شغورهم بالحاجة الى الامل والعزاء ..

ان الامور لا تقاس بأسوأ الظروف في جميع الاوقات ،  
فكثيرا ما تتمخض الظروف السيئة عن حسنات لم تكن

فى الحسابان . ولقد رأينا فى ذلك العهد اناسا عملوا فى وكالة الصحف يدينون انفسهم بنزاهة القاضى وامانة الطبيب ، ويستغلون بهذه الصناعة لانها « هواية » تملأ ان فراغ بالرحلات والمقابلات فى غير عنت ولا اضطرار ، ولكنهم شذوذ القاعدة الذى يبعث فىنا التفاؤل كما أطبقت علينا ظلمات السؤم والقنوط . .

أما القاعدة المطردة يومئذ ، فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة فى طورها الاخير . . وكانت « تصنيفة » الوكلاء الصحفيين فى القرن العشرين تدل على المورد الذى تتسرب منه اشتراكات الاقاليم ، فهى « تصنيفة » يتلاقى فيها الكاتب العمومى المتجول ، وقارىء الأعراس والمآتم ، ومأذون الشرع المفصول : وصاحب الصناعات التى لا تحصى . . لانه « متشرد » عام يشتغل بجميع الصناعات !

## التوزيع

أما التوزيع بأيدى الباعة فقد كان موردا للصحف اليومية أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه فى متاعب التحصيل ، ولكنه لو اجتمع برمته من جميع الصحف الكبرى التى كانت تصدر فى القاهرة قبل خمسين سنة ، لما كان فيه الكفاية لاصدار صحيفة يومية واحدة فى هذه الايام

وكان اربعة اخماس النسخ المعدة للبيع توزع فى القاهرة وضواحيها . . ولولا ان الاسكندرية كانت مستعدة بموزعيها المشتغلين ببيع الصحف الاجنبية لما تأتى تدبير مسألة التوزيع فيها . .

ومن المناظر المألوفة اليوم فى عواصم القطر أن يرى

المارة للصحيفة اليومية اربع سيارات او خمسا تتسع  
الواحدة منها لحمل عشرات الالوف من النسخ وتتولى  
نقلها يوميا على خطوط الاسكندرية او بور سعيد او  
الاقليم الوسطى في الوجه البحرى او اقاليم  
الصعيد ...

فقبل خمسين سنة لم تكن في القطر المصرى سيارة  
واحدة من هذا القبيل ، ولو وجدت فيه سيارة واحدة  
لفرغت من عملها فى حمل صحف القاهرة جميعا بعد  
نصف ساعة ..

### المعلم عكريشة

وكان المعلم عكريشة يجلس الى ناحية المكتب وفى يده  
الجوزة التى لا تفارقه ، وأذناه الى الكاتب الذى يسأل  
« أولا فأول » عن عدد الوارد من كل صحيفة ، الى ان  
يتم الوارد من جميع الصحف اليومية .. ثم تبدأ عملية  
التفريق على المساعدين من المتعهدين ، فأنصاف المتعهدين ،  
فالباعة المتفرقين ..

ولا يكلفك الامر اكثر من جولة سريعة بالنظر فى هذه  
الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر  
الكبرى فى ذلك النهار : المؤيد ، واللواء ، والاهرام ،  
والمقطم ، والوطن ، ومصر ، والظاهر ، والراوى ،  
والجوائب المصرية ، والمحروسة ، فى بعض الاحايين ..

وكانت هذه الصحف تصدر معا فى وقت واحد بين  
الساعة الثانية والساعة الثالثة فى المساء ، ويحملها عمال  
عكريشة أو عمال الصحف من مطابعها الى الزاوية المعروفة ،  
فلا تلبث « عملية » النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة  
واحدة بنصف حملتها ..

وما كانت صحف القاهرة الكبرى تحتاج الى مكان للتوزيع اوسع من « زاوية عكريشة » على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء ..

ولم تكن «زاوية عكريشة» هذه مكتبا ولا شسبه مكتب ، ولكنها كانت منضدة من مناضد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف .. وكان المعلم « عكريشة » متعهد بيع الصحف جميعا يستعيرها في مبدأ الامر من كاتبها الذى كان يستغنى عنها بعد الظهر - أى بعد الفراغ من كتابة العرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد تم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة واحدة ، لاتساع دائرة العمل وزيادة الاقبال على الصحف اليومية بعد قيام الاحزاب السياسية ، على اثر قضية دنشواى ..

ثم يخلو الرصيف الا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنضدته وقلمه الذى يحمله وراء اذنه ، الى ان يودعه مكانه فى الدواة النحاسية الصفراء .. ومتى خلا الرصيف هناك لم يبق مكان فى القاهرة خلوا من صبى من صبيان المعلم الكبير ، تكاد تحبهم أسرع من الترام لانهم يصلون حيث لا يصل الترام ، وتكاد تختلط أصواتهم بأصوات بانعى الخضر والفاكهه ، ومنها النداء على « الوطن ومصر العال ! » ..

وليس أمامى احصاء دقيق لتوزيع الصحف فى تلك الايام ، ولكنه على الحد الاقصى لا يزيد على خمسة الاف للصحيفة الواحدة ، لانه الحد الاقصى الذى تبلغه طاقة المكنتات الطباعية ، قبل وصول مكنتات البخار والكهرباء ! ..

### الإعلانات

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع ان تسقط الاعلانات

من حسابها ثم تطمع في البقاء واستيفاء ابواب الاخبار والتعليقات ، ولكن صحافة الامس كانت تستطيع بلاتردد ان تسقط اعلاناتها من عددها الاول ثم لا تفقد شيئا يعوقها اسبوعا عن الصدور ..

وكانت التقاليد الموروثة - والامية معا - عائقين طبيعيين لظهور « الاعلان » الصحفى الى سنوات قليلة مضت .. لعلها هي السنوات التى ظهرت فيها اول شركة للاعلان الصحفى فى هذه البلاد . .

كان من التقاليد الموروثة ان يشتري الانسان لوازمه « المهمة » من حيث اشتراها ابوه وجده

وكان الريفى ينزل القاهرة لشراء لوازم الفرخ ، او لوازم البناء والاثاث ، فيذهب الى امكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل الى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مذكور والماوردى والجمال والحصانى ومخازن الحدائد والاششاب فى ناحية القلعة وسوق اسلاح ، ولا نطن أن متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر اعلانا واحدا ليكسب به « زبونا » لم يكن يعرفه قبل ذلك الاعلان ..

اما المتاجر الصغيرة التى تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت معروفة فى احيائها وقراها بغير حاجة الى اعلان مكتوب ...

لهذا بقيت اعلانات الصحف سنوات عدة وهى مقصورة على اعلانات البيوع القضائية واعلانات الوفيات او اعلانات « ختمى فقد منى وليست على ديون ولم أوقع على سندات او كمبيالات .. »

واعلانات « الاختام » وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الاعلانات .. لانها عنوان للامية التى



تعجز عن كتابة الاسماء . ومع هذه الامية ، لا اعلان ،  
ولا قراء للاعلان !.

### الإعلانات السرية

ونحن الان نكتب ونقدر ونتذكر ولا نرجع الى الصحف  
التي عاشت في مصر وانطوت بعد حين .. ولكننا لا  
نجازف اذا قلنا ان مصاريفها كانت على التحقيق اكبر  
من مواردها التي يدل عليها حساب البيع والاشترار  
والاعلان .. ولولا أنها اعتمدت في وقت من الاوقات  
على مورد الاعانات « السرية » لما طال بها الاجل شهورا ،  
فضلا عن سنوات ..

وقد تعلم مبلغ الحاجة الى هذه الاعانة اذا علمت ان  
شركات البرق - شركة روتر وهافاس - كانت تتلقى  
اعانة رسمية من الحكومة المصرية، وان مطبوعات الدواوين  
والسفارات كانت تحال - علانية - الى بعض الصحف  
لطبعها ، مع وجود المطبعة الاميرية

ولم تكن مصادر الاعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة  
والسياسة ، وان لم تبلغ من الصراحة في زمن من الازمان  
مبلغ الاعتراف المكتوب

وربما انقسمت هذه المصادر في جملتها الى مصدرين  
اثنين على شيء من الدوام والانتظام .. وهما القصور  
الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية ، وقصر  
« بلدز » في الاستانة كان مصدر القسط الاوفر من اعانات  
الصحافة والصحفيين المتطوعين ..

وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الاخر السنوي  
ينافسه يوما ويعمل معه يدا بيد في عامة الايام ..

وكان بخل عباس المشهور يغفل يده عن التبرع بالمال من خزائنه الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة الى ديوان الاوقاف وتارة الى ديوان الرتب والنياشين . .

## اسعار الرتب

وكانت للرتب اسعار مقررّة من الباشوية الى البيكوية من الدرجة الثالثة

فكانت رتبة الميرمان الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورقبة البيكوية من الدرجة الاولى تباع بثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه ، وكانت رتبة البيكوية من الدرجة الثانية تباع باربعمائة جنيه أو ثلثمائة جنيه ، وتقدر أسعار النياشين والاوسمة بمقدار قيمتها من المعسدين والجواهر وقيمتها من الاولية في ترتيب التشريفات

ولقد بيعت رتب كثيرة في القهوات ، وبيعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل . . ولكنها لم تهبط في السوق - على ما نعلم - الى ما دون مكاتب التوكيل في القاهرة والاسكندرية . . ولو ان سمسارا من سمسارتيها خانة الحظ أو غلبه الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه في جريمة شائنة ، لبقيت هذه التجارة موردا للصحافة الى ختام عهد الخديويين . .

والوكالة البريطانية وسفارة فرنسا كانتا في هذا المجال ندين كفاين - أو أكثر من كفاين - لقصور الملوك والامراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكفيء خدامها بالمنافع الجزيلة من الوساطات والشفاعات في دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات «الميزانية» ومن مصروفاتها هي اذا اقتضى الحال . . ولا تقصر السفارة الفرنسية

عن زميلتها في بذل هذه الاعانات على اختلافها ، ولكنها كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه ..

ومن الوظائف التي كانت تدو للنظر - بريئة - من هذه الشبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة - باتفاق العرف - على علماء الالمان . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفة في السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة الصحفيين وحملة الاقلام أمرا لا غبار عليه ، لانهم كانوا يقصدون الى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ في جميع الاوقات . وماذا يحول دون الاتفاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة او مقابلتين لنسخ هذه الورقة او استعارة ذلك الكتاب ؟ ..

### ونعود الى الدستور

ونعود الى صحيفتنا التي بدأنا فيها عملنا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو أن تعيش كما عاشت الصحف في أيامها ؟ ..

نقول اليوم ان ظهورها بوسائلها التي عهدناها ، ولا يخامرنا اشك فيها ، كان عجبا من العجب . وخلصنا ما يقال عنها أن قلة مصروفاتها كانت هي السند الأكبر لبقائها المزروع في عمرها القصير

ضاع الامل في الاشتراكات بعد شهر او شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة - على شهرته بالنظريات ، مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الاعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالاذونات مع خصم رسوم البريد من

بعض هذه الاذونات ، وافادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء، فقصرت الادارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع الى أسبوع ..

ومن لطائف الاستاذ فريد وجدى - وكان يمزح احيانا ولا يقول الا صدقا - ان موظف الادارة فاتحه في نقص اجور الاعلان فقال له متمللا: ألا تحمد الله لاننا لا نغرم حتى الان اعلانات في الصحف عن ظهور الدستور!؟

أما الاعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير لولا أن الاستاذ فريد وجدى رحمه الله كان يحسب انه يسخر أصحاب الدعايات لرسالته الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية .. وقد يصل الامر الى تبرعات الافراد ، فلا يقبل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة .. وحدث من ذلك أن السيد توفيق البكرى أراد أن يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو في مسألة « زفة المحمل » وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل الى الاستاذ وجدى مبلغا لا أذكره على التحقيق ، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير .. فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد ايصالا بقيمة الاشتراك ، ويعيد اليه بقية مبلغه مع الايصال ..

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبة قبل المقدمة ، واولا قلة المصروفات - كما أسلفنا - لاتصلت النتيجة بالمقدمة في أيام ، أو على الأكثر في أسابيع !

## سنة جنيهاً

كانت المصروفات القليلة سبباً من أسباب بقاء الصحف المصرية في سنواتها الأولى ..

وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير في الصحف اليومية الكبرى ، فقد كان قلم التحرير في أكبر الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصي الأخبار من الأقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهاً في الشهر ويندر جداً أن يجاوز العشرين ..

وكان قلم التحرير في صحيفة الدستور يشمل على محرر واحد غير صاحب الصحيفة ..

وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك في التحرير والترجمة وتلخيص الأخبار ، ويتناول في الشهر مرتباً لا يقنع به الآن أحد يعمل في الصحف من البسوة إلى السعاية ونقل الأوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب الأخبار ..

ذلك المرتب « مبلغ وقدره » ستة جنيهاً ، ولم يكن يزيد على مرتبى من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد .. فلم تكن زيادة المرتب إحدى المفريات لي على ترك الوظائف الحكومية للاشتغال بالصحافة ، لأن المرتبين متقاربين مع الفارق في الضمان والترقية ومستقبل المعاش ..

إلا أن القيمة في هذه المرتبات لا تحسب بحساب الأرقام فإن الستة ربما ساوت ثلاثين في الوقت الحاضر أو أربعت على الثلاثين ..

كانت خمسة مليمات في ذلك الحين تعطيك مائدة افطار حسنة في الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة

فى طعام الغداء أو العشاء ..  
مليم ثمن نصف رغيف ( شقة من الخبز ) يساوى وزن  
الرغيف فى منتصف القرن العشرين ..  
ومليمان ثمن الفول والزيت  
ومليم ثمن صفحة من السلطة  
ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو اصبع موز أو أربع  
بلحات ..

فان اردت التنوع امكنك ان تغير هذه الاصناف  
بالحلاوة الطحينية أو العسل والطحينة أو الجبن أو  
البيض ، ومن هذه الاصناف ما يفنيك عن الفاكهة  
والحلويات !..

ولك ان تتوسع فى طعام الغداء ، فلا تقنع بالاصناف  
التي تقدم على مائدة الافطار .. ولكنك لا تحتاج الى أكثر  
من عشرة مليمات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشرة  
مليمات للصفحة من الارز ، وعشرين مليما للصفحة من  
الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن  
وقس على ذلك سائر المأكولات ..

## دروس التفراف

وكانت مشكلة السكن يومئذ اسر من مشكلة الطعام ..  
فكنت انا من سكان الضواحي الخلوية ، لا يكفنى  
السكن فى الشهر أكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ  
مطلّة على الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختيارى على  
الضاحية التي سكنتها - بجوار حدائق القبة - لاننى كنت  
من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية ، ولكننى كنت  
اتعلم دروس التفراف بمدرسته فى ضاحية الدمرداش ،

فاخترت السكن الى جوارها وضعت اجور المواصلات  
 باشتراكات « مجانية » على حساب مصلحة السكك  
 الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت اجور  
 المواصلات ، ولم اعوضها بتذاكر الاشتراك في الترام او قطار  
 كبرى الليمون . . . اذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدأ  
 صحيفتنا « الحنبلية » . . . فعوضتها بخمسة مليمات في  
 الترام ، أو بمشوار على الاقدام ، وقد كنت من الفلاسفة  
 المشائين قبل ان اسمع باسمهم بين الفلاسفة الاقدمين ،  
 وكنت لا اعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين  
 اسوان وأبي الريش ، فلماذا اعجز عن مشوار بين القاهرة  
 وحدائق القبة أو الدمرداش . . . ؟

لا موجب لهذا العجز على التحقيق ، وبخاصة بعد العلم  
 بمدرسة الفلاسفة المشائين ، وبعد ترشيحي بهذه الصفة  
 للتعلمة على استاذ الاساتذة ومعلم المعلمين : سيدنا ارسطو  
 كما كان يقول استاذ الجيل « احمد لطفى السيد »

### ديوان زهير . . بقرش

هذه ضرورات المعيشة المادية ، فما القول في ضروراتها  
 النفسية أو الادبية ؟

لقد كانت ايسر من ذلك فيما أعرفه من شئوني الخاصة  
 . . . ولعلها ايسر من ذلك في شئون الكثيرين . . .

ففيما عدا شهود التمثيل مرة أو مرتين عند عرض  
 الروايات الجديدة لم يكن لى مطلب عزيز غير شراء الكتب  
 العربية والافرنجية

فهل ترانى أعجز عن « قرش صاغ » ثمنا لديوان  
 البهاء زهير ؟ أو عشرة قروش ثمنا لديوان المتنبي ؟ أو  
 قرشين ثمنا لكتاب المستطرف في كل فن مستطرف ،

وعلى هامشه ، أو في ذيله ، كتابان آخران ؟ ..

وإذا زادت الحسبة الى الجنيهات ، فهل ترانى أعجز  
عن رحلة الى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أوللنقل  
منها « عند اللزوم » ؟ ..

أما الكتب الافرنجية فقد كانت لها طبعات يباع فيها  
الكتاب بشملن واحد ، وكانت هذه الطبعات تحيط بالنجبة  
المختارة من كتب المنظوم والمنثور ، وما يصعب الحصول عليه  
فى طبعة منها لأنها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه ولا  
تعنى بغيره ، فليس من الصعب ان تحصل عليه فى طبعة  
مثلها فى الثمن وفى جودة الورق والتفليف .. وعلى هذا  
امكننى فى خلال ستة اشهر ان اجمع مائتى كتاب من عيون  
كتب الادب الغربى فى جميع اللغات ، مترجمة الى اللغة  
الانجليزية ..

بارك الله فى مصطلحات السياسة وفوارق الاشكال  
والعناوين فى العلاقات الدولية

فما زلت من ذلك الحين اومن بأنها شىء صحيح ملموس  
الاثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا الفاظا تطير مع  
الهواء ..

فالبلاد المصرية كانت - فى الواقع - تابعة للدولة  
البريطانية فى سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية ..  
ولكنها لم تكن كذلك فى مصطلحات السياسة ، ولا فى  
اشكال العناوين ..

ولهذا استطعت ان اشترى كتابا يباع فى انجلترا بثلاثة  
جنيهات ولا ابذل فيه اكثر من اربعين قرشا فى مكتبات  
القاهرة ، لانه صادر من مطبعة المانية حصلت على حقوق  
طبع الكتب وبيعها فى كل مكان غير « الاملاك البريطانية »  
ولم تكن مصر قط من الاملاك البريطانية بحكم القانون ،



فليس في العرف الدولي ما يمنع المطبعة الالمانية ان ترسل الى مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن واحد على وجه التقريب .. فاستفينا بهذه الطبعة زمنا عن الكتب الانجليزية في طبعتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب بعد مشكلة الغذاء

ولم تبق الا مشكلة الكساء !..

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مرأء !..

لانها تحتاج الى مبلغ متجمع لا يوجد في اليد ساعة العطب ، ولا تحلها عندي حيلة التقييط لانه - على ندرته في ذلك الحين - لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء ..

ومرة واحدة حللت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتين ، ولكن الجوار الصالح هداني الى حيلة اصلح من هذه الحيلة لتدبير هذه المشكلة ، وهي درس خصوصي لتاجر اقمشة يتولى تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملة ، ويوفيني الاجر - بذلك - كسوة كل ثلاثة اشهر .. ولم تزد مدة التعليم كله على كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الاستاذ !.. او لرغبة الفريقين معا في « فسخ » العقد بسلام !

### خصلة مشتركة

وأخال ، بعد هذه القصة عن الكفاية ، اننى قد نسيت ان اقول ان قلة المصروفات كانت خصلة مشتركة بينى وبين الصحافة التى عملت فيها ، فقد كنت في سن الحاجة الى المصروفات قليل الحاجة الى المصروفات ، واصح من ذلك ان اقول ان مطالبى في حياتى ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذى يتوقف على المال ..

وكفاية المرتب ، على اية حال ، مهمة جدا في كل عمل  
نعمله لنعيش من رزقه

هى شىء مهم جدا ولا كلام ..

ولكن هل ترانا نفهم انها هى الشىء المهم الوحيد ، او  
ان شيئا آخر لا يهمنا مثلها على تفاوت المرتبات والاجور؟.

من يفهم ذلك ففى تجاربه نقص يتعبه فى عمله ويتعبه  
فى معيسته .. فالرغبة فى العمل الذى تتوفر عليه مهمة  
جدا كالمرتب الذى نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة  
جنيهاً نتناولها من عمل نرغب فيه ولا نستريح باثنى  
عشر نتناولها من عمل نبغضه ونساق اليه ولا نود ان  
ننجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملى فى الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه ..

ووجدت من اللحظة الاولى اننى اريد ان افرغ فيه  
جعبة المعرفة التى حصلتها من مطالعاتى الصحفية ، ومن  
مطالعاتى فى الكتب ، وفى الحياة ..

وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا  
تؤخر فى الموضوع ، ولكنها تدل على حكم العادة وتواتر  
النظر والسمع ..

### « عم » العقاد !

كيف اوقع مقالتي الاولى ؟ وكيف يكون توقيعى الملتزم  
فى جميع المقالات ؟

وقعتها كما توقع المقالات التى كنت اقرأها فى المجلات  
الاجنبية ، فكان توقيعى باللقب وبالحرفين الاولين من  
الاسمين : « ع . م العقاد »

ومثل هذا التوقيع لا ينجو من السنة الزملاء الهازلين

في بلد « القفش » والقافية .. فسرعان ما ظهر لي مقالان  
أو ثلاثة حتى دغموا الحرفين في اسم واحد ، وزاحوا  
يتحدثون عن مقالات « عم العقاد .. ! »

وماذا قال عمك ؟ .. وماذا تقول يا عم ؟ .. واكتب لنا  
يا عمنا بما تراه .. وقس على ذلك بقية القافية في مختلف  
الأوضاع والنداءات ..

ويأبى العناد أن يرجع عن « عم العقاد » ..

أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبرا على السخرية بغير  
مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشئ أن  
يذكر وأن يكون في توقيعه اغراء بذكره .. وأما السخرية  
فهي شهرة نائية في جميع الاسماع ، ولكنها تهون اذا  
اصابت الفطاحل النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين ..

وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من  
العدد الاول الى آخر الاعداد !

أما الموضوع فقد كان « المقالة الادبية » في المرتبة الاولى  
ثم تليه المقالة على الاجمال في مخنف الشؤون ..

وكان أدب المقالة في تلك الاونة يستوعب مطالعاتي  
الحديثة أو يكاد ..

كنت أدمن القراءة في كارليل ، وماكولي ، وهازلت ،  
ولي هنت ، وارنولد ، وغيرهم من أئمة فن المقالة في القرن  
التاسع عشر .. وكان بعض هذه المقالات مما ينشر في  
الصحف اليومية ، لأنها تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين أو  
اربعين صفحة ، وبعضها مما يصلح للنشر في الصحافة  
الاسبوعية كما يصلح للنشر في الصحافة اليومية ، ومن  
هذه المقالات كنت أترجم ما يصلح للنشر في الصحيفة  
السيارة ، وعلى غرارها كنت اكتب ماكتب عن ادباء  
العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق ..

ولم يخطر لى ان اخترع جديدا فى فن المقالة الادبية ، اذ كانت الصحافة المصرية كلها قد قامت على فن المقالة منذ انشأتها قبل الثورة العربية وكانت « الجريدة » قد سبقت « الدستور » فى تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعى » تلميذ « لى هنت » فى فن المقالة على اسلوب المدرسة الانجليزية ، فكان رائد هذا الفن فى تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه ابداع يعرفه قراء كتابه الذى سماه « بالصور » و اراد ان يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم « الاسكتش » sketch فى أدب القرب الحديث ، فلم احاول فى كتابة مقالاتى جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم اطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعى او موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، لاننى كنت مع اشتغالى بالكتابة مشغولا بنظم الشعر فى موضوعاته ، وهو اولى بالوصف العاطفى من المقالات ..

على اننى احمد الله لان المتقدمين على فى الصحافة لم يفلقوا على جميع الابواب ، فبقى لى فى الصحافة المصرية باب واحد استطيع ان اقول انى كنت اول السابقين اليه ..

وذلك هو باب الاحاديث مع الوزراء والساسة .. فلا أعلم ان احدا من الصحفيين المصريين سبقنى الى اجراء حديث عام مع وزير مصرى او رئيس شرقى يسمع له قول فى السياسة ، واخلهم معذورين بعض العذر فى هذا التأخير ، واخلنى محظوظا بعض الحظ فى هذا السبق المقذور ، لان الاحاديث امر مرهون باوانه لا يدركه احد قبل مواعده ولا بعده ، ولا هو بالمعقول فى صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواى وقيام الاحزاب ..

من كان يحدث الوزراء المصريين في شؤون السياسة العامة ، وماذا يقول الوزير للرأى العام اذا اراد المقال ؟  
وأى برنامج له يعرضه على الناس ؟ وأى رأى كان له بعد  
رأى المستشار ورأى قيصر قصر الدوبارة من وراء  
المستشار ؟

## احاديث الوزراء

ان حديثا يجرى مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير  
التوقيع والسكوت لهو اللغو بعينه ، فلا حرج على  
الصحفيين المصريين اذا تجنبوه .. وقد تجنبوه معدورين  
حتى خطر لى ان اقتحم هذا الباب لأول مرة ، فكان  
اقتحامى اياه فى الحق عنوانا لصفحة جديدة فى تاريخ  
الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق فى الصحافة يتكرر  
كل يوم ..

وجرى الحديث الاول مع سعد زغلول فى وزارة المعارف،  
وجرى غيره من الاحاديث مع الفازى احمد مختار  
« قوميسر » الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه فى زمانه  
.. وكان على ضآلة نفوذه فى مركزه شخصية من اقوى  
الشخصيات العسكرية والسياسية التى عاشت فى ذلك  
الزمان ..

وكنت اعلم ان حديثا ينطرق الى نظام الجيش فى عهد  
الاحتلال ، ويفوه به اكبر القادة العثمانيين فى مركزه  
الرسمى بالديار المصرية - لن يخلو من ضربة تقض مضاجع  
المحتلين ..

ولقد كان ما قدرت ، فان الرجل خبطها خبطة عنيفة ،  
وقال لى لما سألته عن العدوان على المحمل المصرى فى  
جزيرة العرب : ان الذنب ذنب النظام لا ذنب الامن فى

الجزيرة العربية ، وانه كان يستطيع ان يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرة التي تحرس المحمل في كل عام !

يا خبر ! ..

ان كلمة دون هذه الكلمة في المساس بنظام الاحتلال العسكري قد اوشكت ان تطيح بعرش عباس الثاني ، وقد حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وارغامه على الاعتذار ..

كيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائدعسكري يمثل الدولة العثمانية ؟ ..

الا انهم مكروا ولم يجهروا ، وبدات بينهم وبين القائد الكبير ازمة متوترة متواترة . . نصرهم فيها عليه سمسرة الخذلان في الاسـتانة ، فكان الفازى مختار خاتم « القوميسيرين » في هذه الديار ..

### ثورة على الخديو

اذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من اوليات الصحافة المصرية ، فهذه هي « اوليتى » التي خرجت بها من اول عملى فى صحيفة يومية : اول صحفى مصرى حصل على حديث من وزير عامل فى الوزارة ، او من رئيس شرقى كبير بسمع له رأى فى السياسة ..

وقد كدت ان اضيف اليها « اولية » اخرى ذهبت غير محسوس بها ، قبل ان تحبو من مهدها ..

كدت اكون اول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة الى سياسة الامير فى شئون مصر وفى شئون الاصلاح الازهرى على التخصيص ..

كانت سياسة الوفاق يومئذ فى عنفوانها ، وكان مدار

هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية سلطة الاحتلال وبين السلطة الشرعية سلطة الامر . . وقامت السياسة فعلا - بعد عزل اللورد كرومر - على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي تعنيه ، ومنها مسألة الازهر والاقواف ومسألة الرتب والنياشين . .

وفي هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية ، وادار ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة الاصلاح في الازهر بعد وفاة الاستاذ الامام ، راعين عدااه لمدرسة القضاء الشرعى وكاد يقضى عليها . .

وثارث الثائرة على الخديو من داخل الازهر وخارجه ، فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الازهرى واقسم انه يغار على الاصلاح غيرة اصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه . .

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من صحيفة « الاخبار » التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويحررها الاستاذ توفيق حبيب . قلت فيسه ما فحواه ان الملوك لا يحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالاعمال لا بالاقوال !

### براءة المشايخ !

وكان في وسعى ان اكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لان صاحبها - الاستاذ فريد وجدى - كان كما اسلفت من ارحب خلق الله صدرا لحرية الراى وحرية المناقشة ولكننى قدرت له حريته هذه فلم اشأ ان اخرجيه في مسألة ترتبط بالازهر والاصلاح الدينى . وقد كانت له في العالم الاسلامى مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين . .

فلما ظهر المقال في صحيفة الاخبار بتوقيع (ع الاسوانى) قلقت له الحاشية الخديوية ، وظنوا انه من احياء بعض

المشايع الازهرين .. فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الامين في أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الاخبار وسألته عن اسم صاحب المقال ، فأذنت له ان يطلعهم عليه ، ولعلمهم اطمأنوا الى هذه النتيجة بعد ان علموا ببراءة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد ، اشفاقا من اثاره القضية الازهرية في أطوار التحقيق والمحكمة والدفاع وتعليقات الصحف واحاديث المتحدثين ولولا ذلك لسبقت نفسى بثلاث وعشرين سنة ، فكنت اول من حوكم على تلك العيوب الملكية التى يحملها اصحاب العروش ويحاسب عليها اصحاب الاقلام

### يومية وغير يومية

كانت الصحف المصرية عند اوائل هذا القرن تنقسم الى يومية وغير يومية ، ولم تكن هناك صحف اسبوعية بالمعنى الذى نفهمه من الصحافة التى تصدر مرة كل اسبوع .. فان لم تكن الصحيفة يومية ، فالصحف التى يقال عنها انها اسبوعية قد تصدر مرة كل شهر او مرة كل شهرين ، او تنتظم على الصدور يوما فى كل اسبوع الى امد محدود ، ثم تنقطع دفعة واحدة ، او تعود الى الانقطاع على دفعات ..

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة اصدق من مواعيد الصدور .. لانه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقق من موعد للصدور ..

-وربما انتظمت الصحيفة « الاسبوعية » خمسة اسابيع او ستة اسابيع متوالية ، ولكنك تنتظرها عبثا اذا انتظرتها فى يوم معلوم من ايام الاسبوع ، فاذا ظهر هذا العدد منها يوم الاحد فلا مانع ان يظهر العدد التالى يوم الخميس او



يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذي سبقه ، ولامعول في ميعاد من هذه المواعيد على شيء غير « توافر المادة اللازمة للتحصيل .. »

## شيء لزوم الشيء

وماهى المادة اللازمة للتحصيل ؟ ..

حملة على مشهور أو فضيحة في أسرة تخاف التشهير ، أو تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح الضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة سياسية ، أو اجتماعية تشنبت فيها المطامع والدعايات وتعدد فيها القرص للمنتهزين من هنا ومن هناك ..

وكان أفضل هذه الصحف « الاسبوعية » الذى يسرع الى الاحتجاب وتمتنع عليه وسائل الثبات والاستمرار وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل ، ولم يقل احد من الصحفيين الافاضل أو غير الافاضل ، أنه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة أو يصدرها لمحض التشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الاسماء فلا ترى بها من خفاء .. وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كاسم « الكرياج » أو « البعبع » أو « الجاسوس » أو « اللجام » أو « الصاعقة » أو « المرصباد » أو « العفريت » أو « عفريت القاولين » على التخصيص ؟ .. هذا الى اسماء أخرى كالخلاعة والصبوة والفسندرة والمرستان والفوضى ، وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم في سعة من الاختيار ، وفي سعة من الادعاء كما يشاءون بما اختاروه من كلمات ! ..

ولم يمض غير يسير حتى افرقت الكفايات اللازمة لاصدار الصحيفة الاسبوعية على هذا المنوال ..

فقد يكون الرجل من أجهل الجهلاء ، ولكنه من أقدر الناس على التثهير والتهديد واستغلال الفضائح والإشاعات

وقد يكون الرجل عاجزا عن كسب مليم من هذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصفحات وتلفيق الأقاويل والباطيل ..

ولابد من الكفایتین لإصدار الصحيفة في موعدها الملائم .. فان لم توجد الكفایتان في رجل واحد فقد توجدان في رجلين ، وقد يهتدى أحدهما الى الآخر بحكم المصادفة ان لم يهتد اليه بحكم الضرورة .. وهكذا كان ..

### بين العتبة والفجالة

فقد جدت في القاهرة ثلاثة مكاتب او اربعة لتحرير المقالات حسب الطلب والاقتراح ، مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والفجالة وحي الحسين ، وهي الاماكن التي كثرت فيها المطابع الصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لانها تكلف القليل من الاجور وتتقبل المقلقات ..

ورأينا من هذه « المكاتب » قهوة في العتبة الخضراء يجلس اليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة في دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات قبل اقتراحها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والآخر للقدح والتهديد .. ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب في حينه ، وقد يأتيه الطلب على النقيضين من طالب واحد في ساعة واحدة ، ولا يعجزه في اللحظة الأخيرة أن يدخل التعديل المطلوب في القياس والتفصيل ، ان كان لابد من تعديل ! ..

كان المكتب العام من « مكاتب التحرير تحت الطلب .  
 في قهوة على مفترق شارع محمد على وميدان العتبة  
 الخضراء ، وكان المطعم الذي تعودت أن أتناول فيه  
 الغداء الى جوار تلك القهوة .. فكنت اجلس فيها هنيهة  
 قبل الغداء أو بعده ، وكنت ألقى فيها بعض الصحفيين  
 والادباء ، وأحضر مجالسهم ومحاوراتهم ، وأستمع  
 الى أحاديث غزواتهم وأحبايلهم في تحصيل أتاواتهم ،  
 فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الاسبوعية  
 في أيامها يجلس الى مائدة « الشيخ المحرر » ويبادره بطلب  
 من « البار » على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب  
 في موضوع مقالين مستعجلين ، يثنى في أحدهما على سرى  
 معروف من اصحاب القصور الباذخة على مقربة من حي  
 عابدين ، لانه يثابر على عمل البر واسداء المعونة الى  
 الجماعات الخيرية واصلاح المساجد التي تجاور قصره  
 واطعام الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه  
 الله الكريم ، وينحى في المقال الثانى على ذلك السرى  
 بعينه لانه مبتذل العرض والكرامة يقرر بالابرياء فيسوقونه  
 الى ساحة القضاء ، ويطالبونه بالتعويض عما أصابهم به  
 من الادواء .. !

### ثمن الفخر والثناء

وخرجت من القهوة الى المطعم والمقالان يكتبان ، ولعلهما  
 عرضا في ساعة واحدة على السرى المصلح المفسد ، النافع  
 الضار ، المحمود المذموم .. ولعله قد بذل الثمن ضعفين :  
 ثمن الفخر والثناء و ثمن أسلامة من الخزى والبذاء

ومجمل ما يقال في هذه الصحافة انها كانت في مجموعها  
 على هذه الوتيرة .. بين صحافة صالحة تسرع الى

الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة نعيش متقطعة متسككة ،  
وينقطع لها الحثالة من نفايات البلد ، وقل أن تعتمد على  
بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتتيال ..

ولنا أن نقول في كلمتين أنها صناعة مردولة ولا حرج ،  
وعلينا أن نذكر أننا نتكلم عن الصحافة وأن الصحافة يومئذ  
كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها .. ومن أعجل  
الاحكام أن تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد في فترات  
النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلا بد من استثناء في هذه  
الفترات ، بل لابد من حكم متد يقابل الحكم العاجل  
ويلفيه أو يكاد ..

صناعة مردولة محتقرة ..

هذا هو الرأي المجمل في صحافة مصر غير اليومية منذ  
خمسین سنة .. ولكنك لاتستطيع أن تبخل بوصف  
الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر اذا التفت  
من ناحية الصحافة « غير اليومية » الى ناحية الصحافة  
اليومية ، لما كان في مصر يومئذ من صناعة تضم بين ابنائها  
اناسا احق بالاحترام من على يوسف مدير المؤيد، ومصطفى  
كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفى السيد مدير الجريدة ،  
كائنا ما كان المقياس الاجتماعى الذى تقاس به الصناعات

### طبقة من الجاورين

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فان الرتب  
والالقباب التى حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من  
الدولة لم تكن تقل في قيمتها الرسمية عن القاب الوزراء  
... ومن حصل منهم على « البيكوية » فانما كان يحصل  
عليها من الصنف الذى ينادى صاحبه بلقب الباشوية ،  
ولولا ان الاستاذ « أحمد لطفى السيد » كان من المعارضين

للسيادة العثمانية لجهاته الرتبة التي أنعمت بها الدولة على صاحبى المؤيد واللواء ..

\*\*\*

ومن الملاحظات التي لاتهمل في هذا الصدد مسائل الزوجية التي تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الاونة ، فانها تدل على احساس عميق داخل اصحاب هذه الصناعة اودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شئون يتغلب فيها العرف التليد على كل اعتبار جديد ، فلولا « الاحترام الاجتماعى » الذى كان يحسه الزعيم النابه فى الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخطب « الامسرة شويكار » ولا خطر لعلى يوسف أن يتزوج بسليمة بيت السادات ، وهو طموح ابعدهم من الطموح الى مصاهرة بيت الامارة ، لان اعتداد بيت السادات بشرفه الدينى كان فى ذلك العهد أقوى من اعتداد الامراء بمراتبهم الدنيوية

ولا يرجع شىء من هذا الاحترام الاجتماعى الى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة .. فان مصطفى كامل كان من طبقة الموظفين الصفار ، وعلى يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « المجاورين » للجامع الازهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد أن بلغا فى الصحافة قمة النجاح ..

\*\*\*

من الكلمات التي قرأتها ولم انسها منذ قرأتها كلمة الروائى العبقري « شارلز ديكنز » فى مقدمة قصة المدينتين حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

« انه كان احسن الازمان وكان أسوأ الازمان .. كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك. كان اوان النور وكان اوان الظلام .. كان ربيع الرجاء وكان زهيرير

القنوط . بين ايدينا كل شيء وليس في ايدينا اى شيء .  
وسبيلنا جميعا الى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا الى  
قرار الجحيم .. تلك ايام كايا منا هذه التى يوصينا  
الصاحبون من ثقاتها ان نأخذها على علاتها ، والا نذكرها  
إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن  
آفات ..

فقد قرأت هذه الكلمة فخطر لي يوم قراتها أنها لعبة  
من ألعاب المجانسات اللفظية لاتصدق على زمن من الازمان  
ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قراتها أعيدها  
أو تعيدنى الى ذكرها كلما صادفتنى مرحلة من مراحل  
التاريخ الكبرى ، لأنها وصف يصدق على كل مرحلة من  
هذه المراحل ويصدق على كل جديد .. ومنها فترة اليقظه  
المصرية فى أوائل هذا القرن العشرين

### حائر بين الاثنين

وطالما حيرتنى وحيرت فيرى هذه المناقضة بين الصحافة  
اليومية المحترمة ، والصحافة « غير اليومية » التى لم يكن  
لها حظ من الاحترام ..

وليس مما يدفع الحيرة ان نعلم ان « الفترات الخالقة »  
بطبيعتها متناقضة مشتتة على المحاولة من طرفيها ،  
الى النجاح أو الى الاخفاق ..

ولكننى احسب ان الصحافة فى أوائل هذا القرن قد  
أصبحت « هامة » ولم تصبح « عامة » الا بعد حين ..  
وهذا فيما احسب هو علة التناقض بين صحافة يومية  
محترمة - بمقاييس المجتمع - وصحافة أخرى غير  
محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس ..

فإلصحافة اذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها القوة  
الاجتماعية التي تعرف لها اهميتها وتحذر من اهمالها ،  
وهذه القوة الاجتماعية تأتي من قمة المجتمع ومركز القيادة  
فيه ..

وأما « الوظيفة العامة » فلا غنى لها عن « وأى عام »  
يسندها ويراقبها ويتعهددها ويتكفل لها كما تتكفل له  
بالحماية والرعاية ..

ولم يكن لهذا « الرأى العام » وجود فى أوائل القرن  
العشرين ، ولم تكن الصحيفة الاسبوعية قد بلغت من القوة  
أن تؤدى الوظيفة الهامة التي تؤديها الصحيفة اليومية  
وتهتم بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقى عواقب  
الاهمال فيه ..

كانت الصحيفة اليومية توجد لانها لازمة مهمة فى اعتبار  
طائفة تتولى القيادة الاجتماعية ..

أما الصحيفة الاسبوعية فانما كانت توجد لانها لازمة  
لصاحبها ومن يعمل فيها ، فان لم يتكفلوا بتدبير امرها فما  
من أحد غيرهم يتكفل بتدبيره ..

\*\*\*

وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة - يومية وغير يومية  
- عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك  
بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لانهم صحفيون ، بل لم  
تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمي  
الكاتب فى الصحيفة بالتحريجي ، أو الجورنالجي ، أو  
الغازيتجي ، أو المحرر من صناعة التحرير فى المطابع  
والدواوين التي تكتب فيها الرسائل .. فأما كلمة  
« الصحافة » فهي بلغة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن

« فعالة » كالنجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل ماياتى على هذا الوزن للدلالة على الصناعات

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسئول ..

صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين « الجهة المعنوية » اذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون ..

### في « سبلند بار » ..

فقد ترى في « سبلند بار » أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدونه لانهم صحفيون مشتغلون بهذه الصناعة .. وانما يقصدونه لانه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الاقطار العثمانية ..

وقد ترى أناسا اخرين في قهوة الشيثة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدز ، أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحى الحسينى ، وباب الخطق . والفجالة .. ولكنك لاتراهم هناك لانهم يعملون في هذه الصحيفة أو تلك ، وانما تراهم حيث كانوا لانهم يدخنون الشيثة أو يشجعون القهوات المصرية في اول عهدا بمنافسة القهوات الاجنبية ، اولانهم يلعبون الشطرنج والدومينة ، اولانهم تناقلوا سنة الجلوس في هذا الحى أو ذاك من ايام الطليعة الاولى بين الادباء وواد الاندية العامة ..

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية ، او البيئات القلمية ، تتحقق من امر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك البيئة بالحركات العامة في الشرق كله .. قلم تعرف حركة عامة في قطر من اقطار الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين ..



هنالك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء أو  
مذاهب الاشتراكية أو تحرير المرأة ، ومعهم ترى رئيس  
جماعة « تركيا الفتاة » أو صاحب الصحيفة الإيرانية  
الحرية ، أو مؤلف كتاب طبائع الاستبداد ، أو عصابة الحملة  
على فتوى الترنسفال . وهناك رأينا ابراهيم ناصف  
الورداني بهياجه الدائم ولهفته الدائمة على أطباق الارز  
واللبن ، ورأينا مصطفى الصفر الداعية الاسلامي الهندي  
الذي جازت حيلته في مصر واعتقله الكماليون في الاستانة  
فحكموا عليه بالاعدام ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج  
الدولة البريطانية ..

وهناك كنا نلقى من نلقاهم من الابداء الذين لا يشتغلون  
بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة الصحب  
والزملاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد  
أو مصادفة ..

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة ..

### صناعة بغير عنوان

صناعة بغير عنوان او عنوان بغير جهة .. ومن هذا  
التيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من القلق أو من  
« التوزع » والبعضرة بين مختلف الشواغل والهموم ...  
الا انا نبريء الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات  
فنسأل : أكانت الصحافة حقا عارضا غريبا كل القربة في  
المجتمعات المصرية والشرقية ؟ أيمن أن توجد صناعة في  
مجتمع من المجتمعات دون أن تسبقها صناعة متشابهة لها  
قائمة على أساسها ؟ ..

اكاد أقول أن وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلا بد من

صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور ، ولا بد من صحفيين قبل الصحفيين ..

وللصحفى فى المجتمع المصرى أب او جد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فمن يكون هذا الاب او هذا الجد الذى ننتمى اليه أجمعين ، نحن معاشر الصحفيين ؟ . هو « اللبيب » على أحسنه وأعلاه ، وعلى أسوئه وأدناه ..

اللبيب الذى يعلو حتى يتبوا مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذى يصفى اليه المتعلم المستفيد كما يصفى اليه « الفهيم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة ..

واللبيب الذى يهبط حتى يصدق عليه وصف « اثثرارة » أو « الادباتى » الذى يفهم بالاشارة ولا يتورع عن الحيلة فى طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالى ما يصيبه فى سبيله من الزرابة والابتذال ..

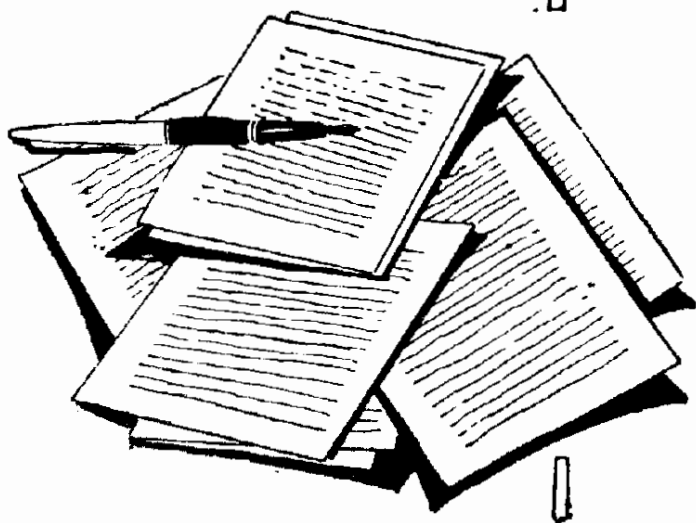
اللبيب هو « جد » الصحفى فى المجتمع المصرى ، على أسوئه وأدناه وعلى أحسنه وأعلاه



# أزمة قلم

الفصل

الرابع



## أزمة قلم

### تعطيل « الدستور »

بتيت في تحرير صحيفة « الدستور » حتى فرغنا من كتابة الكلمة الأخيرة في عدده الأخير ..

وقد مضت علينا قبل احتجاجه أشهر ونحن نعلم أننا نكتب أعداده الأخيرة ، وإن كنا لا نعلم أيها يكون الأخير الذي ليس بعده آخر ..

وأبت المروءة على صاحب الصحيفة أن يمطل أحدا من أصحاب الديون عليها أو أصحاب الأجور فيها بدينهم واحد .. فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على أن يشتري مؤلفاته جملة واحدة سدادا لثمن الورق وما إليه ، واتفق معه في الوقت نفسه على أن يشتري النسخ من الموظفين والعمال بأثمانها المتفق عليها ، واذكر أن ثمن النسخة من معجم « كنز العلوم واللغة » لم يزد في هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت تباع قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد أشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين ..

ولتيت الرجل مودعا فقال لي انه يرجو ان نتعاون معا

في عمل صحفي نحن أقدر عليه وأصلح له من الصحافة السياسية ، وانه يدرس الفكرة ويلخصها لى عى ان أفكر فيها ، ويرجو ان يبلغنى نتيجة درسه لها بعد اسبوعين او شهر على الاكثر ، اذا صح العزم على الشروع فى تنفيذها ..

### مقالتي مرتين !..

كان الاستاذ فريد وجدى يصدر مجلة شهرية تسمى « الحياة » ويكتب فيها أحيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لاصدار الدستور وترك المجلة الا فى فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الادبية ما يملأ علدا من أعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالتي التى كنت انشرها فى الصحيفة اليومية ..

أما « الوجديات » فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية ، وتقريب المثل العليا التى تصطبغ على الدوام بصبغة الدين أو بصبغة الاخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعتان وثلاث طبعات

قال الاستاذ : « ان الحياة » أولى بمقالتك من الصحيفة اليومية ، وانك تستطيع ان تجرب قلمك فى المقامات فتظهر « الحياة » وفيها مقاماتك ومقالاتك الى جانب الوجديات ، ولولا اننى أنتظر حتى أعلم ان هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد اسابيع ..

### .. بلا عمل

ومضت الاسابيع ولم اسمع من الاستاذ خيرا عن هذه

الفكرة ، ولم أصل من دراستها بينى وبين نفسى الى  
نتيجة تدعو الى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل  
لى فى الصحافة أو ما يناسب الصحافة ، ولكن ما العمل  
الذى يتيسر لى عند طلبه على عجل ، ولا بد من العجل ،  
ولا طاقة بالانتظار ..

أفق الصحافة فى تلك الاونة مظلم يطبق عليه الظلام  
من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لان  
البلاء الذى كافت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان  
أشد عليها من البلاء المسلط عليها من أعدائها ..

كان « اللواء » فى حياة مصطفى كامل يعول على موارد  
يلدز وعابدين ومعونة بعض الفيورين من سراة الترك  
والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته  
.. وانقطع الامل فى موارد يلدز بعد زوال عهد عبدالحميد ،  
وفى موارد عابدين بعد اعراض الخديو عباس عن الحزب  
الوطنى فى عهد سياسة الوفاق واستحكام العداء بين  
الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد فريد »  
.. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء  
المالية والسياسية ، لولا ما أصابه من المصادرة بعد  
المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته  
آخر الامر على هجرة الديار ..

وكان « المؤيد » يزدهر فى أبان نشاط صاحبه « على  
يوسف » .. ثم نكب هذا الرجل العصامى تكبة قاسية  
عصفت بنشاطه قبل أوامه ، اذ فجعته المنية فى وحيدة  
فى مقتبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات  
الاسرة أو مشكلات « مشيخة السادات » التى ساقته  
قضية الزوجية اليها ، وما زال ديب الملل يسرى اليه  
ويزهده فى صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين  
للمقادير وهو لا يبالى ماسوف تلقاه ، او ماسيلقاه ! ..

وكانت « الجريدة » أسلم الصحف من هذه الزعازع  
واشباهها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها  
السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الخديوية ، وحزب  
الاصلاح على المبادئ الدستورية .. فان حاشية الخديو  
افتتحت عهد الوفاق بين السلطين الشرعية والفعلية  
بمحاربة « حزب الامة » قبل غيره من الاحزاب ، لان أعضاء  
الاحزاب الاخرى كانوا يلوذون بالقصر ولا يقاطعونه ،  
خلافاً لأعضاء حزب الامة الذين كانوا يقفون من القصر  
موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه في كثير من الاحوال  
فسعى رجال الحاشية سعيهم لتحويل الاعضاء من حزب  
الامة الى حزب الاصلاح ، ونجح مسعاهم بعد اختيار  
وكيل حزب الاصلاح للوزارة وتتابع الانعام بالرتب  
والاقلاب على اعضائه البارزين .. ولم تبق للحزب بقية  
قادرة على الصمود والمقاومة الا بجهد جهيد ، ولكنه بقاء  
لم يعصم الجريدة من ازمات المال والخلافات الداخلية ،  
وعرفت من محرريها يومئذ من تركها لانها اضطرت الى  
القصدي وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها،  
حتى كانت تقنع من المحرر بنهر في اليوم ، ولا تسأله اذا  
ونى عن كتابة هذا النهر عدة أيام ..

### حياة الظلام

وتلك هي الصحف التي أنظر اليها اذا نظرت الى عمل  
في الصحافة اليومية ، فأما الصحف الاسبوعية فلم يكن  
فيها مجال لغير أصحابها أو لغير كتاب المقالات - بالقطعة  
- على حسب الطلب ، وعلى كل لون ، وفي عرض  
الطريق !..

وربما تأتي للصحافة في مجموعها أن تغالب هذه المحنة،



وإن تغلب عليها في النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب : قانون الحجر والرقابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور ، وعلى الأقوال والنيات ..

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره في أيام الثورة العرابية ، ثم بطل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين أن في البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وأن الكاتب يسأل عن شيء قاله في حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود في الحكومة أو في البلاد ..

ومما يؤسف له أن نصيب الصحافة من هذه الطامة التي جرتها على نفسها لم يكن أهون من نصيب الحكومة، وأنها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به «السلطة» من معاذير ، يقبلها كل من يؤمن بحق القانون ..

فلا نذكر أن احدا من أعلام الصحافة كتب في صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال في خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولا نستثنى من ذلك « مصطفى كامل » على طرفه واندفاعه في الخطب ، وفي المقالات ..

ولكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت الى الاقلام التي لا تحسن شيئا كما تحسن ان تسقط معاذيرها وان تمهد العذر لمن يتمحلون العطل عليها ، ولا نخال ان حاكما حرا او مستبدا كان يعيبه ان يتمحل العطل للحجر على الدعوة الصريحة الى القتل واهدار الدماء ومن امثلتها ما نشر في ديوان « وطنيتي » من أبيات يقول فيها ناظمها :

هل سال في مصر الدم  
أم هل افراق النوم  
ومضوا الى اهل الضسلا  
ل فاعسدوا من اعسدوا

فانه لمن سخافة القائل ان يتهم بالاستبداد حكومة  
تسمح بنشر هذا التحريض . فان لم تكن مستبدة فمن  
السخف ان يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريمه  
.. فما كانت حكومة حرة او مستبدة لتحاسب على هذا  
المنع وهذا التحريم

### حفرت قبرها بيدها !

وكانما كانت الصحافة الاسبوعية والصحافة اليومية  
في سباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة التي تعمل على  
تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين  
الاسبوعيين في ذلك الحين يستبيحون كل محظورة في  
انتشهر واستغلال الفضائح واقتراء الاكاذيب لاغتصاب  
الاتاوات التي لا موعد لها ولا حدود لتكرارها باسم  
« الاشتراكات » او التبرعات الوطنية ، ويشاء لها سوء  
حظها وحظ الامة ان يكون معثو البلاد اكبر اهدافها  
واول من يصاب بسهامها ، فكان التشهير بأعضاء مجلس  
الشورى بابا تابنا من ابواب كل صحيفة اسبوعية تبحث  
عن الفريسة بين ذوى الاسماء المعروفة ، ولم يكن لاعضاء  
مجلس الشورى سلطان في الحكم يحاسبون عليه او  
يناقشون فيه ، وانما كانوا من اعيان البلاد وكان اكثرهم  
بعاصمة البلاد على مقربة من جمهرة الصحفيين الاسبوعيين  
فكادوا ان ينوبوا عن البلاد جميعا في مصابها بالصحافة  
الاسبوعية وتصدى بعضهم للمطالبة بتقييد الاقلام قبل  
ان تصدى لها الوزراء والحكام

قال احدهم للامير حسين كامل مستثيرا لنخوته : هل يرضيك يا صاحب السمو ان يقال عنك انك رئيس مجلس الشورى ؟ ..

وعلى هذا النحو تبلى البلاد بالنكسة وقلب الحال، وينادى بالحجر على حرية الصحف من كانوا احق الناس بالفرة على حررتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية اناس ..

### في القائمة السوداء !

وطالت محنة الصحافة هذه بمن يجنون عليها من ابائنا العاملين فيها ومن اعدائها الساخطين عليها .. وطالت حيرتى بين العمل فيها والعمل فى غيرها ، واين يكون العمل فى غيرها ؟

انه التسريس ولا شىء غيره .. فان لم يتيسر فى المدارس الاهلية فقد يتيسر باعطاء الدروس الخصوصية، واما وظيفة الحكومة فهيات الآن « هياتين » لاهيات واحدة .. لاننى كنت قبل اشتغالى بالصحافة اتحنى عن وظيفة الحكومة لنفورى منها .. فلان اطلبها - ان طلبتها - ولا اظفر برضاها ، بعد ان ثبت اسمى فى سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد ان صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الاسباب ..

ولا بد من عمل عاجل على اية حال ، لان تكاليف المعيشة على الشاب الذى لا يكسب رزقه من وظيفة ، ولا من مورد يملكه ، ضرورة ملحة لا تحتمل الارحاء من يوم الى يوم .. ولا تقول من اسبوع الى اسبوع

وكرهت نفسى ان الجأ الى احد من النيسورين من اهلى ، وهم غير قليلين بحمد الله ..

كرهت نفسى ان الجا اليهم ، لاننى تحديتهم جميعا  
وخيبت رجاءهم قاطبة بالخروج من الخدمة الامرية  
بعد ان وصلت اليها بين مزدحم اطلاب المتهافتين عليها؛  
وشق على ان ارفض نصيحتهم ثم اسعى اليهم لالتمس  
معونتهم ، وخيل الى انهم قائلون بلسان الحال ان لم  
يقولوا بلسان المقال : انك اعرضت عنا وذهبت الى  
الصحافة .. فامامك اليوم صحافتك العزيزة ، فخذ  
منها ماتعطيك !..!

والى ان يوجد تعمل ، ما العمل ؟ ..

تبين لى بعد قليل ان المصرف الاكبر بالامس صالح  
ان يكون اليوم موردي الاكبر ، ان لم يكن موردي  
الوحيد ..

هذه الكتب الكثيرة لم لاتباع الى ان تتجدد القدرة على  
شرائها ، ان تجددت الحاجة اليها ؟ ..

انها الآن تعد بالئات بعد الاقبال على شرائها نحو  
ثلاث سنوات .. وليس من المنظور ان تباع بثمن الشراء  
مع الحاجة الملحة الى البيع السريع ، ولكنها تباع بما  
يكفى لقوت اليوم واليومين والاسبوع .. وقد تكفى  
خمس قروش لقوت اليوم فى تلك الفترة ، ولا علينا من  
اجرة البيت وامثالها من النفقة المتجمعة التى تقبل التأجيل  
زمننا طويلا او غير طويل ..

ولقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعفنا - مع الدروس  
الخصوصية - بضعة شهور ..

لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن اهل له  
من جزاء ..

من سكن الريف عرف خير ما فى بنات حواء من مروعة

وصفات ، ولم يخف عليه شر ما فيهن من كيد والتواء ..  
هن الامهات المتطوعات للشباب الناشء المنفرد بمعيشته  
في عقر داره ..

من ترى يهيبء له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه  
وترتيب اثاثه ؟ ولم لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه  
من بنات الجيران ؟ ..

وقد كنت اسكن في حدائق القبة في ضاحية كالتقوية  
الريفية في كل شيء ، ومنه - بل اهمه - الامهات  
المتطوعات والخطيبات « المزعومات » ..

وكانت لى خطيبة منهن لم اخطبها ، ولم اتحدث اليها  
ولا الى احد من أهلها في حديث زواج .. وكانت لها  
صاحبة لعوب في مثل سنها متزوجة من بعض ذوى  
قرباها ، فقالت لى ذات يوم : ان فلانة لاتأتى الى  
ناحيتك في هذه الايام لان صويجاتها يعاكسها ويسمينها  
خطيبة « ابو طويلة » .. ولا تفضب هى من هذه  
التسمية ، بل تقول لهن مزهوءة مستخفة : وماله ابوطويلة  
أليس خيرا من الساخيط ؟ ..

ولم اشأ ان اجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر  
الخطيبة التى لم اخطبها ، ولم اشأ كذلك ان اجيبها  
جوابا يربط الخطبة المزعومة ويؤكد لها ! .. ولم ازد على  
ان قلت : شكرا للفتيات العابثات ، فقد احسن والله  
الاختيار والانتقاء .. ولو كان فى نينى ان اتزوج او اخطب  
لما وجدت فى الحى زوجة اجمل من صديقتك  
الحسنة ...

قالت : كأنك فى غير هذا الحى تجد من تخطبه ؟ ..  
قلت : ولا فى غير هذا الحى .. ولكننى الآن فى شافل

عن الزواج . افلا ينبغي أن أعول نفسى قبل أن أفكر  
في زوجة أعولها ؟ ..

وكانها خطبة قد انعقدت بهذه الحوار ، وكأنه حق  
مكتسب للسؤال عن الحركات والسكنات ، وعن المبيت في  
المسكن وغيابى عنه بعض ليل ..

ولم افارق المنزل بحملى من الكتب على دفعتين أو  
ثلاث حتى اعتقدت الخطيبة اننى اتوى الرحيل ، وأهم  
بفسخ الخطبة التى لم تنعقد قط بكلمة تصريح أو تلميح  
.. وعزز اعتقادها عندها اننى كنت احمل كتابى بالمطالعة  
الى حقل من حقول الليمون بجوار جدول فى طريق  
كنيسة ، فقبل لها انه يهيم بفتاة قبطية هناك ، وانه  
يؤجل مسألة الزواج بها لانها مشكلة ، لا تنحل الا اذا  
انحلت بينهما مشكلة الاختلاف فى الدين ..

وأيمن انتم يا اصحاب المنزل الغافلين عن سكانه وعن  
زواره وجيرانه ؟ ان ساكنكم الاعزب ليستعد للهرب  
بالاجرة المتأخرة عليه .. فان لم تصدقوا فتربصوا له فى  
الطريق وانظروا اليه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعة  
ليترك لكم حجرتم خواء خلاء ، لا يعوضكم عن اجرتم  
الضائعة ان حجزتم عليه ! ..

وصدق اصحاب المنزل الغافلون ، او المزعوم عنهم  
بالباطل انهم غافلون ..

وحيل بينى وبين اول « رصة » من الكتب خرجت بها  
بعد هذه الوشاية ، وكادت ان تكون مشجرة ريفية من  
طراز الشجار بالنسب على الحقوق الضائعة ، ولكن الله  
سلم والهمنى ان اسلم الكتب وامضى بسلام ..

وفى يومها اقتضت اجرة السفر للعودة الى  
أسوان ..

وفى اليوم التالى لوصولى الى اسوان ، ارسلت منها  
حوالة بريدية الى صديق لى من ابناء الاقليم يدير محلا  
مشهورا لبيع الطرايش وتركيبها ..

وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التى لا تقع  
فى حسابان ..

فقد كان صاحبنا الطرايشى ممن اشتركوا فى ترويج  
الطربوش الابيض احتجاجا على دولة النمسا التى كانت  
تصدر الينا الطرايش الحمراء ، لانها أعلنت ضم بلاد  
البشناق اليها من املاك الدولة العثمانية ، فقاطعتها  
المصريون واستنفوا برهسة عن الطرايش الحمراء  
بالطرايش البيضاء ..

واضطغنها وكلاء المعامل النمسويه فى القاهرة ،  
فنصبوا فخاخهم وحبائلهم لجماعة التجار الذين اشتركوا  
فى حركة المقاطعة ، ومنهم صديقنا الطرايشى من اقليم  
اسوان ..

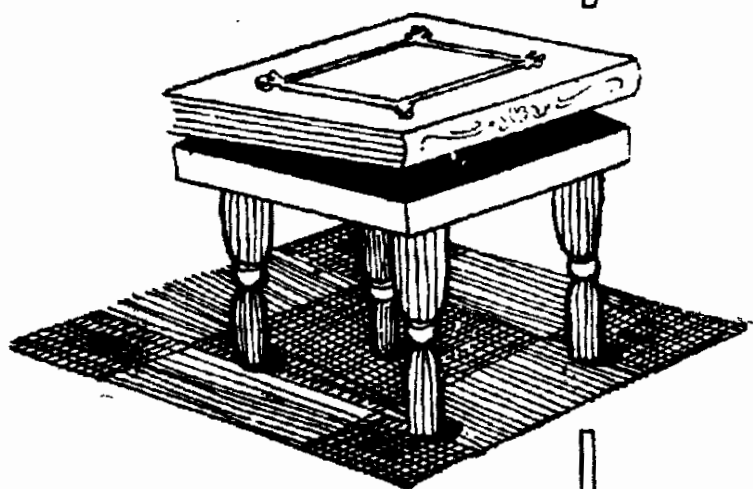
فلما وصلت الحوالة البريدية الى القاهرة ضاعت فى  
تبه الحراسة والحجز والتصفية واجراءات «السنديك»  
وامناء الحسابات ..

ومضت سنوات وانا لا اعلم مصر كتبى فى معتقلها  
المهجور ، الى ان لقيت الاستاذ عبد العزيز الصدر عرضا  
فأنبأتى ان جيرانه فى حدائق القبة عرضوا عليه تلك  
الكتب فاشتراها ، وانه على استعداد لردها الى بشعنا  
اذا ارادتها . فشكرته وقلت له اننى لا احتاج اليها ، ولكننى  
قد استردها بثمنها اذا اتسع لها مكان عندى . ولم يتسع  
لها - بعد - مكان ..

# بين الأمل واليأس

الفصل

الخامس





## بين الأمل واليأس

وصلت الى أسوان كالساهر الذى طوى الليالى وصلا  
بغير راحة ، ثم ركن بجانبه لحظة واحدة الى طرف الفراش  
انه فى سهرته يواصل الحركة ولا يبالي متى يرقد  
ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدري متى هو  
قادر على النهوض

كنت أجور على جسدى ولا أعرف لهذا الجور حدودا  
برجع عنها ، لان تلك الحدود لم تصدمنى قط بصخرة  
من صخورها ولا بحاجز من حواجزها ..

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان المديرية بالقازيق،  
ثم أعبّر المدينة فى ليالى الشتاء الى مسكنى على حافة كفر  
السيادين .. فلا أكرث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس  
المعطف ولا أحمله تخففا من مؤنة حمله على الدراع ، وهو  
معلق فى حجرة الدار يعلوه الغبار ..

وكنت أفضى اليوم فى حدائق القبة على وجبة واحدة  
من الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لى أن  
اهمال الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع

وكنت أفتح الكتاب الجديد فيروقنى ماقراته فيه فلا  
أقيه من يدى حتى أفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء فى  
البيت غير شمعة أو مصباح ذى فتيل ..

وكنت أحسب أن سفرتى الى اسوان ضرورة الجأتنى إليها قلة « المصروف » فى القاهرة ، فلما وصلت الى اسوان علمت أنها ضرورة مافى ذلك جدال .. ولكنها ضرورة الافلاس فى ذخيرة البنية واعصابها وليست بضرورة الافلاس فى ذخيرة الجيب ..!

وقد وقع فى خلدى اننى ازداد نشاطا فى بلدتى لانها مصحة للجسم ومصحة للنفس بين الاقرباء والاعزاء ، فعجبت بعد أيام حين رأيتنى أفقد النشاط لايسر الاعمال ، وكنت أحسبه تيارا متجددا لايقبل النفاذ ..

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لى كأننى مريض بكل داء ، معروف وغير معروف .. ولا مرض هناك غير الركود والاعياء باجماع الاطباء ، ومنهم الفطاحل العالميون الذين يفدون الى المدينة مشتغلين أو يفدون إليها فى حواشى الامراء ..

وتملكتنى فكرة الموت العاجل ، فادهشنى اننى لم أجد فى قرارة وجدانى فرعا من هذه الفكرة ، وكدت أقول لنفسى اننى اطلبها ولا أنفر منها ..!

وأخال ان صدمة اليأس كانت أشد على عزيمتى من صدمة المرض ، او على الاصح ، من صدمة الاعياء ..

وأشد ما أصابنى من هذا اليأس انه كان ياسا من جميع الامال ، ولم يكن ياسا من امل واحد ..

### خلاصة الامل !

كان ياسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية فى الحياة ، لاننى قبل ذلك بشهر عكفت على القراءة فى كتب « الفلسفة المادية » وأكثرت من النظر فى مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لى أنه أصدق من أقوال خصومه المتعصبين

الذين تصدوا للرد عليه بين الاوربيين باسم الدين ، ولاح  
لى من النظرة الاولى على غير روية فيه انه يهبط بالانسان  
الى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجا  
واحدا يرتفع عليه ..

وكذلك كتبت في مقدمة كتابي « خلاصة اليومية » ..  
ان « الانسان حيوان راق ولكنه حيوان » ..

وقصة « الخلاصة » هذه هي قصة الامل الذى بقى  
عندى يومئذ في شهرة الادب ، وفي عدد الايام التى اقضيها  
قبل ظهور هذا الكتاب ، وكنت اظننى مبالغا اذا حسبتها  
بأكثر من الايام !

هو الموت اذن كما استقر فى خلدى بلا اثر ولا خبر ..  
وهو الموت اذن أمضى اليه صفر اليدين من مجد الادب ،  
ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ..

وهل هذا يليق ؟ يا ضيعة لرجاء المجد المتطلع الى عشاقه  
وعباده ؟ .. فهل اقل من هدية فى اليد تجبر خاطر العرف  
على ابواب الابدية ؟ وهل يقال انه يجلس على الابواب فى  
انتظار زيارة فارغة اليدين ؟

ويجوز اننى كنت اطبق فى تلك الفاشية ان اوفى القربان  
المطلوب بتصنيف كتاب من وحى الساعة والمناسبة ،  
ولكننى عدلت عنه لضيق الوقت والشك فى اتساع الاجل  
ويجوز اننى قنعت بما تيسر ووجدت ان الخطب أهون  
من أن أتكلف له عملا أحاوله واستنفد به الفضلة الباقية  
من مطالب العمر المحدود .. فاذا كان ما تيسر كافيا فذاك،  
وان كان للمجد ضريبة اغلى مما تيسر فله ان يتقاضاها  
حيث يلقاها .. فلا خير فى جود بغير الموجود ..

وما تيسر يومئذ هو « خلاصة اليومية »

## يوميات الياس !

و « اليومية » هذه هي دفتر صفيح كنت أقيده فيه الخواطر والتعليقات ، وأبادر الى ايداعه آيات الشعر التي نظمتها ولم أتمها قبل أن انسأها ، أو رؤوس الموضوعات التي نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادير الاحاديث العابرة التي أعاودها في مناسباتها . وقد اجتمع عندي من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات . . فلما وقع في وهمي أنني سأذهب - بغير اثر ولا خبر - تصفحت هذه الدفاتر، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها ، وبعثت بها الى صديق في القاهرة أقول له ان هذه الصفحات هي كل ما اتركه اذا تركت الحياة ، فان وجدني أهلاً للذكر ووجدتها أهلاً للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، والا فلا حرج عليه ان يهمل نشرها ويسلمها للسيان يطوبها حيث طوأها في زاوية من زواياه . .

ولبت هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحاً من أسلحة الفكاهة والنكاية يشحده اخواننا الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها . . فمنهم من يقول متمللاً : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الامد على انتظارها . . ومنهم من يقول مستمهلاً كلما شكوت أو التمسيت العلاج : على رسلك بالله . . ! ان المطابع مشغولة في هذه الايام . . فاصبر هنيهة حتى تفرغ لطبع خلاصتك وامثالها . . !

وما برحوا يستعجلونني ويستمهلونني حتى أرحتهم وأرحت نفسي بطبع خلاصة اليومية ، بعد أن أضفت اليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التي لم اتربها أنها نفذت في أقل من ستة شهور ، فلم يبق من الفي-نسخة

طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب  
لكتاب ولدته فكرة يائسة من الحياة ..

### الأكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معى وهم الموت حقبة فى اسوان ، وعاش معى  
حقبة اخرى فى القاهرة .. بعد ان رجعت اليها فى وقدة  
الصيف ، ولكننى التفت فلم أجد معى فى شاطئ  
الاسكندرية يوم ذهبت اليها لأول مرة ، بل وجدت معى  
عرائس البحر وعرائس الشعر فى لجة من لجاج الامل  
والفامرة ، وبرحت اسكندرية بعد شهرين لايبحث عن عمل  
بالقاهرة .. أين؟ فى الصحافة؟ كلا.. فما زالت الصحافة  
فى مثل محنتها التى عهدتها يوم انتهت من عملى فيها ..  
أفى التدريس؟ .. كلا ايضا .. فان المدارس قد بدأت  
عملها ، ولا معرفة لى بأحد من اصحابها ..

ولم يطل بحثى هذه المرة ، فاننى وجدت « الماوى »  
الذى لا بد منه فى عمل بين الصحافة والوظيفة ، او بين  
خدمة المرى والخدمة الحرة ، فعملت فى قلم السكرتارية  
بديوان الاوقاف ..

كان الاستاذ « عبد الرحمن البرقوقى » رحمه الله قد  
أصدر مجلته البيان وكتبت فيها بعض الفصول ، ومنها  
تلخيص لكتاب « ماكس نوردو » المشهور عن أكاذيب  
المدنية الحاضرة ..

وكان من دأب الشيخ البرقوقى ان يسأل شيوخ الادب  
رايهم فى مقالات المجلة وابوابها .. فسأل حافظ عوض ،  
وسأل مصطفى صادق الرافعى ، وسأل محمد المويلهى  
صاحب عيسى بن هشام . فانتقد حافظ عوض عنوان  
الكتاب كما ترجمته المجلة ، وزاد انتقاده فى ثقة الشيخ

بكتاب هذه السطور ، لاننى ترجمت عنوان الكتاب  
« بالاكاذيب المتفق عليها » واقترح الشيخ البرقوقى ان  
« نسجه » ليوافق أسماء الكتب فجعلناه الاكاذيب المقررة  
فى المدنية الحاضرة .. فلما جاءه النقد من بعيد - وهو  
على عادته سريع التصديق - قال لى انه لن يرفض رأى  
مطوعة لرأى السجعة بعد الان ..

وسال مصطفى صادق الرافعى فزاده انتقاده ثقة بى  
كذلك ، لانه قال لى أنه يسمع حكمه فى البيان العربى  
ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه الفكر ومباحث العصر  
الحديث ، وقد اتحنى الرافعى على « نوردو » وعلى كاتب  
هذه السطور ، فحسنت هذه الشهادة المعكوسة عند  
الشيخ ..

ولقى صاحبنا المويلحى فسأله عنى قائلا :

- بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شىء !

قال : أترأه يعيش على شىء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ اننى لا أنتمى الى « السيد حسن  
موسى العقاد » المشهور ، وانه لا قرابة بينى وبين ذلك البيت  
واننى أعيش بالقليل مما يردنى من أهلى ، وبالقليل من  
أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة .. فقال المويلحى  
مبتسما : انه اولى بالوظيفة من اكثر « التنابله » الذين عندنا  
فى هذا الديوان فطلبتها ، فأجيب طلبى لساعته بغير  
امتحان ..

وقد كان ديوان الاوقاف فى تلك الحقبة مجمع الادباء  
والشعراء من شيوخ وشبان .. كان فيه محمد المويلحى ،  
واحمد الازهرى صاحب مجلة الازهر ، واحمد الكاشف ،  
وعبد الحليم المصرى ، وعبد العزيز البشرى ، وحسين

الجمال : وحسن الدرس ، وعلى شوقى ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحى ، وغيرهم من «المحررين» المقهورين . . وكان عملى الاول فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقدم السكرتارية ، وهى وظيفة من اخطر وظائف الديوان فى ذلك الحين

### سهرة الخديو

وكأنما هى قسمة واحدة تلقانى على صور متعددة فى جهات مختلفة . . فكلما اشتغلت بعمل من الاعمال وجدته فى ابان أزمة من أزماته أو مرحلة من مراحل الاضطراب فى تاريخه ، وأول هذه الاعمال عملى فى وظائف الحكومة باقليمى قنا والشرقية . .

ففى هذين الاقليمين بدأت اول حركة من حركات الشكاية الاجتماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم تزل قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الأدنى لمرتبات الوظائف الى خمسة جنيهات والشروع فى تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات

واشتغلت بالتحضير الصحفى يوم كانت الصحافة المصرية فى اخرج أوقاتها بعد قيام الأحزاب وقبل اعادة قانون المطبوعات . .

ثم هانذا اشتغل بديوان الاوقاف ، وهو ميدان المعركة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح . . ولست بأسف على هذه القسمة التى تسوقنى الى الاعمال فى ابان ازماتها ومراحل اضطرابها فقد كانت أنفع لتربيتى النفسانية من فترات الهدوء والاستقرار . . وكان عملى فى ديوان الاوقاف بين سنتى ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملى فى وظيفة من وظائف

الأرتزاق ، فقد كنت اجهل الكثير من حقائق بلدى ومن  
أسرار شئونه العامة لو لم أقض تينك السنتين فى ذلك  
الديوان ..

كانت يد الخديو مطلقة فى وظائفه وامواله .. وكان مع  
الاسف الشديد يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسيسة؛  
ولا يابى ان يسف الى الاختلاس من اموال الصدقات  
واستباحة السمرة على صفقات الاستبدال .. وشاعت  
فى تلك الايام قصة ارض المطاعنة التى أخذ فيها الخديو  
لنفسه ستين ألف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة »  
وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له فى طريقه  
من الموظفين النزهاء ، فعاقبهم على الامانة واليقظة  
بالفصل والاهمال ..

وكان المحتلون يحاربون الخديو على تقليد النزاع بين  
السلطتين ، ويأبون عليه أن يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة  
فى داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون انهم لا يستطيعون  
المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا الى الأستانة لجلس  
النيض فى دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الاسلام  
بجواز الرقابة الرسمية على نظار الاوقاف ، وعلى ناظرهم  
الكبير وهو أمير البلاد ..

وكان طلاب الاصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء  
على المفاسد فى ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية  
اشد الارتباط .. فلا أمل فى اصلاح هذه المعاهد ، ولا فى  
اصلاح القضاء الشرعى معها ، ولا فى اصلاح الازهر بفروعه  
مالم يحكم ادارة الاوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجة من  
تلك العزلة التى جعلتها أشبه شئ بضيقة من ضياع  
الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين بضيقة يغار عليها  
مالكها وضيقة يبدها من يملك الامر فيها ..



## مقالات بلا توقيع !

وبين هذا المضطرب عملت في الديوان .. والقلم الذي عملت فيه هو حومة المعركة في ميدانها ، لانه القلم الذي تمر به مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى ، وهذه هي المذكرات التي تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا انصافات ..

والسنة التي عملت فيها بالديوان هي السنة التي انتهت بتحويله من ديوان الى نظارة ، وصدور الامر بعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية ..

ولقد كانت فضائح الاوقاف سرا هباحا لكل من يميل اية بأذنيه .. فليس فيها من باب أولى سر يخفى على موظف في قلم السكرتاريه يتصل كل يوم بموظفي الديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التي تعرض على مجلس الادارة او المجلس الاعلى ..

وقد هالني ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وان كنت لا أجهل قبل ذلك انها شيء يهول ..  
وكننت اتكلم ولا اتحفظ ..

وربما كتبت الى الصحف بعض المقترحات لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها في المجالس التي اختلف آيها ، وكلها في بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الاهلية حيث كنت اقيم ..

وكان الاستاذ حسين روجي الايراني صاحب احسنى المدارس الكبيرة في العباسية البحرية ، وكان يعمل في ساعات من اليوم بالترجمة في دار الوكالة البريطانية ، فجاءني عصارى ذات يوم يقول معتذرا :

— ارجو ان تفتفر لى غلطة وقعت فيها بغير اذنك ! ..  
قلت : خيرا .. فما اظن اننى عرضة منك لغلطة  
تضير ..

قال : انهم سألونى اليوم عن مقترحاتك فى الصحف  
وانا اترجمها لهم فقلت اننى اعرف كاتبها ، وذكرت لهم  
اننى اراك فى كثير من الايام .. فهل يفضبك ما فعلت ؟

قلت : اننى كما تعلم كنت مستعدا ان اكتب فى الصحف  
بتوقيعى لو كنت أستطيع ذلك مرتين دون أن يبادرونى  
بالفصل من الوظيفة ، فلا لوم عليك ولا حرج على ..

قال : ليس هذا كل ما فى المسألة .. فان السكرتير  
الشرقى يريد ان يلقاك .. فهل لديك مانع ؟

قلت : لا مانع لديه فما المانع لدى ..

### قالوا : لا يزال صغيرا

وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الاستاذ حسين  
روحي ، فاستهل الحديث بالكلام على الادب وعلى برنارد  
شو .. ثم استطرد الى الكلام على الصحافة ، واكثر من  
الكلام على صحيفة « المؤيد » وقرائها ومحرريها ، ثم مضى  
مستطردا الى الكلام على الاوقاف فسألنى عن صفقة منوية  
على ارض يملكها عين مشهور من اعيان القليوبية ، وعجبت  
لعلمه بخبرها وهى لاتزال فى دور التحضير الاول ولما  
تصلى مذكرة من مذكراتها الى قلم السكرتارية ..

ثم بدرت منه كلمة جافية لا ادرى كيف جرى بها  
لسانه ، الا ان يكون قد تعود الجهر بامثالها ولم يتعود  
من أحد أن ينكرها عليه ، فقال : الا ترى ان حرمان

الاقواف من الرقابة الاجنبية هي علة هذه المفاسد التي  
شاعت فيها .. ؟؟

فصدمتني هذه الكلمة النابية ، ولم البث ان اجبتها  
بحدة ظاهرة ، فقلت : ان المجلس البلدى الاسكندرى  
يتمتع برقابة اجنبية من كل جنس وملة ، ولا اظنكم  
تحسبونه مثلا من امثلة النزاهة والنظام ..

فتنبه وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بعبارة  
صالحة للختام ، واستأذن هنيهة ثم عاد قائلا : ان اللورد  
يعنى كتشنر - كان يسره ان يراك لولا انه يخرج الساعة  
الى موعد سريع ..

فنهضت وودعت ، وصادفنى اللورد على باب المكتب  
فاوما بالتحية ومضى فى طريقه ، وجاءنى الاستاذ حسين  
روحى فى المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أخانا ..  
ان الرجل اجفل من جوابك الصارم ولكنه قال: ان حديثك  
كان شائقا جدا ..

\*\*\*

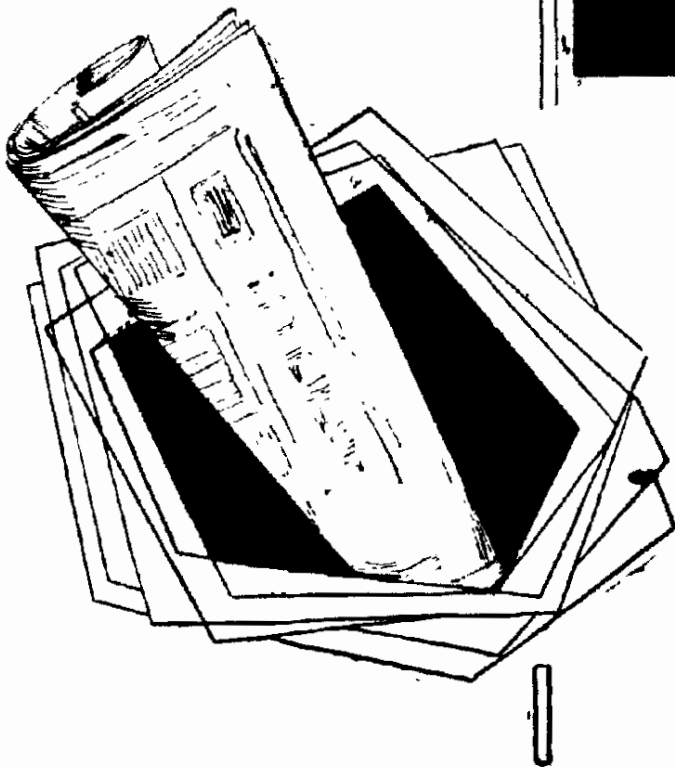
وأراد الاستاذ روحى ان يصرف الموضوع ، فقال ان  
مسألة « المؤيد » كانت عندهم اهم من مسألة الاوقاف  
ويلوح لى انهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا  
يظنونك اكبر سنا من عشرة العشرين ولكنهم حسبوا  
عليك جريرة الشباب وقالوا : انه لا يزال صغيرا

وهكذا عدنا الى حديث الصحافة من طريق ديوان  
الاقواف ، وهكذا سنعود اليه بعد قليل ..

الفصل

السادس

بين الوظيفة والصحافة



## معركة الأوقاف

عملت في ديوان الاوقاف ٠٠ وكان عملي في مكتب السكرتارية اقرب المكاتب الى دخائل الديوان ، ولكنني أعترف اليوم بأن ما علمته في أيام خدمتي بالديوان من خفايا المعركة التي دارت حوله لم يكن غير الفقاقيع التي تطفو على وجه الماء ٠٠

كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولندن والاستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديوى ودار الوكالة البريطانية وحزب الأمير حليم واعوانه من رجال تركيا الفتاة ، وأناس متفرقون في القاهرة من طلاب الاصلاح

وكان الخديوى يستमित في التشبث بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الاحوال ان تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحجته في ذلك انه صاحب الولاية على الاوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين في كثير من الاحوال ٠٠

وكان المحتلون يحاربون السيطرة الخديوية على على الاوقاف كما يحاربونها في كل جهة أخرى ٠٠ ويريدون في حربهم لهذه السيطرة في ديوان الاوقاف - بصفة خاصة - أن يحولوا بين الخديوى وبين استخدام أموال الاوقاف في حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء

كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت مما يعم  
الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال ..

وكان طلاب الاصلاح في حرج شديد لانهم يريدون ان  
يقطعوا دابر الفساد فى الديوان وما يتصل به من المعاهد  
الدينية ، ولكنهم يكرهون ان يتوسلوا الى ذلك بمعونة  
المحتلين ..

ثم حدثت فى السنة الاخيرة التى عملت فيها بالديوان  
حوادث مختلفة بين القاهرة والاستانة غيرت وجوه المسألة،  
ويسرت مالم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة ..

### الخدوي بين نارين

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الاصلاح  
منبرا « قوميا » ينادون من فوقه بوجود الاشراف على  
ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الاوقاف ..

وتولى الحكم فى الاستانة اناس يكرهون الخديوى  
لانهم اصدقاء أسرة حليم المنافسة لاسرة اسماعيل ،  
ولانهم يذكرون للخديوى مصادرتة لجماعة تركيا الفتاة  
تمهيدا للمطالبة بجزيرة « طشيوز » التى كانت فى حوزة  
محمد على الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد  
الثانى مدعيا انها كانت هبة شخصية لرأس الاسرة ، ولم  
تكن من أملاكه التى تنتقل بالميراث ..

- واستطاع المحتلون فى ذلك العهد ان يكسبوا لهم  
عضدا قويا بدار الخلافة ، وان يحصلوا على وعد من  
أقطاب الحكومة التركية بمساعدتهم على تقييد سيطرة  
الخديوى فى الديوان ولو اقتضى الامر خلع واسناد

الإمارة إلى أمير في بيت حليم ..

وتم أخيراً تحويل الأوقاف من ديوان إلى نظارة وزارة ، وكان اسم الوزارات يومئذ - وهو النظارات - مما يسوغ ادماج الأوقاف في عدادها ، لاشتغال الإشراف على الوقف باسم النظارة ..

## أول وزير

واختير للنظارة رجل من أنصار الخديو ترضية له وتغطية لخدلانه ، فكان ناظرها الأول في عهدنا الجديد « أحمد حشمت باشا » رحمه الله .. وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلًا لحزب القصر بين الأحزاب الثلاثة ، وهو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ..

وبعد أيام قليلة من قيام الوزير بعمله في الوزارة ، جاءني بطاقة صغيرة من بطاقات الدعسوة إلى مكتبه ، محدود فيها للمقابلة ساعة قبيل الظهر من ذلك النهار وكدت أجزم بالباعث إلى دعوتي لمقابلة الوزير ، وأنا موظف في أصغر درجات الوظائف في سلك الخدمة في الديوان

وماذا يكون الباعث إلا أنني من المشهورين بإدارة الديوان ، وأنني ممن تتجه المظنة إليهم في الكتابة عنه بالصحف والعلم بأسراره من المذكرات وكتابة المذكرات!؟

ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه في الواقع كان تخميننا نادراً يدل على وجوب التردد في قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحة والقوة ، فإن الوزير لم يتعرض للسلكي في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد .. وإنما خاطبني في أمر مقسالة من

مقالاتي نشرتها في الصحف وذيلتها بتوقيعي الصريح ،  
وهي مقالة كتبتها تأبيناً للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد  
رحمه الله ، ونشرتها صحيفة « عكاظ » الاسبوعية التي  
كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازني ، وشكري ،  
وبعض الزملاء ..

ومن أضحيك المصادفة ان الوزير كان صديقاً للشيخ علي  
يوسف ، وكان وكيلاً لحزبه وخصماً لكثير من خصومه ..  
وكان من أشياعه القليلين الذي مشوا في جنازته وأشرت  
اليهم في بعض مذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة

### من فصول الشيطنة !

وكان الشيخ علي يوسف قد ترك المؤيد وهجر الحياة  
العامة ، واصطلحت عليه العلل والنكبات .. وقضى نحبه  
غير مذكور من أقرب المقربين اليه ، فلم يسر في جنازته  
منهم غير آحاد معدودين ، بينهم وزير الاوقاف ..

وقلت في تأبينه ان الرجل كان « نفاعاً ضراراً » ولكنه  
كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الاعوان في  
مسكلاته وقضاياها .. فمن وصلت اليه يد من اياديه لم  
يكافئه عليها بالمحبة وخلص النية ، ولكنه يحسن انه  
مدين مطالب بدين يوفيه في يوم من الايام .. فلا جرم  
يشيعونه غير محزونين ويمضون في جنازته متحدئين  
متشاغلين ، لانهم في حالة نفسية أشبه بحالة المدين الذي  
أغفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كانها لهجة الاستاذ الذي  
يلوم تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده  
مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض الرضى . فقال  
بعد الاشارة الى مقال التأبين : « كان أخرى بقلمك اناشيء »



أن يتخذ له فى تأبين الموتى منهجا أطيب من هذا المنهج  
وكان عليك الا تنسى فى هذا المقام قوله عليه اطلاقه  
والسلام :

أذكروا محاسن موتاكم .. »

فاجتهدت ان يكون جوابى فى لهجة توائم لهجة الوزير،  
وقلت ما معناه : « اننى لو علمت للشيخ حسنات غير التى  
ذكرتها لما فاتنى ان اذكرها .. »

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجد ، وقال :

« على كل حال اجعل لقلبك مستقبلا كمستقبل انشيخ  
ان استطعت ، واستخدمه فى عملك ، ودع عنك فضول  
الاقاويل والاحاديث »

### شيخ المؤيد !

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

ما هذا المؤيد الذى يلوح لى اننى القى شبحا منه أينما  
ذهبت هذه الايام ، حيث اريد وحيث لا أريد ..  
قبل اسابيع - على ما أذكر - جاءتنى تذكرة مطبوعة  
كذا ذكر الدعوة الى المحافل والمجتمعات يقول كاتبها « سيد  
كامل » انه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالاقلام  
الفتية فى تجديد حياة « شيخ الصحافة » .. او كلاما  
من هذا القبيل ..

فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟ ..

اننى لم اكن اعلم عنه شيئا ، وأشفقت ان يكون مرشحا  
للقيام على تحرير المؤيد من قبل الانجليز .. لاننى تبينت  
من حديثى مع مستر « ستورز » انهم يهتمون بهمسذ  
الصحيفة ويودون لو يبتعثونها باشرافهم وتحت رعايتهم

وقال لى الاستاذ حسين روحى انهم كانوا يظنون اننى  
« أصلح » لهذه المهمة ولكننى خيبت رجاءهم ..

### مولاه !

فهل « سيد كامل » هذا ممن حققوا عندهم هذا  
الرجاء ، فاخثاروه لتوجيه هذه الصحيفة ، ولو من  
بعيد ؟

خطر لى هذا الخاطر لاول وهلة .. ولم يفارقنى حتى  
علمت المزيد من تاريخ « الدكتور سيد كامل » فعلمت انه  
افضل واصدق فى الوطنية وفى الولاء لمولاه من أن يصلح  
لتلك المهمة من بعيد او قريب .. وقد كان مولاه الذى  
تولى تعليمه فى فرنسا على حسابه بتوصية من صاحب  
المؤيد هو الخديو عباس الثانى وهو الذى رشحه للقيام  
على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ على يوسف لعمله فى  
الصحافة .. عسى ان يحتفظ بأمانة التراث الموكول اليه  
من ولى نعمته ومن استأذنه الموصى عليه ..

وها هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الاول لى بحديث  
عن المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو  
ما هو شأننا مع المؤيد ؟ أهو « لحظ الغيب » يرانا على  
مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ ..

يحق لى - لو أردت - أن أصدق هذه الهواتف الغيبية ،  
فانها لم تنته عند هذه النهاية ، ولم تزل تلاحقنى بخبر  
من هنا وإشارة من هناك حتى عادت بى الى العمل الصحفى  
محررا بالمؤيد .. وكان السبب المباشر لعودتى اليه قصيدة  
نشرها المؤيد .. ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية  
بنظارة الاوقاف ، وهو المرحوم عبد الحلیم المصرى الذى  
كان يتطلع الى مكان « شوقى » فى القصر الخديوى ،  
ووصل اليه ولكن بعد زوال الخديوية ..

نظم عبد الحلیم قصيدة من احسن قصائده عن الخصيب  
أمير مصر فى أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر  
النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه  
بينما يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعنى فى الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره  
احمد شوقى ، وما كان بالقارىء من حاجة الى البراعة  
لفهم هذه المواربة المكشوفة .. فقد فهمها كل قراء المؤيد  
من الادباء ، ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد  
الاول فى تلك الاونة : احمد حافظ عوض الذى ترك  
منصبه فى قصر عابدين ليشراف على تحرير هذه الصحيفة  
فى أدق مرحلة من مراحلها ، وخاتمتها ..

أولا تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره الا فى  
المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والاسبوعية ؟ ..

فضيحة من فضائح الادب والصحافة لم ينم لها حافظ  
عوض ، ولم ينم لها شوقى ، ولم تنم لها نظارة الاوقاف ..  
وأولهم ناظرها فى ذلك الحين - محمد محب باشا - وقد  
كان متهما فى الحاشية الخديوية بمحاباة الانجليز ..

وحضر « حافظ عوض » ذات يوم الى ديوان الوزارة ،  
ولقيته فى مكتب الوزير ولا ادرى على التحقيق هل دعانى  
أحد الى المكتب للقائه ، او ذهبت الى المكتب بغير دعوة من  
أحد لسبب من اسباب العمل فى مذكرات المجلسين :  
مجلس الادارة ، والمجلس الاعلى ..

ولكننى لقيت حافظا يبتدرنى بالسؤال والسلام ،

ويقول لى مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ ان مكتبك مستعد  
بدار المؤيد ، وان عمك الذى خلقت له ان تكتب المقالات  
لا أن تلخص المحاضر والمذكرات

ثم قال : ان صفحة الادب فى المؤيد تحتاج الى اديب  
يتفرغ لها ، ولا ينظر فى عمل من اعمال الصحيفة غير  
كتابتها او الاشراف على ما يكتب فيها ..

قال : ولو ان وقتى كان يتسع للتفرغ لهذه الصفحة  
لما استغفلنى هذا « الود » ودس علينا تلك القصيدة  
المسمومة التى جعلتنا سخرية المجالس الادبية

ولم اتردد فى قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية  
فى شيخ الصحافة العربية ، فاننى لم اكن اطمح فى الرابعة  
والعشرين الى عمل أهم من هذا العمل فى الصحافة ..  
فان كانت لدى بقية من الرغبة فى صناعة القلم من طريق  
الصحف فلا انتظر اذن لما هو اولى باقبول من هذه  
الدعوة بعد ان جاءتنى بغير عناء وبغير طلب .. ولا محل  
للتردد الا ان يكون عملى فى نظارة الاوقاف احب الى وأجدى  
على من العمل فى الصحافة ، ولم يكن عملى فى النظارة  
مرضيا لى فى حياتى الادبية ولا فى حياتى المعيشية ،  
فعلام التردد ؟ وفيم البقاء ؟ ..

### العودة الى الصحافة

وامتلا مكتبى « الخالى » بدار المؤيد قبل ان ينقضى  
الاسبوع .. ولم يمض أيام حتى عاودنى الطالع القديم :  
ذلك الطالع الذى نحدثت عنه فى مذكرة سابقة من هذه  
المذكرات .. لا أدخل عملا الا وجدته فى مرحلة من أدق  
مراحل تاريخه ، منذ عملت فى الوظائف الحكومية ، الى  
أن عملت فى الصحافة ، الى ان عملت فى ديوان الاوقاف ،

الى ان عاودت العمل فى الصحافة كرة أخرى !

ولا أطيل فى شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغنى القارىء عن شرحها انها وافقت الشهور الاخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية الاولى ، واننى لم أسلخ فى المؤيد شهرا او شهرين حتى ماجت الـدار بالحركة التى شغلت رئيس التحرير عن الـدار وعسن صفحاتها الأدبية وصفحاتها الاخرى ، وتركتنى فيها بين دسائس القصور ودسائس الصحيفة التى لزمته من مخلفاتها التقليدية !

كان الخديو يعلم ان لورد كتشنر يصر على خلعسه ويرشح للخديوية أميرا من امراء بيت حلیم ، وكان يعلم ان كتشنر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة فى الاستانة أو قوة الرأى العام فى مصر ، وفى طبيعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية

فأما قوة الخلافة فى الاستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره فى تلك السنة الى الاستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الاوربية كعادته فى السنوات الخالية ، ليبقى الى جوار الخليفة متأهبا لاحباط المؤامرة عليه

### الخديو يزور سعد زغلول !

واما قوة الرأى فقد احتاط لها برحلة شعبية فى الوجه البحرى تعمد فيها زيارة الاعيان فى قصورهم وزيارات الفلاحين بين اكواخهم واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها احد من الكبار او الصغار ولا من الرجال او النساء ، ولج به الحرص على ابراز صداقته للمعارضين فى الجمعية التشريعية فجعل اسماءهم فى الصف الاول بين اسماء

الاعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته في غير قراهم ، واولهم سعد زغلول

ولم يشأ الخديو ان يؤتمن على مراسلة « المؤيد »  
باخبار الرحلة احد اقل من رئيس تحريره فأخذ حافظ  
عوض في ركابه ، وجاءنى حافظ الى مكنتى قبل سفره  
يمهد للطلب الذى يريده منى : وهو تنقيح اخبار المراسلين  
بالصيغة الادبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل  
اثباتها فى الصحيفة بالصيغة الاخيرة ، وهى الصيغة التى  
ستظهر بها فى الكتاب الذهبى وكرر كلامه عن الرحلة  
وعن الصيغة التى ستظهر بها بعد ذلك فى سجل شبيه  
بالسجلات الرسمية ، وانصرف وهو يقول :

— انه عمل ادبى خالد على أية حال ، وانه يستحق ان  
أجل من اجله صفحة الادب الى حين

### الكتاب الذهبى !

وانهالت الرسائل كالطر المنهمر من المراسلين واعيان  
الاقاليم وكل من قال له الخديو كلمة او قال كلمة للخديو  
وضاق الوقت عن ملاحقتها بالقراءة والترتيب فضلا عن  
التنقيح والتصحيح ، ثم انطوى الكتاب قبل أن تفتح  
صفحة من صفحاته ، ولا يزال منظوبا الى الان

مشترك من مشتركيه الموعودين ضل طريقه الى حجرتى  
بدلا من حجرة المحرر الذى كان منوطا بتسلم الرسائل  
وتسليمها الى بقائمة مكتوبة لايداعها فى ملفاتها الى حين  
الفراغ من تدوينها . فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود  
انه اعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهاً  
باسمى ، وانه حضر فى ذلك اليوم ومعه شئ زهيد على

سبيل الهدية : ساعة وسلسلة ذهبية .. ولى بعدها هدية  
على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب

وتركت « الملفات » فى أماكنها ريثما يعود رئيس  
التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستغفيته من  
العمل فى الكتاب وابلغته ما سمعت ، وقلت له ان محررى  
المؤيد احرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون  
ان يزجوا باسمى فى معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق لى اذا  
فعلوا ذلك ان اصحح ظنون الناس ، وسأترك له - أى  
لرئيس التحرير - ان يختار طريقته لتصحيح هذه  
الظنون ..

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسئول بالويل  
والثبور ، ووعدنى ان يكتب غدا فى المؤيد كلمة تزيل  
اللبس وتبعد الشبهة عنى فى أمر الكتاب ورسائله  
واشترآكاته ، ورجانى ان أغض النظر عن المسألة ولا  
أقطع عن العمل فى الكتاب

ويعلم اصحاب الاستاذ حافظ رحمه الله انه كانت له  
مواطن ضعف فى تحياته ومقابلاته ، ومنها انه يتشبه  
بالامير فى مناورات الرضى والغضب والتقريب والاقصاء ،  
وانه يجعل من زهرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات  
التشجيع والاعراض ولمحات الابتسام والعبوس ، وقد  
شهدنا فى مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه  
التمثيلات ، كانت هى فصلها الاخير !

### اخر عهدى بالصحافة !

فى مساء ذلك اليوم زارنى الاستاذ المازنى والاستاذ  
محمود سعيد الذى اصبح بعد ذلك مستشارا فى المحاكم  
الاهلية ، ونزلنا الى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمر

بنا لنستقلها الى تدوتنا المعهودة عند دار القضاء « فى الوقت الحاضر » . . . ولم نكد ننادى المركبة العابرة حتى مر بنا الاستاذ حافظ عوض يحيينا بيمناه ويضع يسراه فى ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بأضحك والحديث ، ثم صدر المؤيد فى اليوم التالى وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون

وكان هذا اخر عهدى بالمؤيد واخر عهدى بالصحافة قبل الحرب العالمية الاولى ، لانها نشبت قبل نهساية الصيف !

### يجوز . .

أغلب الظن عندى ان قصة خروجى من نظارة الاوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت « قضاء وقدر » كما يقولون فى لغة التحقيقات القانونية

أما العارفون بتحقيقات الحواشى الملكية فقد كان لهم رأى آخر فى القصة بحذافيرها ، وكان من رأيهم ان الخطة وضعت يومئذ فى القصر لفصل كل موظف بالاوقاف عرفت عنه المعارضة فى نظام الديوان ، لا فرق بين اكبر الموظفين واصغر الموظفين !

وكان اكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والاستبدال عبد الرحمن فهمى « بك » وكيل النظارة ، فخرج محالا الى المعاش

وكنت انا اصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم فى فصلى بالاحالة الى المعاش ، فليكن فصلى « بصنارة » الصحافة ، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول الى البر . . . غير الامين !

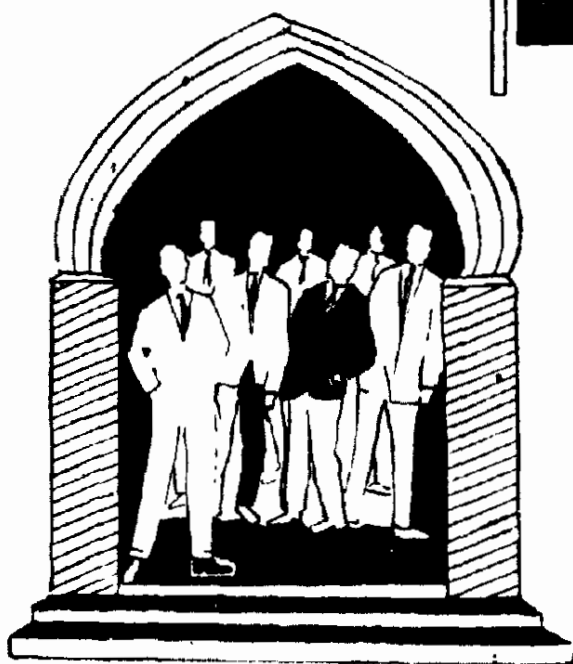


و « يجوز » هي كل ما اقوله في التعقيب على هذه  
الفكرة القريبة البعيدة ولولا اننى استقلت من النظارة  
ورفضت استقالتى قبل ذلك ، لرجحت التدبير بفعل فاعل  
على القناعة « بالقضاء والقدر » فى تعبير العارفين بالحواشى  
الملكية !

الفصل

السابع

# في الحرب العالمية الأولى



## ساعات بين الكتب

أقمت في القاهرة اياما بعد استقالتى من تحرير «المؤيد» على نية السفر الى الصعيد الاعلى ، وقد منيت نفسى موسما كاملا من المواسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورسمت برنامجى لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعى ومضامين الاثار فى أسوان وهى غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من ايام الفراغة الى ايام الممالك الى ايام الدولة العثمانية ..

وأعددت العدة للكتاب الذى نويت تأليفه باسم « ساعات بين الكتب » وجعلت عنوانه دليلا على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزبدة التعليقات التى وقعت فى خاطرى واطلعت عليها اثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب اردت به أن اصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لى من النظر والمراجعة والاحاديث

وكان الموسم خصبا حقا بشمرات التأليف ، لاننى انتهيت من كتاب « ساعات بين الكتب » فى نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل فى أهم مذاهب الفكر

الحديث ، واولها مذهب داروين ومذهب نيتشسه في  
السوبرمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد  
ذلك باسمه واعيد طبعه مرات ، لان « ساعات بين الكتب »  
التي كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير  
خمسین أو ستین صفحة

## الانسان الثاني

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سمعته  
« الانسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات

وأتممت رسالتي « مجمع الاحياء » تلخيصا للآراء في  
فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التي تهذبها  
الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهي الكتاب الوحيد الذي  
تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة ..

ونظمت في هذا الموسم الاسوانى اكثر من نصف قصائد  
الجزء الاول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطبولة  
نبذتها بعد ذلك لانها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم  
يبق لها في نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول ..

اما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت الى أسوان وأنا  
احسبني في اجازة منها الى موعد غير مسمى .. وخيل  
الى أنها ستكون اقل الشواغل شغلا لى حتى في الاطلاع  
عليها والعناية بأخبارها ، فان عاودنى الحنين اليها فلتكن  
عودتى اليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة في حكم القصيدة  
الشعرية ، توحى بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من  
عوارض الشعور . .

وتقدرون فتضحك الاقدار ..

وقدرت ان الكتابة الصحفية لن تشغلنى قارئاً ولا كاتباً

خلال مقامي في أسوان ، إلا أنها تسلية من قبيل تزجية الفراغ ، فاذا بمقالة واحدة كتبها - من هذا القبيل - تشغلني أضعاف شغلي بمقالات الصحف سنوات في أخرج أيام القلاقل والقضايا والإزمات ، مع انها قرئت مخطوطة قبل أن تقرا مطبوعة ، ولم تزد نسخها المتداولة اولا على عدد اصابع اليدين . . .

تلك هي مقالة « نادى العجول » ، كدت اذهب من جرائها الى جزيرة مالطة وانا احوج ما اكون الى المقام بأسوان أو في جو القطر من المشتى الى المصيف

### « شهوة » و « شبهة » !

أدركتنى الحرب العالمية الاولى وانا في أسوان ، وأحس الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الاعلى قبل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، لان أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الاحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الاحكام العرفية فيها الى رئيس اقليم بعيد من الرقابة مطلق التصرف في الاوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الادارية في الاقاليم . . وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين واذنابهم من المسلطين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والأوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الأحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات ، أو شكت الرغبة في الاستبداد أن تصبح هوسا في نفوس بعض « الحكام » . . ولا سيما الحكام الذين بدا لهم أن الفرصة سانحة لاستغلال هذا

السلطان المطلق طمعا في الكسب وشفاء للضغائن والاهواء ، وماذا يمنع الرشوة أن ترفع رأسها وتصيح بين الزوايا وفوق الجدران اذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النفي والاعتقال بغير تحقيق ؟ .. وماذا يفيد التحقيق اذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية لاعتبار « المتهم » من ذوى الخطر والسابقة المحذورة ؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالاكثرين من المصريين ؟ ..

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام في اسوان أنه اراد أن يقضى يوما مع أسرته في الجزيرة المغربية التي يقصدها بعض الناس للرياضة في أيام الاجازات ، فأرسل المنادى « الرسمي » يطوف أرجاء المدينة ، وينذر من تحدثه نفسه بالنزول في الجزيرة ان يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار . .

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوتها في اقليم أسوان الأمن الوديع ! تجنيد اجباري لفرقه أعمال واعتقال متكرر لشبهة وتغير شبهة ، واناوات تفرض لعل من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الاحمر ، أو ترفيها عن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ما كان من مختلف المشروعات ، وأصبح كل طلب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، او انذارا بالسداد في غير تردد ولا مساومة

## نادى العجسول !

حدث هذا في بلدى وبين اهلى وعشيرتى وأنا انظر اليه بعينى وأستمع الى اخبساره بأنى وأحس كل مظلمة من مظالمه بأحساس قريب وأحساس انسان ..

حدث هذا وأنا فى الخامسة والعشرين

وحدث هذا وأنا اقرأ الشعر فلا أزدري أبا نواس لقول  
من اقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله في الحكمة :

خل جنبيك لرام  
وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير  
لك من داء الكلام

لا يا أبا علي ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فان كان موت  
يا صاح فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء  
الكلام . . . ؟!

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتباً الى وزير  
الداخلية والى السلطان

وتكلمت بالقلم أيضاً فكتبت ونشرت ، او نظمت على  
الاصح قصيدة منشورة سميتها نادى العجول . .

نادى العجول هذا كان « ناديا » للسادة الحاكمين  
وسراة القوم في المدينة « فتحه » الرؤساء بكل معنى  
« الفتح » . . . لأنه كان أشبه شيء بالفزوة في طلب  
الأسلاب ، من طريق المساومات والالعب

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقامرة ، وكان  
الحضور فيه مفروضاً على بعض الناس في ساعات معلومة  
كى يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات . .

ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادى العجول ، ولكننى  
سميته كذلك لان رؤساءه كلهم من أصحاب الوزن الثقيل  
ولانه « حظيرة » من حظائر « الدواب » الأدمية لا تخلو  
من القرون . . !

وأضعف الاعضاء نفوذاً في ذلك النادى الموقر كان يملك  
الترخيص لى بالسفر على حساب الحكومة الى جزيرة

مالطه ، غير مشكور منى ولا ملوم من احد على ذلك الاحسان  
بالاكراه ..

ولكننى كتبت المقال ، وتناسخه الادباء ، ولرسلته الى  
الصحف ، وقرأه اننادى كله فى جلسة حافلة من جلساته ،  
وتقرر فى تلك الجلسة مصير الفضولى الجسور الذى  
يجترى على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقنطرة من  
الشحوم واللحوم ! ..

### مقامة فكاھية

واعود فاقول ان القافية هى التى قضت قضاءها فى  
الموضوع - ولا قضاء لى فيه ولا مشيئة - فخرج الموضوع  
كما ينبغى ان يخرج مقامة فكاھية او قصيدة منثورة ،  
يقرأه ، من خلا ذهنه من « الموضوع » فلا يشتم منها  
رائحة الحملة التى يجترى بها القائل على الحكم العرفى  
المخيف ولا على الحكم القانونى اللطيف .. ويقرأها من  
امتلا ذهنه « بالموضوع » فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو  
يسأل الله السلامة من تلك العجول

قال رئيس النادى فى مقدمة المقامة : « ايها السادة ..  
ان العجل مدنى بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا  
الله على بنى آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون ..  
وقد غير بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا  
ويتمسحون باذيالنا ، حتى ايقنوا ان لن يقوى على حمل  
هذه الدنيا احد سوانا ، فعبدونا من فرط الاجلال ..  
وسبحوا لنا بالعشى والاصال ، وكانوا يحسدوننا على  
قروننا فدعوا اكبر ابطالهم واشدهم بأسا وارفعهم ذكرا -  
اعنى الاسكندر المقدونى - بذى القرنين وما اسكندرهم  
هذا وما قرناه ؟ ان اصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا



ناطحة ، ويجندله اذا واتبه أو صارعه ، فالعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد . . .

وقضى حكم القافية قضاءه في قراءة « الموضوع » كما قضاها في كتابته ، فأصبحت المقامة في مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التي يؤدي فيها الامتحان بعد يومين آخرين ، وراح أولاد الحلال يتساءلون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكرون ذلك المجد الخالد، فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخايب ويتجاهل ويخاطب العضو من الاعضاء التابعين غير المتحدثين ، نعتى بهم زمرة الاعضاء المسوقين المسخرين ، فيقول : أنت مدنى بالطبع أنت أشجع من الاسكندر . . . أنت يقام لك وزن . . . أنت مخير على الآدميين ، الى أشباه هذه «التلقيحات» الرمزية التي كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح

وكانت المناوشات بينى وبين المدير سجالات قبل شيوع تلك الكلمة عن نادى العجول . . . كنت أشكوه وأعززالشكوى بالبيانات، ثم استدعيه وزارة الداخلية فنقرأ في الصحف أنه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بحماقته عن سر هذه المقابلة التي يستدعى لاجلها من أسوان ، فنعلم انه سمع فيها ما ليس يرضاه

### الرشوة والاتاوات !

وكانت هذه المناوشات تجرى سجالات بين مرتجلة أو مدبرة حتى شاع في المدينة ، ثم في الإقليم ، ذلك المقال المنشور عن نادى العجول . . . فاذا بالمناوشات التي كانت قصة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهى الى مخرجها الذي

تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من اثنين  
ان يخرج من المدينة : المدير او كاتب المقال عن نادى  
العجول ..

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفي  
لانه نفي قبلى ناظرا للمدرسة المواساة ، وكنت انا ناظرها  
الثانى فأشفق القوم ان يقال أنهم يضطهدون المدرسة  
الاسلامية الوحيدة فى البلدة .. وكل ما استطاع المدير أن  
يقنعهم به هو ان يشدد على الرقابة ويقيد اقامتى بالمدينة،  
فلم اكرث لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لاننى بطبيعتى  
كثير العكوف فى المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة  
فى الخلاء او فى النيل

وفتقت الحيلة للمدير أن يصدمنى بمفتش الداخلية  
الانجليزى ، فألقى اليه اننى أتهمه بالرشوة وأذيع عنه  
انه يقاسم الموظفين « أنوات » السلطة على وظائف العمد  
والمشايع و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين ، ولم  
يكذب المدير فيما ادعاه ، لاننى كتبت فى الواقع أقول  
وأعيد أن المفتش الانجليزى يقبل الرشوة ويفرضها على  
مرءوسيه ..

واستدعانى المفتش الى ديوان المديرية فقال فيما قال  
فى حديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزى  
مرتش *Corrupt* فى الحرب ولا فى السلم » ..  
فبدت منى كلمة لا ادرى ماذا كنت أقول - سواها -  
لو قصدها عن روية .. وقلت : ان الانجليز جديرون  
بالتهنئة لانهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال ..

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة  
من أشنع الفضائح فى حالتى الحرب والسلم أثناء القتال  
وبعد القتال .. فلو اننى تعمدت الروية لما وجدت امامى

مثلا اقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلام ، ولكننى لو تعدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى واحجى .. فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقالي واقصائى من المدينة ، وقال عنى اننى أخطر من ناظر المدرسة الذى نفته السلطة قبلى الى جزيرة مالطة ، وكنت قد تعدت أن اشغل مكانه تحديا للامر الذى صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا للمدرسة الموساة ..

وجزى الله مقامة « العجول » خيرا فى هذه المرة ، فان قارئنا من قرائها الذين حفظوها أطلعنا على خبر التقرير السرى الذى كتبه المفتش وتقحه بعد مراجعة المدير . . فوجب الرحيل اذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة . . وقضت القافية ان يكون الراحل فى هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة .. لا سعادة المدير

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الدار بالليل والنهار ؟

لقد كان الرقيب يلازمنى اذا خرجت ، ويسلمنى فى المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه فى الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول او رقيب جديد ..

### اصبحت من ابطال المغامرات !

لست من القراء المغرمين بروايات الهرب والمطاردة ، ولكننى اصبحت بطلا من ابطالها على الرغم منى بحكم الضرورة التى لا حيلة فيها .. فوصلت الى القاهرة قبل ان يعود منها جواب « السلطة » على تقرير المفتش والمدير ، وكأئننى كتبت بيدي قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة اسابيع

ارسلت ملابسى من المنزل فى مقطف عليه قمح يغطيه ،  
وذهب به حامله الى بيت فى شارع مجاور لنا نقلوا فيه  
الملابس الى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض اقاربنا بتذكرة  
من أسوان الى القاهرة ، وتواعدنا ان القاه بالقطار فى محطة  
« الخطارة » ويعود هو الى أسوان على المطية التى وصلت  
بها من أسوان الى الخطارة ..

وأعددنا عند ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من نثق به  
من الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المنزل فى الصباح  
على الرغم من الحارس الرقيب .. وليس أيسر من ذلك  
إذا تزحزح الحارس من مكانه الى منعطف الطريق هنيهة  
قصيرة نخرج فيها ونتوارى على الاثر فى منعطف الطريق  
المنابل ، من ناحية انقضاء ، حيث تنتظرنا المطيتان ..

ولم يعسر علينا ان نزحزح الحارس عن مكانه خلال  
تلك الهنيهة القصيرة ، فقد كان من ذوينا فتى نستعصم  
بالله من ثورات غضبه ومن خفته الى الشجار والخناق ،  
فرجوناه فى ذلك اليوم ان يغضب ، وان يبالغ فى الغضب  
وان يفارق المنزل بعد الفجر كانه ذاهب للصلاة ،  
فيشتبك فى خنقة حامية مع أول عابر من طلاب الصلاة  
مثله ، او من المبكرين الى الاعمال

وقام صاحبنا بالواجب على مايرام ، وعاد الحارس  
الى باب البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لايعرفنا  
من يرانا ولو كان من معارفنا

### أكبر مقلب للمدير !

وكنت بعد ذلك يوم فى ديوان الداخلية اترور صديقنا  
الوزير الاديب جعفر والى « باشا » وكيل الوزارة ، ثم  
تتابعت الايام والتقارير السرية تصل من أسوان

بتفصيلات المؤامرات التي أدبرها ، والاحاديث التي أذيعها  
والاقاويل التي أثير بها الخواطر واستحق من أجلها  
التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار ..

أنا في القاهرة يصطحبني وكيل الداخلية كل يوم الى  
مكتب المستشار ، ويشهده على مقامي بعيدا من أسوان  
بأكثر من ستمائة ميل ، وأنا في الوقت نفسه بأسوان  
يرانى المفتش والمدير أثير الخواطر وأدبر المؤامرات ..  
والنتيجة معروفة ...

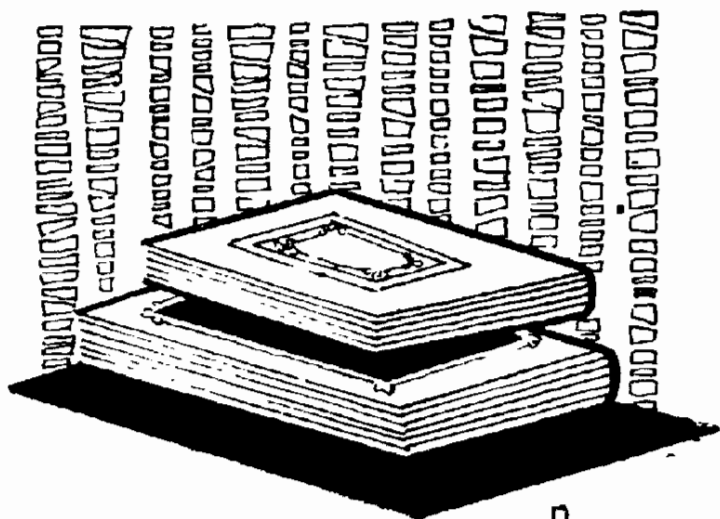
في هذه المرة يخرج المدير من البلدة ويتلوه المفتش ،  
ويصدر الامر باحالة المدير الى المعاش قبل موعد الحركة  
الادارية ، وأعرف اسم المدير الذي خلفه فأبادر الى  
ابلاغ الخبير لاصدقائنا في أسوان بهذه البرقية :

« شر مدبر وخير مقبل »

وكان المدير الخلف « محده مقبل باشا » الذي اشتهر  
بعد ذلك في مناصب الادارة

الفصل  
الثامن

بين الموت والحياة



## كنت رقيبا على الصحافة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحسرب العالمية الاولى اكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها - على ذلك - كانت متعددة متنوعة ، لاننى اتصلت فيها بالوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملا واختبارا فقد عرفته وصفا ونظرا واطلعت على طرف من اسراره واخباره عن كتيب - فكتبت الى المجلات الشهرية والصحف الاسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وقمت على رقابة الصحف اياما معدودة ، وندبت «لمراسلة الحربية» في صحراء سيناء وكدت أن أحيط باندثرة الصحفية من مراكزها الى زواياها ونواحيها

وتشاء الحوادث ان اشتغل بالرقابة على الصحف وهى من أبفض الاعمال الى نفسى والى فكرى ، وتشاء هذه الحوادث ان اهنىء نفسى بالخيبة فيها بعد ايام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموفقة .. !

كانت لى صداقة ادبية بالمغفور له « جعفر والى باشا » وكيل وزارة الداخلية فى ايام الحرب العالمية الاولى ، وكان من الادباء « القانونيين الاداريين » الذين يجالسون

احيانا « عثمان فهمى » بك الذى كان مديرا لاسوان  
فمديرا لقنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة  
الملكية مفضوبا عليه فى عهد الملك احمد فؤاد ، محالا على  
المعاش قبل اوانه ، لانه لم يحسن ان يشترك فى ادارة  
الخاصة على الطريقة التى يرضاها صاحب الجلالة !



وكان حديث جعفر والى معى فى الادب يكاد ان ينحصر  
فى المفاضلة بين ابى تمام والمتنبى . فانه كان يفضل أبا  
تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويملا حواشيه بالتعليقات  
والملاحظات التى توافق مشربه فى تفضيله ، وكنت انا  
تلميذا للمعري فى هذه الخصلة كما كنت تلميذه فى  
خصال خلتية او فكرية شتى ، واعنى بها خصلة «التعصب»  
للمتنبى وقلة الصبر على القدح فيه والانتقاص من أدبه  
.. أما الاستاذ « عثمان فهمى بك » فقد كان كلامه فى  
العلميات والفلسفيات اكثر من كلامه فى الموضوعات  
الادبية ، وكان يناصرنى احيانا فى تفضيل المتنبى من  
الوجهة الفكرية ولكنه يناصر وكيل الوزارة فى حملته على  
« نفخة » اشاعر الكذابة . مع تعرضه للرفد والسؤال ،  
ما يخالف اصول البلاغة على قوله ، وهى مراعاة مقتضى  
الحال ، أو المقال حسب المقام !

وعلم « جعفر باشا » اننى ابحت عن عمل فى القاهرة  
لان حالة « الكبد » عندى لا تسمح بقضاء الصيف فى  
اسوان ، وعلمت منه مرة ان الرؤساء الانجليز يفاخرونه  
بضيقتهم الشديد من مشكلة ارقابة على الصحف العربية ،  
وانهم يكادون ان يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لانه احق  
الناس ان يعرف كيف يختار للرقابة اناسا من ادباء



المصريين يصلحون لها ولا يسيئون فهمها  
 وقال لى ذات مرة « ان يوسف خلاط بك » مديسر  
 المطبوعات على حد تعبيره « فى ثياب ضيقة » . . . ولكنه  
 هو يخشى أن يلبسه القوم هذه الثياب  
 وأزوره يوما على موعد ، فيقول لى ضاحكا : اننى آمنت  
 بعظمة المتنبي وفضله على ابي تمام  
 ثم يلمح دهشتى فيبادر قائلا : ولكنه تفضيل معلق على  
 شرط ، وهو ان تستخدم لنا حكمة صاحبك فى عمل من  
 اعمالنا هنا بوزارة الداخلية ، وهو مراجعة الصحف  
 العربية . .

### تكميم الافواه !

قال : والحيرة فى امر هذه الرقابة ان اكثر الرقباء  
 بادارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون انها تكميم للافواه  
 والاقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف فى المكر والحيلة ،  
 فكلما خطر لهم ان صحيفة من الصحف تلعب بالانفاظ  
 لتفويت خبر من الاخبار داخلهم الفرور وظنوا انهم يغلبون  
 الصحيفة فى المكر واللعب ، فيحذفون الخبر ويصرون على  
 منعه ومنع الاشارة اليه . ومن ترخص منهم فى السماح  
 بنشر الاخبار التى يحرض عليها الصحفيون فانما يترخص  
 فى ذلك مجاملة لاولئك الصحفيين من اجل الصداقة او  
 من أجل المنفعة المتبادلة

قال : ولا ادري ماذا اصنع وانا الوكيل المصرى المفروض  
 فيه انه اقدر من غيره على حل المشكلة . فهل لك ان تؤدى  
 هذه الامانة الشاقة وان تعيننا على تجربة الرقابة كما  
 ينبغى ان تكون ، بين اعطف على الصحافة ورعاية مقتضى  
 الحال . .

وكانت « رعاية مقتضى الحال » قد اصبحت من التوالب المحفوظة في احاديثنا حول بلاغة المتنبي وبلاغة ابي تمام وحظ الشعاعين من الحكمة على مقتضى الحال قلت : اننى اقبل العمل فى الرقابة ولا غضاضة ، ما دامت الرقابة من المصالح العامة فى أيام الحروب

### عجرت والحمد لله !

وبعد ثلاثة ايام جاءنى تنبيه وسؤال عن بعض الاخبار التى تركتها للنشر وتحقق لهم اننى لم احذفها وبعد يومين او ثلاثة جاءتنى دعوة الى مكتب مستر « هور نبلور » الرقيب العام يتقدمها حديث مقتضب من « يوسف خلاط بك » فلما دخلت المكتب سألتنى مستر « هور نبلور » مقطباً : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم الى رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية فقلت بعد اجالة النظر فيها : نعم فعاد يسأل : وكيف تبيع نشر الاخبار المقلقة التى من هذا القبيل ؟

قلت : انها تباح فيما اطلع عليه من الصحف الانجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو اخطر منها بكثير فصباح متهمكما : الصحف الانجليزية ؟ ثم أردف قائلاً :

— هل أنت من الحزب الوطنى ؟

قلت : انا مصرى وطنى بطبيعة الحال

قال : اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فاجبته بكلام فحواه اننى لا افهم المقصود بالعطف معهم ، ولكننى لا ابقى فى هذا العمل اذا كان يتطلب منى

شعورا لا أفهمه ، وله ان يتقبل استقالتي مشكورا على قبولها . .

وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد اسبوع واحد ، وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة

### المراسلة الحربية

أما المراسلة الحربية فقد نذبت لها من طريق الكتابة في مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة شوبنهاور

وكنت اعمل بالتدريس في مدرسة وادي النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف والمقطم . فزارني الاستاذ نجيب شاهين بالمدرسة موقدا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لي ان الدكتور وبعض ذوى الشأن ينتظرونني بعد الفراغ من المحصة قبل فسحة الظهر . ولم يخبرني شيئا عن موضوع الدعوة

فلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشابا من اصهاره ومعه الشيخ الغنيمي التفتازاني ورجلا انجليزيا لا اعرفه ولم يعرفني به الدكتور ، ولكنه قال :

- انك تعلم قلق الناس في هذه الايام من جانب الحدود الشرقية ، وكلهم يظنون ان الهجمة منها قريبة على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليك ان يعيد اطمأينة الى نفوسهم بما ثراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهي حاضرة عند المختصين بالمسألة . . و اشار الى ناحية الرجل الانجليزى ، وكل ما يطلب منك ان تطلع منها في القاهرة على ما يلزمك وان تهيب نفسك بعدها للرحلة الى الخطوط الامامية في صحراء

سيناء ، ثم تصفها بأسلوبك المعهود لان مجرد الوصف الصحفى الشائع لا يكفى للاقناع والتأثير ، ونولا ذلك لكان فى مخبر من مخبرينا او مخبرى الصحف الاخرى من يفتنى هذا الغناء

### راى الذى لم اعلنه !

واحب ان اعيد هنا راى الذى اعلنته فى اثناء الحرب العالمية الثانية ولم استطع ان اعلنه فى اثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد كان من راى فى الحربين ان تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها موفورة السلاح والاستقلال والا تتولاه - بداهة - فى ظل الحماية او الاحتلال

فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له اننى لا اكره ان ابث الطمأنينة فى قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون باعباء هذاالدفاع اما وهو - كما يحدث الآن - من عمل دولة الحماية فليس من المعقول ان ارفض الحماية واقبل دفاعها

وكان الدكتور يعلم راى هذا فى الحماية من احاديثى معه قبل ذلك خلال زيارتى له فى صدد مقالاتى الادبية ، فكاد ان يعتذر من مواجعتى بالاقتراح لانه نسي اننا تحدثنا فى مسألة الحماية منذ شهر ، وانصرفت وهو يكرر قوله : انه لو ذكر ان فى الاقتراح شيئا لاسيفه لما فاتحنى به ، وجعل يقول مازحا : اذن تعود الى المعرى وشوبتهور .. !

ولا اذكر ان احدا من الحاضرين فى تلك الجلسة فاه بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازانى ... فانه طفق يقول ويعيد : يا سيدى فيها ايه ؟ وماذا فى ذلك

ياسيد عباس ؟ اليس المهم الآن ان تطمئن النفوس على الحدود ؟

فلم اجبه ولم يجبه احد من الحاضرين

### أنا والمازنى .. بين الموت والحياة !

وقبل انتهاء الحرب العالمية الاولى عدت الى التحرير فى الصحف على غير انتظار ، بل على ياس من العمل فى الصحافة والتدريس الى مابعد الهدنة ، اذ كان للهدنة موعد قريب

فالعمل فى التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارسته سنتين مع صديقى المازنى فى مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارسنا الثانوية ، وجرت العسادة فى كل مدرسة ان ينتهى عملنا فيها بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح اوراق الامتحان ، لاننا كنا نصصح اسئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر الى أوراق الامتحان كأنها اوراق الرصيد المنتظر فى حساب المصروفات

فلما وصلنا الى الاوان المقدور للآزمة السنوية خرجنا من المدرسة متفتحين على سكنى الامام الشافعى حيث تقيم أسرة الاستاذ المازنى من زمن بعيد ، وقدردنا ان اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عن التعجل فى طلب العمل بضعة اشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء

وقلت للمازنى : ابحت يا صاح عن عمل فى صناعتك ولا ترتبط بى فى بحثك ، ودعنى أنتظر العمل فى صناعتى حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا فى استعجاله ولا فى البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه

ووجد صديقنا المازنى عمله ناظرا للمدرسة المصرية

الثانوية ، ولبثت انا بالقاهرة اترقب اوائل الشتاء لاعمل فيما يتهدى من عمل ارتضيه او ازمع الرحلة الى أسوان وكنت احسبني مترقبا على غير جدوى لان ركود السياسة الوطنية فى ابان الحرب قد ذهب بالصحف اليومية اتى كانت تنطق بالسنة الهيئات السياسية ثم هبطت أزمة الورق بالصحيفتين الباقيتين - وهما المنظم والاهرام - الى ورقة واحدة من صفحتين لامتسع فيهما لغير البرقيات وانباء الدواوين وما هو من قبيل «المحتويات» التقليدية فى الوقائع المصرية ، فاكثفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين

وكنا « نغد » على المدينة من « حى » الامام الشافعى مرة كل اسبوع ، وكان يوم السبت على الاغلب هو موعد هذه الزيارة الاسبوعية ، لانه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة الاحد ، فلم اكد اقبل على المكتبة التى كنت اتردد عليها فى هذه الزيارات حتى تلقانى صاحبها قائلا بل صائحا : اين انت يا استاذ ؟ ان الاستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماه وهو ياتى الى المكتبة ويعور ليسال عنك وقد يشس من لقائك فأوصى الاستاذ « عبد المؤمن كامل الحكيم » بالبحث عن مكانك والاتصال بك فى شان هام كما قال . وقد كان الاستاذ عبدالمؤمن هنا الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتبت له عنوانك كما اعرفه بالامام ، ولا ادرى فى اى مكان هو بانحاء الامام . .

وعلمت بعد لقاء الاستاذ عبد المؤمن اننى مطلوب للتحرير فى صحيفة « الاهالى » بالاسكندرية ، وأذنى استطيع ان اعد نفسى للسفر خلال اسبوعين او ثلاثة ، وعنده تفويض بتسليمى مرتب شهر وما اطلبه من تكاليف السفر ، وعنده كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة فى

تقدير المرتب ، ان كنت لا ارضاه

قلت له : لا حاجة الى المراجعة الآن ولعلها في الاسكندرية أجدر وأيسر ، وأنشيت يومئذ الى الامام لاعداد حقيبة السفر واختيار ما أحمله معي من الكتب الى الاسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة ، ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الآونة . . . لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام

كانت في الثغر الاسكندري ثلاث صحف يومية هي البصر ووادى النيل والاهالى

وكانت « البصر » صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع في خارج الاسكندرية ، ولا تعرض للبيع في الاسكندرية نفسها الا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسة ورسوم الاعلانات القضائية من المحاكم المختلطة، ولا تذكر فيها شئون السياسة المصرية الا كما تذكر في صحيفة « خارجية »

وكانت « وادى النيل » صحيفة المجلس البلدى او صحيفة المناورات والمنازعات بين اعضائه واحزابه ، ولها - من ثم - عناية بمسائل الاسواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما انبها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الاسكندرية ، ونصيب « لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية، بعد انقطاع الشعب خليفة اللواء وانقطاع المؤيد والجريدة

أما « الاهالى » فقد كانت في نشأتها صحيفة «شبيهة بالرسمية» يشترك فيها مئات من الموظفين والعمد والاعيان لانها لسان حال رئيس الوزارة محمد سعيد

باشا ، وكان « محمد سعيد باشا » احد الساسة القلائل الذين فهموا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأى العام ووجوب الاعتماد على الصحافة فى مناقشة الصحافة التى تعارض الوزارة . فأوعز الى طائفة من أصدقائه الاسكندريين بانشاء شركة « الطبع والنشر الاهلية » واستهلال عملها الصحفى باصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها . فاختاروا اسم « الاهالى » لصحيفتهم عمدا لانه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل اباطة باشا رحمه الله ، ولان اسم « الاهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغا بالصيغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة

ولم تزل « الاهالى » صحيفة الحكومة « الشبيهة بالرسمية » الى ان سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدى باشا التى اعلنت الحماية على مصر فى عهدها ، فليست « الاهالى » بعد ذلك لباس المعارضة فى حدود الظروف التى تسمح بها الحسب والرقابة وكانت هذه المعارضة تقوم على أساسين : أحدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدى ، والآخر ايمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية فى استنهاض الحجة « ااقانونية » او الحجة الدولية على الاحتلال والحماية . فقد كان سعيد « عثمانيا » فى تفكيره وشعوره الى اللحظة الاخيرة ، وكان هو صاحب الرأى القائل بالارتباط بين البحث فى مسألة الحماية والنظر فى معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة فى الحرب العالمية

واوشكت « الاهالى » ان تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشدية ، لان مشتركها من



من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما طواه من الصحف المهمله او المعطله ، ولكن ظروف الحرب انقضت باعض الانقاذ من حيث لا تحتسب ، لانها حصرت الاعلانات في ايدى شركة تحتكر الاعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتعهدهد للاجانب بنشر اعلاناتهم فى صحيفه افرنجية وأخرى مصرية ، فكانت « الاهالى » هى الصحيفه التى تتسع لنشر تلك الاعلانات فى ملحقاتها ، وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذى تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت ان تعيش سنة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها فى ذلك المعترك العصيب (١)

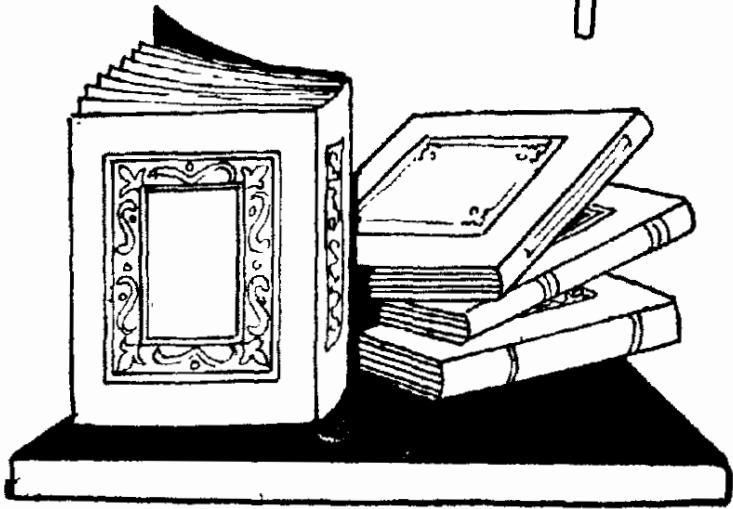
وبقيت فى تحرير « الاهالى » الى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول ، وافترقت الخطة العامة بين الصحيفه والوفد فتركها وعملت فى الصحيفه التى كانت تجرى يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة مصر وحياة الصحافة وحياتى الصحفية ، يقترن بتاريخ النهضة الحديثه فيما علمت من ظواهرها وخوافيها

---

(١) وقف الاستاذ العقاد - فى الفصول السابفة - حتى عام ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول . وقد اشترك بقلمه فى هذه الثورة مؤيدا للمبادئ الوطنية والسياسية التى كان يؤمن بها . حتى اعتزل السياسة فى عام ١٩٣٥ حين أفسدتها الحزبية ، وانحرف السياسيون فى ذلك الحين عن المبادئ المثل . كما أشرنا الى ذلك فى « تقديم هذا الكتاب » وتوفر على التأليف ، وكتابة الفصول العلمية والادبية فى المجلات الكبرى . ولهذا تقدم هذه الذكريات وما يليها من الفصول التى لم تنشر من قبل فى كتاب من كتبه

الفصل  
التاسع

ذكريات وشخصيات



## صديقي المازني

صديقي المازني اُحوج الادياء الى التعريف بحقيقة فضله ، لاني ما رايت احدا من المعجبين به الا وهو يجهل بعض مزاياه . . وليس ذلك لخمول في الذكر . فقد بلغ - رحمه الله - من الشهرة غاية ما يبلغه الاديب في البلاد العربية

وليس ذلك لغموض في النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة الا عرف أنه من اصفي الناس سريرة وأشبههم ظاهرا بباطن ، وجهرا بخفاء

ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله - او بكل حقيقة فضله - لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكثراث والاكتفاء بأيسر ما ينال وبعضهم يسميها «ملكة السخرية» ويخيل اليه انها على مثال السخرية التي اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين . . ولكنها فيما اعتقد تشبه السخرية وليست هي بها . لانها تخلو في جوهرها من نكاية السخرية التي تلازمها . فلا تنطوي على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية

وانما هي على ما عرفتها واختبرتها ، شئ آخر غير

السخرية وان كانت شبيهة بها :

هى حب « المعاكسة البريئة » او هى الدعابة لا ضير فيها على أحد ، ولا فرق بين الدعابة على النفس والدعابة على الآخرين

لم يكن يبالي ان يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالي ان يقدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد الى القدح والانتكار ولم الجهد والعناء ؟ ..

لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كالخيال ، لان غايتها الى امل او ذكرى ، وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء ..!

وكان يرى أن الناس يظنون بثنائهم كأنه شيء لا غنى عنه . فكان يريهم أنه فى غنى عنه فعلا ، وكأنه يقول لهم : « ان استطعتم فقولوا فى أدبى وفنى ، وفى شخصى وسيرتى ، اكثر مما أقول »

ويحسب بعضهم انها فلسفة حياة ، ويحسب الآخرون انها « مظهر » من مظاهر التحدى التى يواجه بها الناس

وليست هى بفلسفة وليست هى بمظهر

هى طبيعة فيه عهدتها منه فى غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه كاتباً او غير كاتب ، وغاية ما هنالك انه كان يطاوعها حيناً فيسترسل فيها ، وانه كان يكفها حيناً فلا تظهر كل الظهور .. كان ولعه « بالمعاكسة البريئة » تسليته الكبرى

ولست احصى ضروب هذه المعاكسات التى كان يرتجلها ارتجالاً فى أكثر الحالات ، ولكننى أذكر حادثاً منها له اتصال بجانب نفسى فى تاريخ حياته ، وهو من قبيل

الوقائع التي تفسر الأقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التي  
يسمونها بعضهم فلسفة حياة

قل من يذكر ان المازني شغل بالموسيقى في عنفوان  
شبابه ، وانه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروسا  
كثيرة فيه ، واستطاع ان يوقع بعض البشارف وأوشك  
ان يحسب فيه من مهرة العازفين

وكننا نقضى السهرة ذات ليلة في ناد كبير من اندية  
الموسيقى والغناء وطابت السهرة الى ما بعد منتصف  
الليل ، وكان بيت يومئذ بمنزله على مقربة من الامام  
وتم يكن خط الترام قد وصل بعد الى الامام ، وقد  
كان الترام الذي يذهب الى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك  
الموعد على كل حال

وودعته وهو يتفق مع حوذي ليوصله في مركبته ،  
مركبة خيل ، لان السيارة لم تكن شائعة في تلك الايام  
وكان الجو ليلتها رائقا والقمر في اوانها ، وسكون  
الهزيع الثاني من الليل يغرى بالغناء

ويظهر ان الحوذي - حين رأنا نخرج من النادي الغنائي  
- قد بدا له أننا من هواة السمع ، فلا خرج عليه اذا  
طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من « الطقاطيق »  
التي يهواها ، ولم ينس أن يعتذر الى « زبونه » بعد أن  
رفع عقيرته بالغناء :

- لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ، ان محسوبك من هواة  
السمع ، واني .. وقبل ان يعمن في الاعتذار ، بادره  
« الزبون » قائلا :

- خذ راحتك .. « أنا والله أحب اسايك » .!

فلم يملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح . لان  
الجواب الذي سمعه جزء من « الطقطوقة » التي كان

يغنيها . وراح يغنى تارة ويردد قصته التي بدأ فيها تارة أخرى ، وخلصتها أنه كان - لهوايته السماع - يختار موقفه الى جانب « تخوت الآلاتية » ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الاقليات من رقابة البوليس

وانجلى الحوذى ، وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ، ونسى البوليس والزبون ، ومضى كأنه في ليلته يود الا تنقضى به الطريق

وتدرك أخانا ، المازنى ، تلك الشنشنة التي لا تفارقه ، ويوحى اليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائى » الذى أقحمه الحوذى عليه فأفسد عليه في آخر الليل ما سمعه في اوله : ان المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول في الطقطوقة التي يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك .. »

فماذا لو كلفت آخرتها ان يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ؟ ..

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ ، وخات المركبة والمطرب المشغول بفنائها لا يدري لان خلو المركبة واخلاءها بذلك الحمل الذي كان فيها يستويان ! ..

والتفت الحوذى بعد ان طالت الرحلة ولم يستمع من الزبون صوتا ولا امرا بالوقوف .. فطار ما فى دماغه من الغناء ، وامتلا بكل ما وعاه فى حياته من البذاء

ولا حاجة بالقارىء الى ترديد ما ألقاه من لسانه فى ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه اذا استدل به وغريمه الباحث عنه هو دليله انوحيد

ويزورنى الصديق فى اليوم التالى فيسألنى : « أتذكر شكل الحوذى الذى ركبت معه بالامس ؟ »

قلت : « لا أظن اننى أحقق شبيهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل فقدت شيئا عنده ؟ »  
 قال ضاحكا : « كلا . ولكنه هو الذى فقد ! .. »  
 فلم أفهم ما يقول وسألته : « وماذا فقد ؟ .. »  
 قال : « فقدنى أنا » .. وقص على تفصيل تلك القصة التى أجملتها هنا بعض الاجمالي . !

\*\*\*

انقضى اربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فذا هو مهموم بالبحث عنه لاعطائه أجره الذى خيل اليه انه قد ضاع بغير أمل ، فقلت له أن حوزيا بهذه الصفة لا بد أن يكون معروفا بين زملائه فى موقفه وغير موقفه ، فهلم الى الموقف نبحث عنه هناك !

ولم يخطئ ظننا فى جدوى البحث هناك ، لان القصة كانت حديث زملائه جميعا ، وان لم يكن هو فى الموقف تلك اللحظة . فأخبرناهم أين وجدنا اذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل بهرول وهو لا يصدق ان زملاءه قد صدقوه الخبر . فلما رأى صاحبه بالامس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف أجره الذى كان يطمع فيه ١٠٠ وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادما : « لاعدت الى الضياء أبدا وأنا مركب » .. والا « فعلى روحى أنا الجانى » . !

قال الصديق العزيز : « بل تفضى ما شئت ، ولكن تعطى وجهك للسميع ! » هذه هى « المعاكسة البريئة » التى لزمت صديقنا على صور شتى من صباه الى أخريات أيامه . وتزداد بها الفجيعة أن تذكرها فتذكر أى نفس طفلة - أى طفولة من طفولة البقرية الخالدة - قد عاجلها الحمام

بهذه الدعابة البريئة - التي لا ضرر فيها على أحد -  
كان المازنى يستقبل الدنيا ، ويحتمل نقائضها ومفارقاتها  
ويعفى نفسه من الجهد الذى يبرز للدنيا خير ملكاته ،  
بل يحاول أن يستر هذه الملكات بيديه غير آسف على  
شئ .!

### قادر على نفسه ..

على ان المازنى يصحح فى هذا الباب خطأ يقع فيه  
أولئك الذين يحكمون على الاطوار النفسية بظواهرها  
وعناوينها ، فيحسبون ان طبيعة الاستخفاف تقترن دائما  
بالعجز عن الجد وصرامة الاخلاق

والواقع ان الذين عاشروا المازنى وخبروه يعلمون انه  
من أقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه،  
وأشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة . وقد عانى  
من شدائد الايام ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة  
بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه فى هذه الاحوال  
الا بالاكثر من المرح والتبسط .. فلا يعرف جليسه انه فى  
شدة الا اذا تحول مزاجه الى التكلف المحسوس

وانا أعلم من عاداته انه كان مفرط الحس بالشم و  
مطلع شبابه على الخصوص ، وكنا نمشى مسافات طويلة  
لنتجنب المرور ببعض الاماكن التى تنبعث منها روائح  
الحانات والنفايات . ولكنه راض نفسه نحو ساعة على  
احتمال رائحة من ابغض الروائح الى الانوف ، لانه اراد  
ان يلقى درسا حاسما على محبى « الشيطنة » من  
التلاميذ

وكان اولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون انهم يحاربونه  
فى ميدانه حين يعمدون الى ضروب العاكسات المدرسية



التي يفيظون بها طائفة من المعلمين ، فانظروا حصته  
 ووضعوا في المحابر حمضا كريبه الرائحة لا يطاق في مكان  
 محصور ، وسبق الى وهمهم ان الحصة ستضيع في  
 السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن  
 واضعها وعن المكان الذي جاء به منها - وهو بطبيعة  
 الحال معمل الكيمياء في المدرسة . . ولكنهم لم يلبثوا  
 هنيهة بعد دخوله الى الفصل حتى أدركوا أنهم في وهم  
 بعيد ، لانه لم يسأل ولم يفضب ولم يبد عليه انه فطن  
 لشيء غريب، ولم يزد على أنه مضى بنفسه الى النوافذ  
 فأغلقها والى الباب فأغلقه ، وأخذ في الدرس وهو على  
 أتم راحة ونشاط ، وكأما اشتد تضيق بالشيء ياطين  
 الذين انقلب عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتسح  
 النوافذ والابواب ، وهو يزعم لهم ، في جد وسكون ،  
 أن الحجرة المفلقة أصح من تيار الهواء

وكان ذلك هو الامتحان الاول والاخير !

### ملكة فادرة . . . !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التي يعانها الكاتب  
 اذا حاول ان يعيد الكتابة في موضوع من جديد . فانها  
 مشقة جهد ومشقة ملل في وقت واحد ، ولكنني رأيت  
 المازني يعيد كتابة المقرر في التاريخ لبعض الفسرق  
 الثانوية تاديبا لرجل من الناشرين خدعه في طبع الكتاب  
 المقرر لتلك الفرق . فأعلن أنه غير راض عن النسخة  
 المطبوعة وانه سيطلع المذكرات على التوالي بعد اعادة  
 تحضيرها . وصبر على هذا الجهد الممل ليملى على  
 اخوان الامانة درسا في عاقبة الخيانة والخداع

الا اتنى اظلم ملكات المازني كلها اذا رجعت باحتماله

لهذه المشقة المملة الى الارادة دون غيرها

فان الذكاء المفرط في الحقيقة هو صاحب الفضل الاول في صبره على جهد الاعادة ومللها . لانه كان يستطيع ان يفتح المرجع التاريخي الضخم في المفصلة الانجليزية وان يلخصه وهو يقرأه ، وان يترجمه وهو يلخصه ، وان يكتبه على ورق الآلة الناسخة في وقت واحد . وهي أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة في لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير

الا أن السرعة في الفهم والترجمة الصحيحة اهون مافي هذه الملكة النادرة

واقول النادرة وينبغي ان أقول الوحيدة في تاريخ الآداب العالمية . فاني لا اعرف في آداب المشرق أو المغرب نظرا للمازني في هذه الملكة التي أسسميها بعبقرية الترجمة

انه يترجم النثر في اسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعر في اسلوب كأسلوب البحتري والشريف ، ثم لا يخرم في ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى . بل يأتي بالمقالة المترجمة أو القصصيدة المترجمة في طبقة التأليف أو أعلى وابلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الاوربي - العالمي - بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا أو أنه نظمها في لغة الضاد

ولا يقل شعره المطبوع عن شعره المترجم في مزايا البلاغة والصقل والسلاسة ، ومن دواعي الاسف الشديد انه هجر الشعر وانكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعي الاسف الشديد أن عبقرية الترجمة التي انفرد بها لم تجد من ينفع بها العالم العربي ويفنى الفقيده بعمل من

أعمالها الخالدة من كتابة الضرورة أو كتابة الظروف . .  
ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة أخرى من انفس  
الملكات التي يرزقها الاديب والفنسان ، وهي ملكة  
الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه  
من المشاهدات والمناظر عن عرض أو عن روية

### كنز زاخر . .

وتعود فنقول اننا نأسف أشد الاسف لان الفرصام  
تهىء له أسباب النفع بهذه الملكة في غير الاعمال  
الصحفية العاجلة ، ولو تسرت له موارد العيش  
واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذي يريده لامتع الناس  
بالعجب العجاب في هذا الباب ، ولظفر العالم العربي  
بثروة المازني كلها ، وما انفسها وما اجلها اذا كان هذا  
الذي اتسع له وقته وتهيات له أسبابه جد نفيس  
جليل

كنز زاخر ضيعنا منه ما ضيعنا وهو فيما بيننا .  
فان تعلمنا شيئا من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاه  
فانه لخليق أن يبقى بقاء العربية في حرز أمين، وحسب  
العربية من فضله على أديها أنه اثبت لها القسمة على  
مجاراة أحدث الآداب بأسلوبها الصحيح السليم

## ذكريات مع الذكريات

وأى ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما أكرمها  
ذكريات ...

إنها ذكريات الصبا فى بواكيره

إنها ذكريات الاخوة فى حماسة الدعوة الاولى الى  
الراى والمذهب

إنها ذكريات المشاركة فى الجهاد الوطنى على خلاف  
أو على لقاء

إنها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة فى  
جميع تلك الحالات (١)

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أدبيهم  
المازنى ، ففى مجال تلك الذكريات أحاديث لا تحصى ..  
لكن هذه « الشخصية » المحبوبة : شخصية ابراهيم  
الكاتب وشخصية أبى خليل الصديق - تعفينى من كل  
حيرة فى موقف الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا فرق  
فيها بين ما يقال انه شخصى خاص وبين ما يقال انه

(١) هنا الفصل كتبه العقاد بمناسبة ذكرى المازنى بعد سنوات من وفاته  
.. أما الفصل الاول فقد كتبه حين وفاته

ترجمة من حق النقد وحق التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التي يقول النقاد انها « مطبوعة في الصميم » كل ما عمله او تقوله خاصة يعين الناقد والقارئ على فهمها وتفسيرها في مجالها الفسيح الذي متصل فيه بعالم القلم ، وعالم التاريخ ..

لقد كان المازنى الذى يسخر من كل شيء ، ويخسرج لسانه لعابرى الطريق هو المازنى الذى يسمى كتبه في اخريات حياته بـ « قبض الريح » و « صندوق الدنيا » و « عالمشى » ، و « حصاد الهشيم » ، وهو المازنى الذى أعجبه ذلك الشاعر الذى أوصى ان يكتب على قبره هذان البيتان :

ايها الزائر قبرى      اتل ما خط امامك  
هاهنا فاعلم عظامى      ليتها كانت عظامك

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزائر القبر الذى يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدثه به الدفين المزور

في كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور العناية التى لا يفوتها الاحترام ، والاستخفاف الذى يعرف مواطن الاعجاب والتقديس

وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكرى يقول له فيما بيننا بالانجليزية .. حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : أن فيك يا ابا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق Angelic Impish وكان هو - طيب الله ثراه - لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه .. يجيب عليه تارة اجابة الملائكة ، وتارة اجابة العفاريت! ..

وكان موضع العجب من امر صديقنا المحبوب المهيب انه - على دعابته - لم يكن يفقد احترام عارفيه

على أوفاه ، وانه مع استخفافه لم يكن يستخف قط  
بمواضع التقديس والاعجاب

كان رحمه الله قصر القامة يطلع في مشيته ، وكان  
يدرس التاريخ والترجمة في مدرسة ثانوية اشتهرت  
بتلاميذها المتمردين ، لانها كانت مدرسة اهلية تجمع  
الذين تجاوزوا السن في المدارس الاميرية او طردوا  
منها لسوء السلوك ، ولم يكن ايسر من اجترأ هؤلاء  
على مدرس شاب قصير القامة يطلع في مشيته ولا  
يبالي كثيرا بزيه ، ولكنه كان على تقيض ذلك مهيبا  
عندهم الى حد المخافة ، وكان لقب « تيمورلنك » هو  
اللقب الذي اختاروه له من دروسه في التاريخ !

ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان او  
امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان أى رجل هذا الهزيل  
الضئيل الذى حاولوا - على غير معرفة به - ان  
يجترئوا عليه ، لانهم فهموا انه رجل يملك زمام نفسه  
فلا يستعصى عليه ان يملك زمام الاخرين ، وانه رجل  
كفو لعمله على مثال لم يعهده بين عشرات المدرسين  
وبهذه الكفاءة ، وتلك الارادة ، أصبح مدرستهم  
الهزيل « تيمورلنك » زمانه المخيف ، والمحجوب

\*\*\*

ولم تكن المدرسة هى الساحة الوحيدة المختارة  
لهذه الدعايات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة  
بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول

دخل الى صيدلية يشتري حامضا من الحوامض  
السامة التى تستخدم فى المنازل للتطهير ، وتقضى  
التعليمات على الصيادلة ان يسألوا من يشتري المادة

السامة عما يستعملها فيه . فسأله الصيدلى حسب  
التعليمات

– لماذا تريدها يا أستاذ ؟

فلم يجب الأستاذ ، بل نظر الى الصيدلى ورفع  
إبهامه الى فمه متلمظا كأنه يقول : اشربها  
وكان الصيدلى انظريف كقوا لزبونه الساخر ، فناوله  
القارورة وهو يقول :

– قدحان مرة واحدة كفاية يا استاذ !

\*\*\*

وقد كانت دعابة صديقنا الودود سلاحا ماضيا  
يدفع به الاذى ، كما كانت سلاحا حاضرا يطرف به  
الاصدقاء . وكنا جميعا « الممازنى وشكرى وانا » عرضة  
للإساءات السخيفة نتلقاها ممن هب ودب من انصار  
القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظا من دعوتنا ، ويتحرق  
شوقا الى الفرصة التى تهيبه له سببا من الاسباب  
للغض من هؤلاء « الطالمين فيها » .. كما كانوا يصفوننا  
فى لغو الحديث

ولقد ثقلت هذه الإساءات على مزاج أحدنا –  
شكرى – قسم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيدا  
عن المجامع والمجالس ، الا من تدعوه ضرورة العمل  
الى لقائه ..

أما « ابو خليل » فقد كان بدعابته الحاضرة امضى  
سلاحا من أن يتراجع امام المسيئين أو امام الإساءات،  
ولم يكن اخبر منه بأساليب الانتقام العاجل ممن يخيل  
إليه أنه سيخنقه بالفصول الباردة: الفصول التى تخرج

المقصود بها ، لانه لا يدري كيف يحجج عليها ولا كيف  
يسكت عنها



خرجنا ذات مساء الى ضاحية القبة ننشم هواء  
الربيع ، وكان لنا صديق يسكن في تلك الضاحية .  
فلما مررنا به وجدناه بين فثة من صحبه وجيرانه على  
باب داره ، فلبينا دعوته ، ولما يكد يستقر بنا الجلوس  
.. واذا بواحد من الحاضرين يتصدى لتوزيع السجائر  
ويتخطاني ويتخطى المازني عمدا ليسء الينا بهذا  
الاهمال .. وقبل أن أفرغ من سؤال نفسي : ماذا  
ان يصنع ابو خليل مع هذا الذي خيل اليه انه يفحمننا  
باساءته ، وانه حر في افحامنا بها لانه حر في سجائره  
يحيى بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ .. اذا بالدعابة  
الحاضرة - تحت الطلب - تسعد ابا خليل ، فيمد  
يده الى علية السجائر ، ويدهل صاحبها فيسلمها  
اليه ، ويأخذها ابو خليل فيناولني سيجارة ويتناول  
أخرى ، ويضع اثنتين على المنضدة ، ويقول لذلك  
المخلوق المدهول :

- هاتان السيجارتان للدورة الاتية .. لاننا لا نريد  
ان نراك مرة اخرى ..  
ثم يرفع رأسه كأنه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول  
في غير اكتراث :  
- لا مؤاخذة .. ! حسبك خادم الدار ، ولولا ذلك  
لطرذنا صديقنا الكريم



ولقد شهد هذه الفصول المازنية كثيرون من صحبه



الأقربين وممن لا يعرفهم بغير تحية المزاملة في العمل أو تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو - بينه وبين نفسه - لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعى في كل بيئة نزل فيها ولو نزول الطارئ الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التي لا يفضيها الكثيرون من الجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف . فإذا مست كرامته فلا مزاح ولا هوادة . وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة من «خدمة الميرى» شبيهة بالانتحار ، لأنه لم يعط حقه من التقدير بين قرنائه في الديوان

وفهم هذا الازدواج المحكم في طبيعته بين فلسفة الاستخفاف وشعور الاحترام ليس بالأمر العسير على الذين عرفوه وعاشروه : ان «اللامبالاة» عنده لم تكن نقصا في الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية الى الحياة ، ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة الى العاطفة الانسانية في شعابها التي لا تحصى : كان ملء النفس عطفًا على الام ، وعلى الابن ، وعلى الاخ ، وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعورا بالواقع . . هو سر هذا الضيق بالجد المتصل في حالة بعد حالة واحساس بعد احساس ، وكانت نظراته المثالية الى غير الواقع المتكرر هي التي جعلته يعطى ما لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح : أو هي التي جعلته يعطى للواقع ما للواقع وللمثل الأعلى ما للمثل الأعلى ، دون أن يمزج بينهما في كل حادث وكل يوم . . فإذا جاء دور المقارنة بين الواقع الانساني وبين الكمال المنشود فهناك تفتح الابواب للسخرية بجميع مصاريحها . ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الاب الذي هو اعطف

الناس على ضعف وليده ، واوسعهم رجاء له في الكمال  
بهذه النظرة المطبوعة الى الواقع والى المثل الاعلى  
استطاع ان يعرف السخرية بالواقع في حينه ، وان  
يعرف الغضب للقداسة التي نرفعها الى سماء المثل  
العلياء في كل حين

فمن غضباته التي نذكرها تلك الغضبة التي اشرت  
اليها في معرض الكلام على تأليف العبقريات ، واولها  
« عبقرية محمد » صلوات الله عليه

\* \* \*

كنا نزور ساحة الولد النبوي على مقربة من مسكني  
بالعباسية ، في جولة من جولاتنا التي كنا نسميها  
بالتفتيش الفني على احياء المدينة .. فذكرنا مقال  
البطولة النبوية في كتاب الابطال للفيلسوف الايقوسى  
توماس كارليل . كان يعرف اعجابى بما يكتب ذلك  
الفيلسوف . فقال :

— ولم لا تكتب انت ذلك المقال من جديد ونحن اولى  
بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من اخلاصهم  
في تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان في الجماعة فتى متحذلق يحسب ان حرية الفكر  
انما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى  
مقدساتنا نحن دون سائر العالمين .. ففاه بكلام هازل يشر  
به الى السيف والى الزوجات الكثيرات .. وما راعنا  
الا المازنى الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنما لمستته  
لفحة من وقود مضطرم ، والا حركة يوشك ان يتسهما  
عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتى في وجه ذلك الدعوى  
المتحذلق : كلا . كلا . ان هذا الهجر لا يثبت الحاجة

الى الضرب بالسيف في نشر الدعوات . انه ليثبت الحاجة الى ما هو اصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : انه الضرب بالخذاء توفيراً للسيف عن مثل هذا المقام . . . !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعه في هذا المزاج الذي وفق هذا التوفيق العجيب بين الجد واتقداسة ، وبين السخرية و « اللامبالاة » في عالم الادب الخالد ، وفي عالم المعيشة العارضة من يوم الى يوم . فكان من صنيع الزمن انه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الاعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهي بها الى الطسرفين المتقابلين . فلم يكن للواقع عنده في أخريات ايامه نصيب غير التحدى والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الاباطيل ، وغير النظرة « عالماشي » ، وغير التفويت والاعضاء . . . ولم يكن في أكثر الاحايين أهلا للمصاححة بينه وبين المثل الاعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظر والمأمول

\* \* \*

وسكنت في طويته قوة النضال حتى عاد بشيء من الندم الى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويجحدون فضله حيث هو أحق واجدر بالاعتراف ، وأحق واجدر بالفضل والتفضيل

فما كان انكاره لشعره - فيما أعلم واعتقد - الا تحدياً منه للاعجاب والاستحسان ، ممن يظنون أنهم ينعمون عليه باعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة يتكالب عليها بما ينكرونه عليه ، أو يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين . . .

وفي هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالي ان

يحسب جوابه من الجد أو يحسب من المزاح : اننى فى مصنع النجارة الفنى أعطىكم ما تطلبون : وما بالى أعطىكم كرسى الصالون وانتم تطلبون كرسى المطبخ ؟ أو أسومكم ثمن الدولاب وانتم تبدلون ثمن الصندوق الصغير . وخذعته قبل أن تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنى أن السهل الممتنع هو الذى يستطيعه مثله بلا مبالاة . . يطلبه سواه ، بكل ما فى وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه

\* \* \*

كان يجلس الى المرقم « التايبرايتر » ليكتب القصة المطلوبة ، أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضر . . وكان يكتبه فى جلسة واحدة ويختمه مع ختام الورقة الاخيرة ، فيحس القارىء انه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك أن الذى قرأه كاف ، واف ، أو يزيد على الكفاية والوفاء

وهنا - أيضا - نعلم الفارق بين « اللامبالاة » السالبة و « اللامبالاة » الموجبة التى تفنيها القدرة عن جهد المبالاة . .

ربما كانت سهولة الكتابة على المارنى تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذى يكتبه بغير اكتراث يحاوله المكترثون جهدهم فلا ينتهون اليه . واحسب اننى قرأت له المقال الذى كان يكتبه فى نصف ساعة ، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود اليها فى ساعات ، فكان أجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذى يقول انه « لا يبالي » ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من « مبالاة » الآخرين . .

وهذه هي عبقرية المازنى التى لا تجارى : عبقرية  
تعطى وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا فى  
سماواتها ، وهى على هذا تعطينا نموذجا منها فى النكتة  
مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجا  
منها فى ثمرات الفن والادب ، وتشعر وهى تستخف  
وتسخر كما تشعر وهى تقدر وتجد ، لانها فيما  
« تباليه » وما « لا تباليه » ، انما تصدر عن فرط  
شعور ، وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال

## عبد الرحمن شكري

عرفت عبد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة (١) فلم أعرف قبله ولا بعده احدا من شعرائنا وكتابنا اوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وادب اللغة الانجليزية وما يترجم اليها من اللغات الاخرى

ولا اذكر اننى حدثته عن كتاب قرأته الا وجدت عنده علما به واحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت اليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ ..

وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة، نافذ الفطنة، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم ان تهيات له ملكة النقد على أوفائها لانه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما ياباه. فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة فى الصفحة والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتى لغيره فى الجلسات الطوال

لم يسبقه احد فيما اذكر الى تطبيق البلاغة النفسية -  
السيكولوجية - المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه

---

(١) توفي عبد الرحمن شكري يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

من شعر الفحول في اللغة العربية . ولعله اول من كتب  
في لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال *Imagination*  
وتصوير الوهم «Fancy» وهما ملتبسان حتى في  
موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك التفرقة بين  
تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء في قول المعري :

وعلى الافق من دماء الشهيد  
ين على وتجله شاهدان

فهما في اواخر الليل فجرا  
ن وفي اولياته شفقان

وبين تشبيه ابن الرومي للأصلع حيث يقول :

فوجهه يأخذ من رأسه  
أخذ نهار الصيف من ليله

فالاول وهم في خاطر المعري ، لا يلتفت اليه احد غيره  
لو لم يذكره ، والاخر خيال مطبوع يخطر لكل بديهية  
مصورة تتقن من التشبيه ما يتقنه الشاعر . وقد كان  
يشمئز من بيت الواواء الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت

وردا وعضت على العناب بالبرد

ويقول أن نسبته الى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته  
فلا نجتمع عليه « بين قتل الحسين وقول هذا الشعر  
الذي لا بأس به اذا اريد للفكاهة والعبث لا للفرل »

وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الانباري :

ولما ضاق بطن الارض عن ان

يضم علاك من بعد المسات

أصاروا الجوق قبرك واستعاضوا  
عن الأكفان ثوب السافيات

وهو معدود من عيون الرثاء عند من ينظرون إلى  
اللفظ ولا ينظرون إلى بواعث الرثاء من النفس الإنسانية .  
فمثل هذا الرثاء يقال للمكايذة أو للعبث ، ولا ينم على  
حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد

### شكرى الشاعر

ولم يكن امتع من الاستماع إلى شكرى وهو يقرأ  
القصيدة العربية أو الأوربية ويعلق عليها بيتا بيتا  
أمثال هذه التعليقات . . وما كتبه من النقد في مؤلفاته  
قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التي كان يرسلها  
عفو الساعة ولا يعنى بتقييدها

وقد نظم شكرى سبعة دواوين من الشعر غير القصائد  
التي لم ينشرها وتمتلئ بها كراسة في حجم ديوانين  
آخرين أو أكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة  
وغير المنشورة أمكنه أن يجمع منها زبدة من أجمل الشعر  
تضارع صفوة القول في كلام كبار الشعراء . وقد كانت  
له قلوة على رياضة النظم كما نرى في ترجماته لبعض  
رباعيات الخيام . فان الترجمة ادل على قدرة النظم من  
التأليف لتقيد الناظم بالمعاني المنقولة التي لا يتصرف  
فيها ، فقد أحسن فيما نقله من الخيام غاية الأحسان  
حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحول اشجا

نا لسيه قديمه العهد

تانس النفس بالتفرد والوحد

ة في ظسل عيشه الرغد



حيث تحكى الازهار راحة موسى  
في ييـساـض النـوـار والـوـرد  
ولها نفحة كاتفاس عيسى  
باعثات للميت من لحد

أو يقول :

ارم قد عفت وصـوـح قـدـما  
في رباها الربيع والزهر  
كأس «جشيد» قدمضت حيث لاجيـه  
ث لـدنيا من امرها خبر  
لكن الكرم لا يزال جوادا  
برحيق حسابه درو  
وانما منزل على الروض فينا  
ن تروى ازهاره الفدر

أو يقول :

هات لى انكأس يا حبيبي دهاقا  
لا تطع عاتبا كئوس العقار  
ان ثوب الوقار ثوب شتاء  
ليس يفنى في الصيف ثوب وقار  
اغض عنك الوقار وارم به في  
جمرات للقيظ مثل النار  
انما العيش طائر بين غصنيـه  
من فخذة مأخذ المستطار

\*\*\*

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلسـت له في  
مترجماته كانت في مبتكراته أسلس وأوفر . وقد توافرت  
لشكري مقطوعات وأبيات في هذه الطبقة من بلاغة الأداء .

وكان خليقا ان تتوافر له في كل ما نظم لولا ان التفاوت  
طبيعة في أعمال العباقرة والموهوبين ، ولولا أنه كان قليل  
الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح يرسل شعره ارسالا كما  
قال :

أرمى بشعري في حلق الزمان ولا

أبيت منه على هم ويلبال

ولكنه - على قلة احتفائه بالتنقيح - قد خلص له من  
جيد الشعر ما يسلكه في عداد المجددين من نخبة الشعراء  
وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل السرائد الذي  
سبق زمانه في عدة حسنتات مأثورات فهو من أسبق  
المتقدمين الى توحيد بنية القصيدة والى التصرف في القافية  
على أنواع من التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن  
واحد ومقطوعات متعددة القوافي، ونظمها مزدوجات وأبياتا  
من بحر واحد بغير قافية ملتزمة، وأثر في تجاربه الاخيرة ان  
يلتزم القافية مع تعديدها في مقطوعات القصيدة الواحدة ،  
وتسنى له في جميع هذه المناهج ان ينظم الكثير من القصص  
العاطفية والاجتماعية قبل ان يشيع (1) نظم القصص في  
أدبنا الحديث وله فيها قصيدة اليتيم التي يقول فيها :

وما اليتيم إلا غربة وههانة

وأى قريب لليتيم قريب ؟

يمر به الغلمان - مثني وموحدا

وكل امرئ يلقى اليتيم غريب .

يرى كل أم بابنها مستعزة

وهيات لا يحنو عليه حبيب .

---

(1) لعل شاعر الاقطار العربية خليل مطران قد سبقه الى ذلك .  
ففي ديوانه الذي صدر في سنة ١٩٥٨ قصص شعرية نُظمت قبل  
سنة ١٨٩٧ م

إذا جاءه عيد من الحول عاده  
 من الوجد دمع هائل ووجيب  
 كان سرور الناس بالعيد قسوة  
 عليه تريق الدمع وهو صيب  
 عزاءك لا يلهم بك الضيم اننا  
 يتامى ولكن الثقاء ضروب  
 فهذا يتيم ناكل صفو عيشه  
 وذاك من الصحب الكرام سليب

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها على  
 نماذج شعره في هذا الباب ، اذ كانت من اسباب وجوده  
 الذي لزمه من مقتبل شبابه وكان من دواعى هذا الوجود  
 ان هذه القصيدة اختارها الأستاذ محمد امين واصف فى  
 كتاب من كتب المطالعة مستحسنا لها ، موصيا بحفظها ، من  
 دون ان يذكر اسم صاحبها ، فكان هذا الاغفال مما ألم  
 الشاعر أشد الايلام لانه كان يفهم - كما قال لنا - ان يغفل  
 ذكره لاستهجان شعره ، فاما ان يكون الاغفال حتما عليه  
 مستحسنا ومستهجانا فذلك كنود عجيب

ولقد كان بعض الانصاف خليقا ان يلفظ من وحشة  
 الشاعر التى لازمته منذ بواكير شبابه ، ولكن التواطؤ على  
 نكران فضله بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن  
 ليصبر عليها طويلا ، مع ما فطر عليه من الحس المرهف  
 والملل السريع

ففى نحو العشرين نظم شكرى هذه الابيات :

لقد لفظتنى رحمة الله يافعا

فصرت كأتى فى الثمانين من عمري

وحاول منى الهم صبيرا فلم ازل

ادافعه حتى ابحت له صلبرى

وانى لادرى ان فى الموت راحة

وأجنبه حتى كانى لا ادرى

ولولا تقى لا يملك اليأس صرفه

لاوردنى ياسى على المسلك الوعر

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهذا

التردد بين اليأس والرجاء لا يدرى ما يدافعه من خيبة

فى حياته الادبية ولا من خيبة فى حياته الوجدانية ،

وكلها اثقل وامض من ان تطاق فى حالة السليم الجليد

فلما اطبقت عليه العلة الوبيلة - علة الشلل - ران عليه

وجوم الابد قبل الهرم وقبل الموت فترك الدنيا ومن فيها

وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول انه تركها غير مأسوف

عليها ..

### شكرى الناثر

والشاعر الناقد ( شكرى ) كاتب ناثر على اسلوبه

ومنهجه فى السهولة والسلاسة وقلة الاحتفال بالتنقيح

والتجميل ، لكن نشره شعر ، ونقده لا تقراً مثله لشاعر

غير ناقد أو لناقد غير شاعر

ومن مؤلفاته النثرية كتاب « حديث ابليس » وكتاب

« الاعترافات » وكتاب « مذكرات مجنون » عدا فصوله

المجموعة فى كتاب « الصحائف » وكتاب « الثمرات »

وطابعها الغائب عليها جميعا انها وحى نفسه الذى لا يشبهه

فيه كاتب يطرق هذه المعانى والاغراض ، فهى « شكرية »

فى كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد

يميزها اللفظ المسترسل ، كما يميزها لون الفكر والوجدان

يقول من فصل له عن هيبة الحياة وهيبة الموت :

« انا اذا اغرينا الناس بان لا يهابوا الحياة خفنا ان

يغريهم ذلك بأن يغالوا في حب الحياة حتى يجبتوا . . .  
 وإذا نحن اغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا ان يدفعهم  
 ذلك الى كره الحياة والرغبة في التخلص منها فخليق بنا  
 ان نحثهم على ان يجعلوا بين الرهبتين موازنة كي لا ترجع  
 احدهما . ولكن الانسان لا يملك صحة نفسه وسقمها . .  
 فان وراء رغبته في صحة نفسه عوامل لا يملك لها دفعا  
 مثل الوراثة والتربية والبيئة فاذا تحالفت هذه الاسباب  
 على اسقام نفسه بأن تجعله جباناً امام الحياة ، او جباناً  
 امام الموت ، كان ضحية لها ولا تنفعه نصيحة الناصحين  
 شيئا »

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تجده في هذه  
 الملاحظة من استيحاء شعوره وفكره والاستفادة من مراقبته  
 لنفسه ولغيره . ثم ارسال التجربة على الورق كما يرسل  
 الحديث في مجلس السمر عفوا بلا كلفة ولا مراجعة بين  
 مصدره من النفس ومورده من التعبير

ان « عبد الرحمن شكرى » شاعر ناثر نسيج وحده في  
 فنه . ومن توحد في هذا الفن اننا نتلقى تعبيره من  
 « شخصية » فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وان جال به  
 الفكر اللماح والاطلاع الواسع في كل مجال

ولقد عرف الناس معرفة أحزنته اشد من حزنه لجهلهم  
 اياه، فان عادوا فعرفوه فلعلمهم يرضون أنفسهم بارضائهم  
 تذكراه . . .

## هؤلاء حادثتهم

نشأت وليس أحب الى من الاطلاع على تراجم العظماء ،  
ولكننى على فرط شغفى بالاطلاع على تراجمهم لم أشعر  
قط نحوهم بذلك الشعور الذى يغلب على كثير من الناس ،  
وهو شعور الميل الى رؤيتهم والاتصال بهم ، ان كانوا من  
الأحياء . وقد يتفق لى ان أقرأ عن أحدهم او أقرأ له  
كثيرا من الأوصاف والآراء ، ثم يصل الى مصر وتتاح لى  
فرصة لقائه ، فلا اكره لقاءه ولا اخف اليه ، ولكننى  
استطيع ان أفرض انه لا يزال فى بلاده دون أن يكلفنى هذا  
الفرض أقل عناء

انى أحب غاندى وأكبره ، وقد عبر بمصر فى طريقه  
الى لندن ، وارادت صحيفة البلاغ أن تندبنى للقائه  
والتحدث اليه ومصاحبته فى السفر من السويس الى بور  
سعيد ، فلم أنشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأننى أزداد  
معرفة بالرجل او اكبارا لقدره اذا قضيت معه هذه  
الساعات

ومرجع ذلك فيما أظن الى أسباب شتى : منها اننى  
تعودت أن لوى العظماء والمشهورين فى غير « هالتهم »  
التي تضى عليهم ما تضى من الغرابة ، وتثير فى نفوس

الناس نحوهم حب الاستطلاع أو حب الاستشفاف من وراء الظواهر والمراسم . وقد تعودت ذلك لآلتي نشأت في أسوان حيث كنا نرى في كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة والساسة ورجال الأعمال ولكننا نراهم على أبسط ما يكونون من البساطة ، فيرتفع عن أبصارنا غشاء الغرابة الذي يحيط بهم ويغري الأنظار بالتطلع اليهم ، وتقدرهم من بعيد كما تقدرهم من قريب كانت الصحف والانباء البرقية تتحدث عن ملنر وكشنر ، وكان اهل أسوان يرون ملنر في قهوة بلدية أكثر روادها من الحمالين والتراجمة والاكابرين ويرون كشنر على دكة خشبية امام بيت من بيوت مشايخ العرب وكان علماء الارض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة في بعوث الكشف والتحقيق يقدون الى أسوان أحيانا فيزوروننا في المدرسة ونزورهم ، ونألف أن يكون كبار العلماء أناسا مألوفين ذلك سبب من أسباب

أما الاسباب الأخرى فمنها حب العزلة الذي ورثته وطبعت عليه ، ومنها اننى اتطلع الى معرفة العظمة حقيقة لاصورة ، واحسب ان رؤية لحظة او لحظات لا تعرفنى بالعظيم ان لم تعرفنى به قراءة يوم أو أيام

لهذا لم أنشط كثيرا الى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لى الفرص للقائهم ومحادثتهم ، ولم اتوسل بعملى فى الصحافة الى محادثة أحد منهم ، الا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوى الاخطار

فحادثت أحمد مختار الغازى ، وحادثت سعد زغلول وحادثت اميل لودفيج ، وكان باعث الحديث فى كل مرة

سببا غير حرب الاستطلاع من جانبى او ارضاء المستظلمين  
من جمهرة القراء

### احمد مختار باشا الغازى

ومختار الغازى كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل  
من الابطال العسكريين الذين اشتهروا فى حروب روسيا  
والدولة العثمانية

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة وارادت الدولة  
العثمانية ان تنيب عنها فى مصر مندوبا ساميا  
ملحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته - فقط - ان يوازن  
مركز المندوب البريطانى بما فى يديه من السيطرة  
والنفوذ ، فاخترت مختارا لهذا المنصب ، وعرف فى مصر  
باسم القوميسير

ولم يكن له عمل فى السياسة المصرية ، بل كانت كل  
أعماله من قبيل التشريفات وحضور الصلاة فى يوم  
الجمعة مع أمير البلاد

ولكنه كان يسأل : « ماذا تعمل فى مصر ؟ » . فكان  
يقول : « أننى أحتجاج حى على وجود الاحتلال »

ولما خطر لى ان احادثه كان هذا الخاطر فى الواقع  
« شيطنة شباب » . . لاننى اردت ان انقل باسم هذا  
الرجل الجريء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان  
المحمل المصرى قد تعرض يومئذ لهجبة من هجمات الاعراب  
فى طريقه الى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولايسة  
عثمانية . فليس اجدر من القوميسير العثمانى بأن يسأل  
عما جرى فيها ، وبخاصة حين يجرى لاناس من احتجاج  
المصريين فى حماية فرقه مصرية



كان مختار الغازى ضئيل الجسم قصير القامة ، ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل فى عينيه نار متوقدة . فلما تحدثت اليه لم يتحفظ ولم يبال ان يقول كل ما عن له ان يقوله عن اهمال الانجليز للقوة العسكرية المصرية . ولا أذكر تفاصيل حديثه اليوم ولا بتسر لى أن أبحث عنه فى مراجعه لنقله بنصه ، ولكننى اذكر انه قال : « ان الانجليز اهملوا جيش مصر ، واننى بهوة كهوة المحمل افتح الجزيرة العربية ! »

وكنت اكتب يومئذ فى صحيفة الدستور لصاحبها الاستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك . فلما رويت له ما سمعت من الغازى ابتسم وقال : « انك لا تذكر حادثة الحدود . . فان كلاما اقل من هذا الكلام قد اثار الانجليز على أمير البلاد . فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به وبمركزه فى الديار المصرية ؟ »

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس الى ما قيل قد اقام الدنيا وأقعدها فى الدوائر الانجليزية ، واحسبه كان من اسباب سعيهم الحثيث فى نقل الغازى والمساومة على مركزه فى الاستانة

## سعد زغلول

وحديثى مع سعد زغلول خليق ان يشار اليه ، لانه فيما اعتقد كان اول حديث لصحفى مصرى مع أحد الوزراء المصريين

ونحن فى العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والاسبوعية فلا يفوتنا حديث وزارى فى عدد من اعدادها المتلاحقة

لقد اصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا

ابلد مادة صحفية دائمة ، وموردا ميسورا لكل قاصد  
ولكن صحف مصر قد عبرت في الجيل الماضى سنوات  
بعد سنوات ، دون ان يسمع فيها صوت « ناظر » من  
النظار كما كان الوزراء يسمون فى ذلك الحين

لان النظار كانوا فى عزلة عن الرأى العام ، وكان الرأى  
العام فى عزلة عنهم ، فلا يجسر احد منهم على الافضاء  
بحديث عن سياسة « نظارته » الى جمهور المصريين

\*\*\*

وعلمت ان سعدا رحمه الله ناظر ولا كالنظار ، وانه  
لا يبالي ما يباليه زملاؤه من غضب قصر الدوبارة او غضب  
المستشار

فأردت ان احطم هذا السد بين الوزارة المصرية والامة  
المصرية ، وهمنى ان احادث سعدا على الخصوص لاننى  
كنت اعجب به واترقب لمصر نهضة وزارية على يديه ،  
وكان فى تلك الايام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه ،  
وكننت اعلم انها جائرة . لانهم زعموا انه حارب الجامعة  
وهو الذى رصد لها عشرة الاف جنيه فى ميزانية الدولة ،  
وزعموا انه حارب التعليم باللغة العربية وهو الذى دفع  
الطلاب دفعا الى مدرسة المعلمين ، وجعل لهم مرتبات  
شهرية وهم فى سلك الدراسة ليخرج منهم اساتذة يعلمون  
الدروس باللغة العربية ، وزعموا انه مالا الانجليز على  
تقييد التعليم وهو الذى كان يطوف البلاد من أسوان الى  
رشيد لمحاربة الامية بتعميم المكاتب الاولى

فاتخذت من حديثى معه وسيلة لدفع هذه الشبهات  
بالاسانيد الرسمية ، وحصلت فعلا على تلك الاسانيد ،  
ورأيت بعينى ما يثبت لى صدق ما ظننته فى عزيمة سعد

واحتفاظه بكرامته وكرامة منصبه ، لان المستشار العنيد - دانلوب - جاء يستأذن فى عرض اوراق عليه • ولم يكن مستشار أنجليزى يستأذن فى عرض اوراق • بل كان ينظر فى كل مسألة بنفسه ويعرض ما يساء من ذلك على الوزير للتوقيع

نشرت حديثى مع سعد فى شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة الدستور ، ولم احادث سعدا باقتراح من الاستاذ الجليل صاحب الصحيفة ، ولكن الاستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين يعرفون حرية النشر ، وكثيرا ما خالفته فيما اكتب وانا يومئذ فى مطلع حياتى الصحفية ، وربما ذهب فى مسألة من المسائل الى رأى وذهبت الى غيره ، فلا يرى حرجا فى نشر ما اكتب كما أراه

### اميل لودفيج

اما اميل لودفيج فلم يكن لقاتى له عملا صحفيا ، ولا أنا أردت ان القاه لانشر ما يجرى بينى وبينه من الاحاديث ولكنه حضر الى القاهرة فأقامت له المفوضية الالمانية حفلة استقبال فى دار وزيرها ، واحب ان يتعرف لهذه المناسبة الى اناس من المشتغلين بالادب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت احد المدعويين

وتصافحنا فى مزدحم من الاجانب والمصريين والرجال والسيدات • فقال لى انه يود لو تلاقينا فى فرصة اخرى

وكان صديقى الاستاذ محمود اندسوقى سكرتيراشرقيا للمفوضية الالمانية فدعانا معا الى اللقاء فى حجرة من حجرات المفوضية وآثر لودفيج ان نتحدث على انفراد واحسست من اسئلته الاولى انه ينزع فى مسائل

المجتمع والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت اننى  
أوافق الاشتراكيين فى كل ما يؤدى الى تحسين احوال  
الفقراء والاجراء ، واخالفهم فى كل ما يؤدى الى حرمان  
الفرد حريته الفكرية والشخصية

فقال : « حسن . حسن » وكررها مرات

ثم احسست انه قد اطمأن الى بعد لحظات من الحديث  
وتبادل وجهات النظر ، لانه افضى الى بأصرح ما دار بينه  
وبين المصريين والاجانب من الاحاديث العامة فى المسائل  
الوطنية والعالمية

ثم سألتى : « عندكم فى مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة  
وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى ، فأياها يكون نه التغلب  
فيما تظن ؟ »

قلت : « أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الطويل »

قلت : « سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم »

قال : « يسرنى ان اسمع منك ذلك »

\*\*\*

واستطردنا الى الكلام عن مؤلفاته فوجدته اقل ما يكون  
رضى عن قصصه ، واكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا  
سيما ترجمة نابليون فيما اذكر ، فقلت له ايضا : « يسرنى  
ان اسمع منك ذلك ، لانه هو الصواب فيما اراه »

وتركته وفى نفسى اثر من لقائه يقارب الاثر السنذى  
استخلصته من قراءة كتبه ، وهو انه صحفى راق ، وان  
تواريخه وادبياته اقرب الى تبليغات المجلات او تعليقاتها ،  
وان كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث

والدراسات ، لانه يكسوها طلاوة لا نجدها كثيرا فى تلك  
البحوث والدراسات

## برناردشو فى أسوان

شمس ربيعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل  
فى كل بقعة من بقاعها ساعات التاريخ الذى يطوى الفصول  
والسنين ، ونيل خالد وقور يوحى اليك أن تقيسه  
بألوف العهود والاجيال ولا تقيسه بألوف الفراسخ  
والاميال ، وجبال من حولك كأنها أسوار تدور على  
صومعة ناسك لا تراه بالعينين ، أو كأنك تسمعه بأذنيك  
يقول فى سكينته الابدية : « ها أنا ذا لم احفل بشيء فى  
دنياك فماذا أصابنى على مر الزمن ؟ لا شيء .. فلا تحفل  
يابنى بشيء ! » ..

تلك هى أسوان فى هذا الشتاء ، وفى كل شتاء ، وتلك  
هى أسوان التى اقضى فيها بضعة أيام ، وفى وسعى ان  
اقول بضعة قرون حين تفمرنى بتلك الافاق التى لاتعرف  
حساب الايام ..

اجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنا الصاحب فى غير  
طائل ..

وهل فى العالم من يستغنى عن هذه الاجازة من سنة  
الى سنة أو من حين الى حين ؟ ..

ساء حظه ان أستغنى عنها ، لانه لن يستغنى عنها الا  
إذا أضاع نفسه فيها

ولقد سن لنا الله سنة الاجازة من الحياة كلها فى كل  
يوم ، فهل نستغنى عنها فى هذا الشغل الشاغل الذى  
يبغض الحياة الى نفوس الاحياء ؟ ..

معاذ الله خالق النوم لنا « اجازة يومية » من الحياة ،

وليته خلق للحيوان « السياسي » بالطبع كما يقول  
ارسطو - اجازة قهرية ينام فيها عن سياسته .. فان  
غفلة النوم أروح له من هذه الغفلة الدائمة وهو  
سهران !..

وبحمد الله لا زال اعرف هذه الاجازات ، وان لم اكن  
في بطالة ..

الا يقدر اناس على الغفوة بعد الغفوة وهم في وسط  
الحركة والضجيج ؟ .. بلى يقدرون ..

\*\*\*

وفي وسط الحركة والضجيج ، بل في وسط المعمة  
كما كان يفعل نابليون على ظهر جواده ، أستطيع أن أغمض  
عيني في عالم الاحلام فأذهب في اجازة اليوم أو الشهر  
أو العام ..

واننى في تلك الغفوة لا يقظ ماكون ..

لاننى في تلك الغفوة أهيم في احلام الشعر والفسن  
والادب ، فلا تقوى معركة « المارن » نفسها على اخراجى  
من ديوان شعر أو صفحات كتاب أغلق « ابوابه »  
على !

وقلت : هي اجازة في كتاب ، حين قلت لنفسى : « الى  
اسوان .. الى اسوان ! »

لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، واحسن ماقيه  
أن كاتيه هو الفيلسوف « جود » وموضوعه هو الداعية  
المشهور « برناردشو » ..

فالكاتب اعظم من المكتوب عنه في اكثر من ناحية واحدة،  
وهى على الاقل ناحية الفلسفة وناحية الاراء الاجتماعية ..  
وان شئت فقل أيضا من ناحية الاراء السياسية

والمبادئ الدستورية ، وهى اليوم شغل شاغل للصحافة  
والقراء !

\*\*\*

بين دوى العجلات ، ودوى الدعوات ، فتحت الكتاب  
أطوى صفحاته والقطار يطوى الارض « كطى السجل  
للكتب » ، كما جاء فى القرآن الكريم ..

ولم تمض أربعون صفحة حتى وجدت نفسى على ابواب  
البرلمان من طريق اخر : طريق الاراء والنظريات ، لا طريق  
المعارك والازمات ! ..

صاحبنا الفيلسوف « جود » ينظر الى « برناردشو »  
نظرة التلميذ الى الاستاذ ، لان شو كان شيخا يقود الحركة  
الفكرية يوم كان « جود » طالبا ناشئا يتلمس طريقه  
فى مضطرب المذاهب والمعتقدات ..

وصاحبنا « جود » يرشح نفسه للنيابة عضوا اشتراكيا  
مع حزب العمال ، فيكتب الى « برناردشو » مستشيرا  
قبل الاقدام على هذه التجربة .. لانه استاذه فى هذا  
الميدان ، ولانه زعيمه فى النزعة الاشتراكية قبل عدة  
سنين ..

واحسب اننى لو كنت فى موضع « جود » لما استشرت  
الداعية الكبير فى امر من الامور ، لاننى على ثقة انه يخالف  
كل ماتقترحه عليه . فلو كنت عضوا فى البرلمان واستشرته  
فى الخروج منه لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التى  
لامعنى لها ! ولو كنت كاتباً واستشرته فى دخول البرلمان  
لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التى لا معنى لها  
كذلك ..

لان كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى  
له على الاطلاق !

فلا معنى اذن لان تعرض عليه اى اقتراح !  
ولكن « جود » قد اراد ان « يسأل » على ما يظهر مجرد  
سؤال .. ثم لا يعول على الجواب ..

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذى لاشك فيه ..  
قال له « شو » ان الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير  
قليين ، ومنهم « ميل » و « برادلو » و « وب » الذى كان  
عضوا فى الوزارة .. فهل صنعوا شيئا هناك ؟

وقال له ان « تشرشل » لم يكن عضوا فى البرلمان حتى  
الحرب العالمية ، ثم ساقوه الى دائرة انتخابية اخلوها له ،  
لانهم فى حاجة اليه ، فقد كان شيئا مهما قبل ان يرشح  
نفسه للنيابة البرلمانية

وقال له انه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها  
عليه وكرروا العرض مرات ، ثم لم يندم قط على الرفض  
والاصرار ..

وقال له اخيرا : « ان ورق اللعب لا يزال امامك على  
المائدة ، فان شئت فجرب حظك والعب ورقك .. » ، ثم  
تواضع « شو » فى ختام خطابه ، لان التواضع من مثله  
رياضة محبوبة بين « الادعاءات الكثيرة » .. فقال فى شيء  
من الملل : « وهذه على كل حال اراء رجل كان ينبغى الان  
ان يكون ميتا لانه قد بلغ من الهرم اقصاه ! »

ولم ينثن « جود » عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب  
الى استاذه يبلغه انه ماض فى ترشيح نفسه ، فجاءته  
منه تذكرة بريدية يقول فيها : « حسنا .. انك سوف  
تعلم على الاقل شيئا واحدا ، وهو ان تصرف كيف  
لاتعمل ! »

ثم شفعتها بتذكرة اخرى قال فيها : « امض فى عزمك



بكل وسيلة .. فقد تحصل على تجربة مباشرة لا تخلو من  
فائدة للفلاسفة السياسيين »

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل « جود » عن ترشيح  
نفسه لانه لم يرض عن أساليب الاحزاب فى الترشيح ،  
لا لانه عمل برأى الداعية الكبير !

\*\*\*

تلك هى اجازتى فى هذا الكتاب ..

اجازة ، ولا اجازة .. !

اجازة لانها رحلة فى عالم الفكر والنظر ، ولا اجازة لانها  
تعود بنا الى السياسة فى بعض الطريق ..

وهى من هنا خبرة حسنة ، لاننى قد اكون فى اجازة  
والقراء « عاملون » !

وما الرأى بعد هذا فى نصائح « برناردشو » لتلميذه  
الفيلسوف ؟

ما الرأى فى تقديره لعمل الاديب ، وعمل العضو فى  
البرلمان ؟ ..

الرأى الذى لا يتسع فيه الخلاف ان الفيلسوف قد  
يصنع شيئاً فى المجالس النيابية ولكنه ليس بخير ما يصنع  
وانه اذا جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خلىق أن ينبذها.  
بعد ذلك لا محالة لانها تهبط به الى المساومة الرخيصة  
والعود الكاذبة ، ولا ترتفع به قيراطاً واحداً فوق  
مستواه ..

ومالنا الآن ولهذه الظلمات ؟ ..

أن الشمس ساطعة باسمه ، وان مشاهد التاريخ  
ومعالم الخلود من حولنا قائمة دائمة !!

فهلهم الى النور .. !

## لسان اهل باوى

كان فى مصر قبل الثورة العرباىة حزبان سياسيان :  
أحدهما حزب محمد شريف باشا ، والاخر حزب أحمد  
رياض باشا ..

وقد يخطر للقارىء العصرى أن تعريف الاحزاب  
بالاشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة  
لها بالبرامج السياسية ..

ولكن الواقع أن تعريف الاحزاب بالاشخاص كان سنة  
معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الامم البرلمانية ..  
فكان الحزبان المتناظران فى انجلترا يعرفان يومئذ باسم  
حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا  
على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج،  
ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا  
الوزير أو ذاك الوزير ..

كان حزب « شريف » اقرب الى التجديد السريع ..  
وكان حزب « رياض » اقرب الى المحافظة مع التقدم  
فى رفق واتاة ..

وكان اهل باوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من

الاسباب فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه مالا يرضيه ..  
فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب « الشيخ ابراهيم  
الهلباوى » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه  
بتهديد الشيخ الناشئ ، واستطرد قائلا : ان ناظر  
النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة عليه ..  
فضحك الشيخ ابراهيم واجابه ساخرا :  
- انه لا يستطيع ..

فعجب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وهو ناظر  
النظار والحكومة كلها في يديه ؟

وقال الشيخ ابراهيم : وليكن ناظر النظار أو اكبر من  
ناظر النظار : ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين  
والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله . فانه لا يستطيع  
أن يخرب لى بيتا ..

ففرغ العالم المحقق ، وخيل اليه ان المسألة تنتفل  
من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله ! ..  
فصاح بالشيخ الناشئ حنقا : اهذا الذى تعلمتـره  
من جمال الدين ؟ ..

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء  
فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام  
التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين  
.. فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال  
لصاحبنا : « بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه  
من جمال الدين ! » ..

قال الرجل : اعلمناكم الكفر نحن ؟ ..

قال الفتى المتحدلق : بل علمتمونا ان قدرة الله لاتتعلق  
بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ،

وهو انه ليس لى بيت ! ..

على ان تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تمكن تمنعه  
ان يستطيل عليه بمثل هذه الحذقة اذا « حكمت  
القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذى  
كان يجترىء على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس او  
مجالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا  
من تلك الاحاديث او تلك الدروس - وكانت كل احاديث  
جمال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما  
عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ،  
وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولا تمس النفس  
الناطق ..

فقاطعه الهلباوى قائلا : ياخبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟  
فانتفض السيد مفضبا وصاح به : اغرب عنى ايها  
الخبث .. لعنة الله عليك !

والهلباوى الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوى  
الذى عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك ان تلخصه  
فى عبارة واحدة ، وهى انه رحمه الله كان « ذلاقة لسان  
لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها »

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوى فى كل  
ما هو مأخوذ عليه ..

سمعنا عنه قبل ان نراه ، او نسمع عنه ممن رآه ..  
كان اشهر المحامين بين الفلاحين بلااستثناء ، وكان  
من آيات شهرته انها دخلت فى « النكتة المصرية » .. فكان  
الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون  
اذا اشتط عليهم القصاب فى الثمن : والله ولا لسان  
الهلباوى ..

وسمعنا بشهرته كاتباً كما سمعنا بشهرته محامياً ،  
فكان عنوان مقالاته « الى أي طريق نحن مسوقون » يتردد  
على كل لسان ، وكنا نسمع به وان لم نقرأ تلك  
المقالات ..

ثم ادركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول في  
الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة  
الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعني بها « قضية دنشواي »  
التي وقف فيها موقفاً ظل نادماً عليه طول حياته ..

وعن قضية دنشواي قلت في كتابي سعد زغلول : « لقد  
كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ في أسوان ، فأغنى على  
واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج  
تخنقه العبرات »

ويستطيع القارئ اذن ان يتخيل مبلغ السخط الذي  
أثارته في نفوسنا رؤية الهلباوي أمامنا وجهاً لوجه في دار  
الجريدة ، يوم القى الأستاذ « لطفى السيد بك » خطابه  
الذي اشرنا اليه في الكلام على صاحب « المؤيد »

لقد كان اغتباطي شديداً بما أصابه من الاذى في ذلك  
اليوم ، ولكنني أقول انصافاً له أننا رأينا في الرجل شجاعة  
لم نرها في غيره من المقصودين بالهتاف العدائي ذلك  
المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى  
اطمان الى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى الهلباوي  
الا ان يقتحم الجمع خارجاً من الدار في ابان الهياج ، ولم  
يحفل بما تعرض له في طريقه من اللكم والايذاء ..

وغاب الهلباوي زمناً عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد  
الثورة الوطنية معارضاً لسعد زغلول ، وكانت المساجلات  
بين الاحزاب يومئذ على أعنفها .. ولكنني أشهد القارئ

اننى ما وجدت القلم ينبعث في يدي اتبعنا الى القول  
القارص العنيف كما كان ينبعث في الرد على خطب  
الهلباوى واحاديثه ، فردودى عليه فيما اعتقد كانت  
اعنف ما كتبت على الاطلاق ..

ثم مضت الايام ، وشاء القدر ان يكون للهلباوى شأن  
في موقف من اهم المواقف في حياتى السياسية ، لانه  
الموقف الذى اعتزمت فيه جدبا ان اترك الهيئة الوفدية  
مستقلا عن جميع الاحزاب ..

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد  
الوزارة الصديقة التى عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد  
الاحرار الدستوريون اجتماعا في دار حزبهم ، وذهبنا  
اليه تأييدا لمظهر الائتلاف ..

واذا باللهلباوى هو خطيب الاجتماع ..

واذا بي جالس امامه على قيد خطوة واحدة ، واذا  
به يحتال في كلامه ليهملنى عند مناسبة ذكرى ويتجاوز  
الاهمال الى التعريض ..

وعلقت على الخطبة في اليوم التالى ، وراها فرصة  
سانحة لارغامى باسم الائتلاف ..

وجاءتنى دعوة الى بيت الامة حيث يجتمع طائفة من  
اعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس (باشا) ..  
ما الخبر ؟ ..

الخبر - كما قالوا - ان مصر الائتلاف معلق على بين  
مطلوب منا ، ونحب ان نتلوه عليك ..

قلت : وما شأنى في هذا البيان ؟ ..

قالوا : بل الشأن شأنك ، لان فحوى البيان ان الوفد

لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك ..

قلت : انكم احرار فيما تكتبون ، ولكننى سأرد لا محالة على هذا البيان . واقول لكم سلفا اننى انا المسئول عما اكتب ، ولم يعلم الناس قط اننى اكتب باشارة من أحد ..

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من أجل زيارته للاقاليم ، وثار اللورد ثورته التى اوشكت ان تعصف بالبرلمان ، وارسل الى سعد من يقول له ان اللورد يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا ادعيه » ولم يفاتحنى فى الامر حتى انقضت الازمة ، لكى لا افهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع ..

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : لن أسمعه ، ولن اسكت عن الرد عليه ..

فى ذلك المساء زارنى مكرم عبيد ( باشا ) والمرحوم صبرى ابو علم ( باشا ) ، وسألانى : « ماذا صنعت ؟ » قلت : كتبت ردا على البيان سينشر فى عدد القد من جريدة « مصر » - وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت اكتب مقالانى كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : اذا كنت لم أستطع ان أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا اقناعى بوقف هذا المقال .. ثم قلت لهما : اننى املك ان انشره فى غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بينى وبين نشره فيها ..

وكان قد جاءني فعلا من يعرض على العروض الطوال  
العراض لاعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : اننا كنا نود  
لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. اما وانت  
مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر ..

قلت : ما هو ؟ ..

قالا : ان يخلو المقال من الملام الشديد

قلت : اننى اذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا  
حاجة بى الى ملام شديد ..

ومضت سنوات ثلاث او نحوها والهلباوى بك لا يقع  
لى فى طريق ..

وحدثت فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحوم  
عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بينى وبينه حين كنت  
اكتب فى صحيفة « الجهاد » ..

ثم زارنى يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لى :  
لقد مررت بدارك وانا فى مصر الجديدة فحمدت هذه  
الفرصة وقلت لنفسى : فلنزره ان كان هو لا يزورنا ..  
فما رأيك ؟ ..

قلت : انه فضل لك سبقتنى به وعلى ان اشاركك  
فيه ..

وزرته فى دار البلاغ بعد يوم او يومين ، فاذا بالهلباوى  
بك هناك ..

فكلمت اهم بالرجوع ..

بيد ان الهلباوى كعادته هجام لا يتردد ، فيجذب يدي  
وبدأتى بالحديث

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة ان واقعتى معه آخر



ما يذكره في تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل أحب أن يكتب الله لى ثواب اخراجك من تلك الجماعة .. ولكنه فاتنى ، وارك خارجا منها على التسعين .. »

وبعد حديث متشعب دعانى والإستاذ عبد القادر الى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله ..

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة روز اليوسف اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لان الرجل محدث ظريف لا يملهُ المستمع اليه ..

ولقد كانت أحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر .. إلا أننى اذكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعده الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبها الى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام !

نايفة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أفلقتة وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار

## طه حسين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم ان يستخفوا ولا يحفلوا ، لانها ترجع الى اسباب خاطئة في زمانها فضلا عن الازمنة الحديثة ، وليس ادل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز وما لا يجوز ، لانه دليل على كثرة القيود

وأول ضروب التوقر التي يحق للمحدثين ان يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الاحياء وقصر التاريخ والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء انهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والادب والخلق والشهرة . وكأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة في وقت واحد : فاما حياة وخمول واما موت وشهرة ، ولا توسط بين الامرين في تاريخ العلماء والادباء وتقدير حظوظ العلم والادب

.. وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الاحياء . بل كثرت تراجم الادباء لانفسهم باقلامهم ونشرها في ابان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لان ما خف من جانب التوقر انما يزيد الحياة ، ولان اساعة

التاريخ للأحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الإنسانية في جوانب كمالها ونقصها واطرائها وعيوبها ولأن العصر الذي يساغ فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذي تتوافر فيه المزايا والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لانه يعرف حدود الطبيعة الإنسانية وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحبذ والترجيح

ولست أنا من أعداء القديم حيا لعداوة القديم ، ولكنني أكره التحرج الكثير في غير طائل ، وأشاع زمني في هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا في الشناء على الدكتور طه حسين أو اغتيابه على ملأ من الناس . . . ولهذا أجبت دعوة « الهلال » حين دعاني الى اجمال رأي في الصديق العالم الاديب ، وهو يعدني أو يندرنى بمثل هذا النصيب وقيلت الكتابة وأنا أرجو الا اكون مقلوبا حين تنكشف الورقتان المطويتان . اذ الكلام في كلبنا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الفيبة وينجلي السر عن أحسن الحيلة والتخمين

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول اننى شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين اذا أن أفول فيه انه كاتب ناتج في الادب ، وخير مانتجه كتابه « الايام » وكتابه « في الصيف » وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ماجرى له في حياته ، فكان فيهما مثلا في البساطة والثقة التي تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالوصوف في هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكنني لم أطلع على شيء يصف به الدكتور مالم يجز له أو يصف ما يخلقه من الشخوص والحوادث في عالم الرواية . فما علة ذلك ياترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الاديب سيجد عيبا أو عيوباً في

شعري يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره . فاذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الاديب ان علل قلة الوصف المخلوق في كتاباته القصصية بعيب فيه وهو قلة الخيال . . فهو يصف ما يعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاه ، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التي يندر من يحسنها ويشعر بالكفاية التي تأتي من الثقة والاطمئنان الى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستفناء

\*\*\*

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول انه اطلع على الادب العربي القديم اطلعه الواسع الذي لا جدال فيه ، واطلع على نفاثس من أدب الاغريق واللاتين الاقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الادباء الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . كل أولئك خليق أن يحجب اليه الصحة والمتانة والقوة ويغض اليه الزيف والسخف والركاكة . فهو يختار ما يعلو على مقاييس القلدين المصطنعين ، وينبذ ما يستطيه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب الذوق السفيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقه ، واعتماد على فكر لا يتقيد الا بما يرضاه

والى هنا لا اظن ان الدكتور سيعترف لي بأقل من هذا القدر في ميزان الكتابة المنشورة فأنا رابع على هذا التقدير

ولا اظن كذلك انه سيعترف لي في هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدرارك ، فلنسرع اذن الى التعقيب والاستدرارك . ولا لوم ولا اجحاف

فالدكتور صحيح الاصول في النقد ولكنه لا يوفق بين  
اصوله وطبيعته في كثير من الموضوعات  
وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب  
ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحيانا عن الصواب  
وعلة ذلك كما أسلفنا ان القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان  
فالتبيعة عنده لا تحتكم الى الخيال والتصوير الخالق ،  
ولكنها تحتكم الى الراى والاطلاع فيقع من هنا التباين  
والاختلاف

اليس الدكتور يوصى بمبدأ «الشك» او مذهب ديكرت ؟  
بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد  
واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين ، فلا  
يعجب - أكثر ما يعجب - الا اشد الاعجاب ، او اعجابا  
لا حد له ، ولا يقنع بما دون الاسراف وترديد كلمة  
الاسراف ، ولا يفضب الذين يتحدث عنهم الا غضبا  
شديدا ، ولا يضيقون الا اشد الضيق ولا يتكلمون  
الا بصيغة المبالغة في معظم الاشياء .. ثم تنتقل من هذا  
الى تشكيك يذكرك « بأن شاء الله » التي قالها جحا حين  
ضاع المال .. فقال ضاع المال ان شاء الله ...

كان الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من  
تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله ، فانت تسمع منه :  
« أزعم اننى ضحكت » وقد أزعم .. وقد أتردد .. وقد  
أقول وقد لا أقول .. مع ان المرء لو أقسم جاهدا :  
« والله لازعمن » وتالله لا ترددن ، وبالله لا قولن ، لما خرج  
بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك

والقاعدة تستقر على اطراد اذا كانت هي والطبع على  
وفاق غير أنهما عرضة للاختلاف اذا رقع بينهما الخلاف ،  
ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة ان اصول النقد الغربى

واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة ان النقد ليست له اصول مفردة عند الناقد الفرد فضلا عن الامم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وان الناقد يستحسن او يستهجن والمرجع الى ذوقه وحده في استحسانه واستهجانه

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطغ هو الذي جعل الدكتور ينكر الجديد اذا جاءه في زى القديم ، او هو الذي جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها في حكم الطبيعة لانه يجرى في مطالبته على القياس

واقول للقلم : على رسلك ! الى اين ؟ ما أحسبك الا متوقعا الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فانت تستوفي المثل وتامن ان تزيد

ويقول القلم : ما احسبني والدكتور مغلوبين على كل حال في هذه الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب

نعم ، وحساب الدكتور او « رصيده » كما يقولون في لغة المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك

واذا قلت ان الدكتور امن استحسان السخيف من الادب فاختلفك بعد ذلك في زيادة القيمة التي يقوم بها الجيد او نقصها انما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين

\*\*\*

ومن حساب الدكتور طه حسين انه رجل جرىء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدى ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يحجم

عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابي بعد دراسته  
للاساليب الاوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية  
الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل في الكلام  
الاوربي ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة  
في وقت واحد . فهو يتحدث ولا ينسى انه يكتب ، ويكتب  
ولا ينسى انه يتحدث ، وأسلوبه الذي اختاره أوفق  
الاساليب لذلك جميعا وأولها من نوعه في اللغة العربية .  
وليس فيه محاكاة لاسلوب آخر في اللغات الاوربية

ولو كانت كتابته حديثا محضا لاسرسلت بلا توكيد  
ولا تكرير ، ولو كانت تقريرا محضا أو درسا محضا لما  
انحرفت عن أسلوب الكتابة الذي لا يتحدث به القائل ،  
ولو كانت تقريرا أو درسا على الطريقة الشرقية لما ظهرت  
فيها المقاطع والفواصل الاوربية ولجرت على سياق  
قريب من سياق الدروس الازهرية . ولكن كتابته  
حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها الا ذلك  
الاسلوب الذي استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب  
المهتكرون . وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك  
الابتداع ولجل هذا الابتداع يغتفر ما في كتابة الدكتور  
من اسهاب وتكرار

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأي ولم  
تقنعهم المناقشة . فرأوا ان العربية قد تكتب صحيحة  
فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد  
وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كتابا كبيرا يكتبها كما  
يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلذ وتفيد  
فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة ،  
والفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء  
وذلك وحده فتح قدير

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب

العمق كما أشرت الى ذلك في نقدي لكتابه « في الصيف »  
 وليس بالقليل بين أكبر الادباء العالميين من هو قوى  
 لا يتعمق . فاني لاكتب هذا المقال بعد أن فرغت من قراءة  
 مقال للشاعر الاسباني ميچويل دي أنامينو كتبه ليمثل  
 به رأى الاسبان بين سائر الاراء التي نشرتها مجلة  
 « الشهر » الفرنسية عن فكتور هوجو لمضى خمسين سنة  
 على وفاته . فاذا هو يقول ان عمله في اسبانيا على الاقل  
 كان واسعا اكثر مما هو عميق ، وأرجو الا يحسب  
 الدكتور انى أعود به الى التفرقة بين السكسون واللاتين  
 اذا أضفت الى هذا ان شاعر الامة الاسبانية اللاتينية يقرر  
 ان « بيرون » والشعراء الانجليز هم الذين وجهوا ادب  
 تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ،  
 وانه ليقرر ذلك في مجلة فرنسية تحتفل بهوجو في عام  
 ذكراه !

\*\*\*

والان وقد أبرأت ذمتي وأفضيت بمجمل الرأى مع  
 الحيطة والمعادلة والتربص فاني على ما أرجح كاسب  
 ولست بخاسر . فان اختلف تقديري فسماتهم محرر  
 الهلال بافشاء السر واطلاع مناجزى على ما أعددت له قبل  
 ان يتأهب لى بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بينى وبين محرر  
 الهلال



## من وحي أسوان

هبطت أسوان في هذا الشتاء ، وأنا اذكر قول دعبل  
الخرزاعي :

هبطت محلا يقصر البرق دونه

ويعجز عنه الطيف ان يتجشما

وان امرءا اضحت مساقطرحله

بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل في هذه الرحلة خاصة لاننا قضينا ساعة من الوقت في القطار نتحدث عن السفر الى الصعيد بطريق الهواء . ومسافته لا تزيد في هذا الطريق على اربع ساعات ، وقد تنقص غدا الى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد تنقضي ما بين عشية اليوم وضحي الغد . ثم ينتهي الى حيث يستمع السامع اذا شاء الى صوت المتحدث اليه من القاهرة والاسكندرية كما يتبادل الحديث مع جليسه في ناديه ، او يدبر المفتاح في المذياع فيصفي الى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان في الارض عن ابلاغ صوته اليه . اما الاطياف فما اكثرها في دور الصور المتحركة الناطقة هناك ! ان منها لاطيافا تنتقل من هوليوود . واطيافا تنتقل من الجزيرة ، ولا تعجز عن

التجشم ، ولا يبدو عليها أنها تعرف الأعياء كما صرته  
أطياف دعبل يرحمها الله

تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ،  
وما أكسل البروق والأطياف فيما مضى ، وما أسرع  
البروق والأطياف في هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم  
لتمنى ساعة من تلك الأيام التي كان يتبرم بها قبل ائف  
عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون الى المكان الذي  
قصرت عنه أطيافه وبروقه ، ويفبطون أنفسهم على الحزم  
الذي ساقهم الى هذا المقام في خاتمة المطاف

وقصة دعبل في هجاء العالم كله معروفة . أما قصته  
مع أسوان فخلاصتها انه وفد مع أخيه عبد المطلب بن  
عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب  
هجاؤه اياه فأنفذ اليه كتاب العزل مع مولى له وأوصاد  
أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزله ويصعد  
مكانه ، ففعل كما أوصاه !

ذكرت كلام دعبل وذكرت كلام أخ له من قبل في هذا  
المقام . أهو أخوه في النسب يا ترى ؟ أهو أخوه في  
العربية ؟ أهو أخوه في الزمن الذي عاش فيه ؟ كلا . ولكنه  
أخوه في صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه في قومه ولا عصره ،  
لأنه كان من أمة الرومان ، وكان عصره في القرن الأول  
للميلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال Juvenal

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتيني كان كالشاعر  
العربي لا يسلم أحد من لسانه ، وان هجاءه لفنان العصر  
« باريس » قدف به من روما الى جزيرة أسوان ، لأن  
هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دومسيان !

قدم جوفنال الى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية  
في ظاهر الأمر وأسيراً منفيًا في حقيقته ، ولم يستطع أن

يلعن دومسيان فلعن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه في ولايته التي فرضت عليه ، فكذب وأقذع في شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه

قال ان المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا الا عبوده حتى الثوم . وما كان المصريون يعبدون اليوم ولا البصل ، ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذاك فانتفعوا بها في الغذاء وفي العلاج ، وجاء المحدثون في عصرنا هذا فاتخذوا من الثوم عصيرا سموه ماء الحياة

وقال ان المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من اخبار هذه الدعوة أن أناسا من أهل كوم امبو الذين يعبدون التمساح هجموا على رجل من أهل دنبرة قتل تمساحا فأكلوه !

والتمساح ، واسمه هذا منقول من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجيما ملعونا عند آخرين ، أما ان الذين يقدسونه يأكلون لحم قاتليه فتلك هي الفرية التي اتفق المؤرخون على تكذيبها ، وحسبوها « اختراعة » من أفانين الهجاء ، جناها السخط على الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشعره على أبناء كوم امبو الاقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان في خاطر كما يتفقان في المزاج ، فكان جوفنال يعجب لمن يسأله عن سبب هجائه كأنما كان الهجاء عنده أصلا من الأصول التي لا تحتاج الى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة ويسألونه عن قيلت فيه فيقول لهم انها ستجد صاحبها لا محالة ، ويتفلسف فيمضى قائلا : « ان من يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس

كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجد والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك »

فهي طبيعة واحدة في الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نعلمهم فنحكيهم حين يجنون بالسخط على الحقيقة ، فما نحسبهم ظالمين في كل ما تقولوه على الناس ، وما نعلمهم سخطوا بغير حق في كل مقال ، فلعل اصابتم الناس تنفيس عن بعض ما اصابهم منهم ، ولعلمهم شقوا بالعالم كما شقى العالم بهم ، ومن دلائل هذا الشقاء ، ان شاعرا هجاء في اللاتينية وشاعرا هجاء في العربية يرددان معنى واحدا عميقا في دلالة على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال في الالهجية الخامسة عشرة : « ان الطبيعة خلقت للانسان الكريم قلبا رحيفا فاودعت فيه ينابيع الدموع ، وهي اكرم جانب في طوية الانسان »

ويقول ابن الرومي :

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا

الله أدري بلوعة الحسزن

وقد تكون الحاجة الى الهجاء كالحاجة الى البكاء ، في طبائع الشعراء ، فلنقل ان الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم في هذه الخلقة سواء

\*\*\*

وأعود الى دعبل فاقول ان الاعياء الذي ابتليت به اطيافه وبروقه ليست من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبة التي كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو استقر في صعيد مصر ولا هو استقر في صعيد حيث كان وقبل ان ينشط العصر الحديث بأصداء الاثر واطياف الستار الأبيض نظر الشعراء الى أسوان بغير هذه العين

التي تستعجز البرق وتتهم الطيف بالقصور : نظروا اليها  
بعين الرضا فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف  
المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل  
كمال الدين :

أسوان في الأرض نصف دائرة  
الخير فيها والشر قد جمعا

تصلح للناسك التقى اذا  
اقام والفتاك الخليع مصفا

وحسنا ما أراك مبدعة  
تروق الا بأختها شفا

وقد حببت الحياة الى ابنائها حتى قال فيها احد  
هؤلاء الأبناء من الشعراء :

ما الشيب الا نعمة  
مشكورة فاشكر عليه

ما الفين الا أن تمو  
ت وانت لم تبسغ اليه

وقائل هذين البيتين هو الأديب ابراهيم بن محمد بن  
ابراهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها في النبوغ عجب ،  
ومن هذه الأسرة خاله النايفان أحمد بن علي الملقب  
بالرشيد ، والحسن بن علي الملقب بالمهذب ، وكلاهما  
شاعر مشارك في العلوم يدل كلامه على علمه كما قال  
الرشيد :

ولن يستفيد البدر اكمال نوره  
من الشمس الا وهو في غاية البعد

او كما قال المهذب في وصف ليلة :

لو لم تكن نهرا لما عامت به

أبدا نجوم الحوت والسرطان

نادمت فيها الفرقدين كأنني  
دون الورى وجديمة اخوان  
وترفعت همى فما أرضى سوى  
شهب الدجى عوضا من الخلان  
او كما قال :

لا ترج ذا نقص وان أصبحت  
من دونه فى الرتبة الشمس  
كـيـوان أعلى كوكب موضعا  
وهو اذا انصرفتة نحس  
وكانا لهذا مبلوين بالحساد والأضداد ، ولا سيما  
الرشيد الذى قيل عنه انه تطلع الى الخلافة ، وكان  
يقول عن نفسه انه خلق من نار . فقال فيه ابن قادوس :  
ان قلت من نار خلق

ت وفقت كل الناس فهما  
قلنا صدقت فما الذى  
أطفأك حتى صرت قحما  
وقال فيه شاعر يمنى ، وكان الخليفة قد أوفده الى  
اليمن داعيا وسماء علم المهتدين ، فحسده أدباء اليمن  
وقال فيه أحدهم :

بعثت لنا علم المهتدين  
ولكنه علم أسود !  
ولكنه كان لا ينظر الى الحساد نظرة الأقران والانداد ،  
وقال فى أمير رجاه فخيب مناه :  
لئن خاب ظنى فى رجائك بعدما  
توهمت أنى قد ظفرت بمنصف  
فانك قد قلدتنى كل منة  
ملكته بها شكرى لدى كل موقف

لأنك قد حذرتنى كل صاحب

وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يقبى

عليهم رحمة الله جميعا من ظفر بالانصاف ومن فاته

انصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس ، فقد بقى

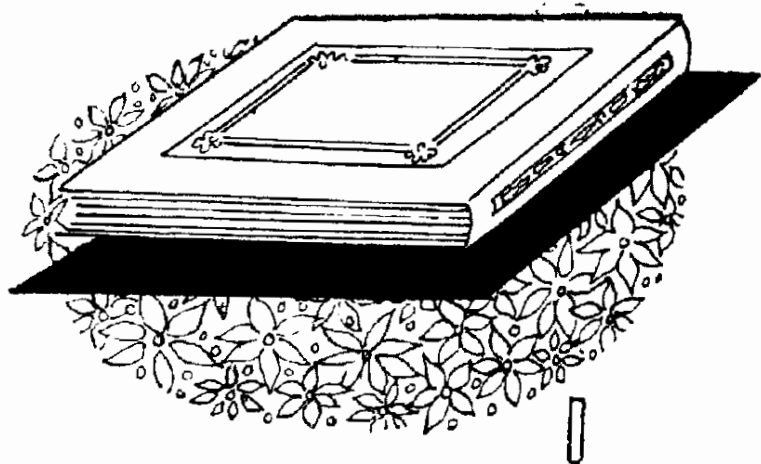
بعدهم وحى اسوان ووحى الزمان كما كان ، وكذلك

يبقيان ! ٠٠

# في أرض الميعاد

الفصل

العاشر





## قصة المدينتين

قلت لبعض الاخوان الفلسطينيين ان الله انعم عليكم بحرية الاختيار في امر واحد ، ولعله قال حسن وبشارة صادقة بنعمة اخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية .. (1)

انكم تملكون اختيار الاجواء والاهوية في كل فصل من فصول السنة ، وترجعون الى حسابكم انتم لا الى حساب الافلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا في الشتاء ..

فنحن في مصر ننتظر ثلاثة اشهر او اربعة لنشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون الى هذا الانتظار الطويل ، لان ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو الى برودة نوفمبر او يناير في بعض الجهات،

---

(1) قام امام البيان الاستاذ عباس العقاد بهذه الرحلة في صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه الفصول التي تناولت حالة فلسطين المدنية والسياسية والاجتماعية في ذلك الحين . وقد اشار فيها الى ما يجب على العرب عمله قبل ان تقع الكارثة

هـندكم المكان الذى يتذكر فيه السمار معاطفهم اذا طالت  
السهرة كما تطول ابدا في ليالى الربيع .. وعلى مسيرة  
ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم في ابرد ايام  
الشتاء ، وقد اوحى مكان من هذه الامكنة نفمة الفكاهة  
الى قائد من قواد الحرب وهو في ميدان القتال ، فكتب  
منه اللورد اللبى الى وزارة الدفاع البريطانية برقية  
يصف بها احدى المعارك في ايام الحرب العالمية الماضية  
فقال : « حلفت طائراتنا هذا الصبح تحت سطح انبحر  
الابيض المتوسط بستمائة قدم ، ولاحقت العدو عند  
أريحا من هذا الارتفاع ! »

وقد كان الحر هذا العام على أشده في شواطئ البحر  
الابيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته الثقيلة حين تركنا  
الشواطئ وارتفعنا الى هضاب رام الله أو « رام ايل »  
الفيحاء ، ولكننى لم أندم على قضاء معظم ايامى في  
فلسطين بين الشواطئ حيث تفرط الحرارة والرطوبة  
هذا العام على خلاف المؤلف فى السنوات الماضية لاننى  
لمست فيها عن كذب ذلك الصراع العنيف الذى احسبه  
أعجب صراع بين مدينتين متجاورتين فى تاريخ المشرق  
أو فى تاريخ العالم بأسره ، وهو الصراع بين مدينة يافا  
ومدينة تل أبيب ..

ان المدينتين متجاورتان تقيمان فى مكان واحد ، حتى  
ليبدأ الشارع أحيانا فى يافا وينتهى فى تل أبيب ، ولكن  
السباق بينهما سباق بين أقدم ميناء على شواطئ بحر  
الرومّ وأحدث ميناء عليه .. أو لعله أحدث ميناء على  
جميع شواطئ البحار

كانت « يافا » علما مشهورا فى التاريخ القديم قبل  
نيف وثلاثين قرنا من الزمان ..

وكانت « الاسكندرية » جنينسا في الفيب يوم كان سوفكليس ويوريديس وغيرهما من شعراء اليونان يتفنون بجمال « يافا » وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة « اندروميد » التي ربطها الارباب الى صخرة الشاطيء عقابا لها على رفض البناء بخطابها السماويين!.. ثم مازالت حتى نجا بها القدر من وحش البحر وهو راصد لها ليفتالها .. فأصبحت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء ..

ولا نحسب ان مدينة في الشرق الاذننى عرض لها من تعاقب السعود والنحوس ما عرض لمدينة « يافا » في جميع الدول وعلى جميع العهود ..

فعمرت وخربت مرات على أيدي البشر ، وعلى أيدي الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التي تداولتها من عهد تحوتمس وسنحاريب ، الى عهد العرب والصلبيين ، الى هذا العهد الذي لا يحسب في تاريخها من العهود الرخية الميمونة ، وان كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لانها قد صمدت في تجاربها الكثيرة لما هو أقسى واصرم من تجارب العهد الذي هي فيه الآن

كانت « يافا » تعول في معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع والشراء ...

فأصببت في جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد في سبيل البقاء فالموالح والثمرات التي عرفت باسمها من قدم الزمن لا تلقى اليوم في الاسواق القرية ذلك الترحيب الذي تعودت ان تلقاه الى زمن غير بعيد

والصناعة - وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون  
- قد منيت بالمزاحمين الأقباء في تل أبيب وما وراء تل  
أبيب من بلدان الشرق الأدنى

أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن إلى ميناء حيفا  
الذي انتهى إليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو  
إلى ميناء تل أبيب الذي بناه مجلسها البلدي ومد إلى  
جانبه ذلك « الكرنيش » الطويل محاكيا به كرنيش  
الإسكندرية في كل شيء .. حتى في « الأذرة الشامية »  
التي تشوى أو تعلق على زواياها ومنعطفاته ، ويقبل  
عليها المتزهون والمتزهات إلى أواخر الليل !

فهى اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أليم ،  
وحسبك من مدينة تفجع في مواردها جميعا ولا تزال  
ناهضة على قدميها في إباء المناضل المستميت

\*\*\*

إلى جانب هذه « الشيخة » العسبور فتاة ماكرة  
لعوب تتيه عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب ..  
تلك مدينة تل أبيب ..

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، إذا نظرنا إلى  
مولدها الصحيح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز  
السادسة والثلاثين إذا نظرنا إلى نشأتها في عهد الدولة  
العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تستعين  
بالدعاية الإسرائيلية في مقاومة روسيا ودويلات البلقان ،  
ولم تكن نشأتها يومئذ نشأة مدينة تزخر بالمكان  
وتحتوى من الوافدين عشرات الألوف ، ولكنها كانت  
روضة للنزهة وقضاء ساعات الاصيل في أيام الصيف  
والربيع ، ولهذا سميت « تل الربيع » حين غرسوها في  
أول عهدها بالظهور ..

كذلك نشأت منذ نيف وثلاثين سنة على غير حذر من  
هواجبها السريعة لا من جانب الراعى ولا من جانب  
الرعية ...

اما اليوم فليست هى تلك الروضة البريئة التى  
يتنسم لديها اهل « يافا » نفحات الغروب من نسيمات  
الربيع ..

ياله من صراع عجيب بين شبيخة الامس وفتاة  
اليوم ..

وانه لصراع ظالم اذا ترك فيه الندان منفردين على  
النحو الذى نراه ، لان « يافا » تقف وحدها هناك ولا  
تقف « تل ابيب » وحدها فى ميدانها .. بل تقف هنالك  
ومن ورائها أمة موزعة بين جميع انحاء العالم تعينها  
بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، وأخفى ما يعرفه  
المال من الاساليب ، وأقوى ما تسيطر عليه السياسة من  
الخدع والاحاييل ..

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذى يستهدفون له  
ولا يجهلون ان الاساليب القديمة لن تجدى وحدها فى  
اتقاء هذه المنافسة التى تعزز بأحدث ما عرفه الناس من  
ضروب التعمير والاستقلال ..

فقد علمت من مدير المجلس البلدى بمدينة يافا انهم  
يعدون العدة لبناء الكرنيش الذى يضارع كرنيش تل  
أبيب ، ولتنظيم الطرقات التى لا تزال بحاجة الى  
التنظيم ..

وعلمت انهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم  
وناد حديث يستغنى بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد  
الفنادق والاندية فى تل ابيب ..

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير  
ينبغي الشروع في انجازه قبل أن يطول التفكير فيه . .  
ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تذكر في هذا الصدد  
قبل كل حقيقة أخرى ، هي أن مدينة « يافا » لن  
تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلا بد لها من  
هون سريع كالعون الذي ترجع إليه غريمتها ، ليجرى  
الأمر بينهما على سنة الانصاف ، ويرجى منه اتقاء  
الهزيمة في هذا النضال

## الصهيونية والجامعة العربية

إذا عبرت « تل أبيب » رأيت في أكثر أوقات النهار زحاما يملأ جوانب الطرق من اليمين والشمال ، وخيل اليك ان القوم منصرفون من محفل أو مقبلون على اجتماع في منعطف الطريق ..

لان حركة المرور لا تنقطع في « تل أبيب » من ساعات الصباح الباكر الى ما بعد العشاء ..

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لأنك لا ترى فيه أحدا يلوى على أحد ، ولا تكاد تلمح انسانا يوميء الى انسان آخر بالتحية ، الا في العرض النادر الذي يرجع الى محض الاتفاق ..

واعجب من ذلك انك تنظر الى القوم فلا ترى على وجوههم ما يدل على السعادة : سعادة الظفر بالامنية الروحية والمطلب التراثي القديم .. فلا تملك ان تسأل نفسك : ما هذا ؟ أهؤلاء قوم يهبطون الى أرض الميعاد بعد التفرق في جوانب الارض مئات السنين ؟ ..

وتتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصراني في معاهد المسيحية المقدسة ، فلا ترى على وجوه القوم في « تل أبيب » شيئاً من دلائل تلك الاخوة الروحانية التي تفيض على وجوه الحجاج من جميع الاديان ، ولا يقع في نفسك

الا ان القوم مسوقون الى هذه الحجة الموعودة ، وان  
الذي وجدوه هنالك غير الذي آمنوا به وصدقوه ..  
وما في الامر من غرابة اذا رجعت الى الواقع ، او  
رجعت الى المعقول ..

اذ كانت حجة اليهود الى ارض الميعاد غير الحجة الى  
عرفات او الى كنيسة القيامة او ماشابها من مناسك  
الديانة المسيحية ...

فان المسلمين والمسيحيين يقضون مناسك الحج  
ويعودون الى اوطانهم التي نشأوا فيها والقوا معالمها ..

اما اليهودي حين يهجر بلاده الى الوطن القومي  
بفلسطين ، فانه يترك وطنه الذي نشأ فيه والى معالمه  
ليستتبت نفسه في وطن جديد .. ولا يفعل ذلك الا  
بدافع قوى من الامل في تحسين الأحوال ، او بدافع قوى  
من الحماسة الروحية .. فليس من شك في ان اليهودي  
الناجح في وطنه - الاوربي او الامريكى - لن يهجر ذلك  
الوطن ليسأنف الحياة زارعا أو بائعا في ناحية يجهلها  
من ارض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد  
يمنيه به الزعماء الصهيونيون ، بالفا ما بلغ به الايمان  
بوعود صهيون ...

ولنذكر ان اليهودي قد الف العمل في التجارة  
والصفقات المالية ، ولم يالف العمل في الزراعة وتربية  
الدواجن وما اليها من اعمال الفلاحة ورعى الحيوان ..  
فهو لا يقدم على تبديل مألوفاته الا اذا اتفق الشظف  
والتعصب والامل في المجهول على اقناعه بالهجرة  
وامدادته بالبواعث النفسية التي تساعد على هذا  
التبديل .. وقلما تعمر هذه البواعث الى زمن طويل ..  
والذي نعتقه ان « النقلة الصهيونية » هي نقلة  
مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التي أشرنا



اليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية  
الزعماء واضطهاد الطوائف الاسرائيلية في اوربا الوسطى  
واوربا الشرقية .. ولولا هـذان العاملان لبقيت  
الصهيونية حيث كانت املا من آمال الخيال ..

\*\*\*

ظهرت في الايام الاخيرة مذكرات اللورد « هريرت  
صمويل » الذى كان اول مندوب سام على فلسطين من  
قبل الدولة البريطانية ..

وهو سياسى فيلسوف ينتمى الى أسرة اسرائيلية  
كبيرة فى البلاد الانجليزية ، ويتكلم بكثير من الصراحة عن  
موقف زعماء اليهود من اندعوة الصهيونية عند ظهورها  
واشتدادها فى اعقاب الحرب الماضية . ومن هذه المذكرات  
يتبين لنا ان ثلاثة من عظماء اليهود الانجليز الذين  
شاورتهم الحكومة البريطانية فى اعلان الوطن القومى  
بفلسطين كانوا معارضين لاعلانه متشائمين من عقباه ،  
وعلى رأسهم « ادوين منتاجو » الذى كان وزيرا للهند  
فى وزارة لويد جورج الائتلافية ..

فحماسة الشعوب الاسرائيلية للوطن القومى هى حماسة  
مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، واقل ما يقال فيها انها  
ليست بالحماسة الاجتماعية التى تقاوم جميع المصاعب  
وتدلل جميع العقبات ..

وانما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء ، وصادفت  
هذه الدعاية ماصادفته من النجاح لامرين لا مناص منهما  
للمثابرة على نشاط الحركة واستمرارها ..

هذان الامران هما : « اولا » سهولة الحصول على  
الوطن القومى فى اعقاب الحرب الماضية . و « ثانيا »  
صعوبة المقام فى كثير من الاقطار الاوربية على اليهود ، لما  
كانوا يلقونه هناك من ضروب الحجر والاضطهاد ..

فاذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فصعب  
المقام في الوطن القومي وسهل المقام في الاقطار الاوربية  
بعد زوال الاضطهاد منها وفتح ابوابها لمشروعات التعمير  
وصفقات التجارة والمال ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة  
عن حقيقتها الباقية فاذا هي اضعف من ان تقوى على  
الثبات الى زمن طويل

\*\*\*

نعم ان الصهيونية تعتمد الآن - بعد القيام في فلسطين  
زهاء ربع قرن - على عاملين آخرين غير تلك العوامل  
التي بعثت الحركة من مرقدتها في دفعتها الاولى . .  
تعتمد الآن على الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل  
اييب وما يحيط بها من المستعمرات الاسرائيلية

وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التي تأسست  
في أيام الحرب الاخيرة على الخصوص ، واتصلت  
معاملاتها بأقطار الشرق الادنى وما جاورها من الاقطار  
لكن الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل اييب خليط  
من الاوطان المختلفة لا يمتزج بعضه ببعض في زمن قريب  
أما الصناعات الحديثة فلها مزاحم قوى من الصناعات  
الاوربية المتعطشة الى الاسواق ، ولها مزاحم آخر من  
الصناعات الوطنية التي تعتمد على الشعور الوطني  
والضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كابح آخر  
من حراسة الاسواق الشرقية حيثما تنبعت الى أخطار  
الاحتكار ، وليست أزمات البطالة فيها بعد انتهاء الحرب  
بالأزمات التي يسهل علاجها في هذه الاوقات

\*\*\*

كنت أقول لآخواننا الفلسطينيين كلما سألوني عن  
رأى في قضية بلادهم وقضية البلاد العربية : اننى

متفائل قوى التفاؤل عظيم الرجاء فى مصير البلاد الشرقية  
على الاجمال . .

ولكننى كنت أشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذى  
أعنيه وأعقد عليه عظيم الرجاء . .

فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذى يقنمك بأن العمل  
ممكن وأنه مع امكانه مفيد . . .

ومتى آمنت بذلك فعليك ان تعمل وأن تحقق الفائدة  
التي ترجوها وان كلفك العمل أثقل الجهود . .  
فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به الى  
ما وراء طاقة الجهود البشرية . .

ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هذا الخطر اذا لم  
يقترن تهوينه بالشروع فى العمل المفيد . .

والجامعة العربية خليفة ان تنتهز فرصة العمل فى  
هذه الآونة لانها فرصة سانحة بعد الحرب الاخيرة وفى  
مفتتح الحياة الجديدة التى تستعد لها الاقطار الاوربية،  
من كانت على صلة بالمسألة الصهيونية او باضطهاد  
اليهود ، وقد تفتح ابوابها غدا لمن يؤثرون العودة اليها من  
أرض الميعاد اذا عز عليهم الوفاء بما وعدهم به الدعاة  
والزعماء . .

ولا غنى للبلاد العربية على اية حال - لخدمة نفسها  
لا لخدمة القضية الفلسطينية وكفى - من تنظيم  
الصناعات الحديثة ، وتنظيم الاسواق فى وجه المعاملات  
الطارئة عليها ، ومن منع الاحتكار فى أيدي فريق من  
الناس كائنا ما كان . .

واذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد  
استقامت على الطريق السوى الذى يفضى بها الى  
النجاح فى جميع قضاياها ، ومنها قضية فلسطين

## الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطيني قريب من المجتمع المصري في تكوينه وفي معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان الا في بعض التقاليد التي ترجع أولا الى امتزاج شعائر الاسرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من اقدم العصور ، وترجع ثانيا الى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية . . .  
فمصر تنقسم الى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم الى حاضرة وبادية ، وان كانت باديتها اخصب من بادية الصحراء واقرب الى العمار . . .

ولا يزال سلطان البادية ظاهرا في تقاليد الاسرة الفلسطينية سواء منها الاسلامية او المسيحية . .

والبادية كما لا يخفى تشد في المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، واظهر ماتبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية في حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية . . فان بنات الاسر في حواضر فلسطين متعلمات على نصيب وافر من الثقافة المصرية ، ولا يندر ينهن من تحسن لغة او لغتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور في الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن او للفتاة على السفر في الطريق الا ان تكون من اسرة قوية السلطان مهيبة الجانب تعميها بسطانها وهيبتها ان

تعرض للاذى والمهانة من بعض من ينكرون السفور .  
وهم كثيرون ..

فاذا سفرت السيدة او الفتاة من البيوت المتوسطة  
التي لا تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوءها في طريقها،  
ولا يتقدم احد لحمايتها ، لانها تستحق ما تلقاه في راي  
السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها ..

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذي تمادى  
فيه بعض السافرات في بعض الاقطار الشرقية .. ولكننا  
نعتقد ان تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة  
نافعان للمجتمع الفلسطيني في مرحلته الحاضرة ، ولعلهما  
نافعان له جد النفع في مكافحة « تل أبيب » ومغرياتها ،  
لان الفتى الذي يصحب خطيبته او زوجته في رياضته  
اليومية يشعر بالامانة الزوجية ماثلة امام عينيه في بيته  
وفي طريقه ، وتفنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك  
الصحبة الموبقة التي تذهله عن كرامته وماله وقضية  
بلاده

ولسلطان البادية القوى اثر في السياسة الفلسطينية .  
لان الزعماء هناك هم - بطبيعة تكوين المجتمع - رؤساء  
العشائر وعمداء البيوت العريقة في الحواضر ، ولهم من  
النفوذ في السياسة بمقدار مالهم من الاشياء والاتباع  
والاقرباء وانصار العصبية ، وهم الذين نهضوا باعباء  
الحركة في اشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والابعاد من  
اجلها ..

وقد اضيف الى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من  
نفوذ الدين او نفوذ الرئاسة الرسمية ، بل اضيف اليه  
ما تقتضى به اطوار العصر من رعاية البرامج والمبادئ التي  
تتعلق بها آمال الشعوب في الزمن الحديث ..

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذي يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطابوثة الاحوال التي درجت عليها السياسة في ايدي الرؤساء والعمداء وقد سألني بعضهم سؤالاً صريحاً في حفل حاشد عن الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجهاً الى الخطاب : الا ترى ان ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء والعمداء ؟ ..

فلمحت على وجوه الحاضرين ان صاحب السؤال ينوب في الحقيقة عن الاكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطريساورهم ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، فقلت : ان الشباب يستطيع ان يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على اغفاله ، ولا يزال للشباب عمل كثير يضطلع به في خدمة وطنه قبل ان يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه اذا رزق الالمية النادرة التي ترشحه لقيادة قومه فان هذه الهبة الفطرية لن تخفى على أحد ، ولن تحول احوائل دونه و دون القيادة التي يستحقها ، اذ لاجابة به يومئذ الى التوسل والرجاء في طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لان الكفاءة الممتازة تفرض مكانتها على من يعرفها ومن ينكرها على السواء ..

\*\*\*

والفلسطيني وسط بين المصري وبين السوري واللبناني في الاقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية في بلاده او في البلاد الاجنبية ..

فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون .. وهو اجرا على انفاق المال من أبناء الامم التي تعودت المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الارباح والخسائر ، منذ عهد بعيد ..

ولم يزل الى زمن قريب يعول على تربية الماشية والزراعة ، ويعول معها أحيانا على التجارة الدورية التي تجرى في مواسمها على سنة الزراعة والثروة الطبيعية .. وفي طبعه استقلال البدوى الذى تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعنته بما فيها من الموانع والقيود ..

وقد قال لى رجل من أذكىاء السوريين وذوى الغيرة منهم على القضية الفلسطينية : ان اخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، لانها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه

قال ذلك وقد مررنا بخص من القش على شساطيء البحر فى جوار « يافا » يملكه رجل يهودى يطهو فيه الطعام لمن يستريحون لديه فى أثناء الطريق ، أو لمن يقصدونه فى طلب النزهة والاستجمام وقضاء فترة من الوقت فى ضواحي الخلاء ..

قال الدمشقى الاريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل ان يعيد حسبته فى ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الايام ..

فاذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، فما هى الا ايام معدودات حتى يرى اليهودى خصا قائما الى جانب خصه يبيع الطعام الذى يبيعه ويهينء المائدة التى يهيؤها ، وينزل عن بعض ربحه فى أيامه الاولى ليحول قصاد الخص القديم الى الخص الجديد ..

قال صاحبى الدمشقى : فليت الصهيونية تبلى فى هذه الديار بمن ينافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح ..

قلت : ان الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التهاون فيه ..

\*\*\*

واحسب ان المصريين والفلسطينيين في مجال الهجرة قرسا رهان ، او فارسا متقاربان ..

فمن فلسطين مهاجرون في مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين ، وقد يعيش الفلسطينى فى مصر زمنا ثم يعود الى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالانشاصى والبليسى والطنطاوى كما ترى بيننا من يلقب بالفزى والرملى والعكاوى ، وكانهم يتسابقون او يتلاحقون فى حلبة واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون الى تبديل معالمها ، سواء فى التقاليد الاجتماعية او معيشة البيوت .. حتى «الملوخية» وهى صحفة مصريه لا يتقنها الطهارة فى غير وادى النيل - قد اكلناها فى بيت ابي خضرة كما تؤكل على افخر موائدنا التى تعز بتقديمها فى بواكيرها او معقباتها .. لان ابناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه ..

بين مصر وفلسطين جوار هو اقرب من جوار المكان لانه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان



## مصر والقضية العربية

سألني فنان صهيوني : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم اكتمه انه سؤال غريب .  
فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟ ..

قلت : وجه الغرابة فيه انك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومي في فلسطين وتحسبه من الامور الطبيعية التي لا تحتل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين ان يهتم بعضهم بعض ، وهم مضطرون الى هذا الاهتمام .. نعم مضطرون اليه ولو لم ينظروا الى المسألة من الوجهة الثعوروية او العلاقة التاريخية الروحية ، لان استقرار السلام في الشرق الادنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم ان يتداركوا اخطاره قبل وقوعها بشيء من الحيطة والمعونة ، ولا استقرار للسلام في الشرق الادنى مع تهديد امة كاملة في استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها

فلاح عليه انه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب ..  
وكان غيره اصرح منه في السؤال - وهو كاتب في صحيفة « فلسطين بوست » الانجليزية يرأسل بعض

الشركات البرقية - فسألني :

هل تريد مصر أن تسيطر على سياسة البلاد العربية ؟ ..

قلت : كلا .. ولو جاءتها السيطرة طيبة هينة بغير سعى منها ، لان الاساس الذي قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التي تشترك فيها ، وبذل الجهود المستطاع لتمكين الامم الخاضعة للحكم الاجنبي من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة في التوسع او زيادة اتبعات والاعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة في التعاون بينها وبين الامم التي تقاربها في الموقع الجغرافي والتراث التاريخي والوجهة السياسية ..

\*\*\*

ان الشعوذة السياسية وحدها هي التي تسول لبعض الادعياء ان ينتحلوا لانفسهم صفة الزعامة على جميع الامم العربية ، كما ينتحلون لانفسهم صفة الزعامة المطلقة على الامة المصرية ..

وانما يخدم اولئك الادعياء انفسهم بتلك الشعوذة البغيضة الى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن في الشرق بمبادئ الديمقراطية، لانها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنتهي الى فائدة مرجوة لغير اولئك الادعياء فيما يتخيلونه من الاوهام والاحلام ..

انهم يتوهمون انهم يروجون في سوق المناصب على قدر البضائع التي يعلنون عنها ويدخلون في روع الاجانب انهم قادرون على تسليمها ..

فهم يبيعون ويشتررون في قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود الى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات

ونحمد الله على ان الوقائع قد افهمت من يفهم ومن لا يفهم أن مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتتشامم به وتآبأه ، وانها تعاف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الابواق حول انفسهم ، ولا ينزهون مطلبا من المطالب عن صفائر التهريج والتهيج ، لانهم لا يعيشون بغير اجراس المزداد في سوق المساومات

ليس في ساسة مصر اليوم - بحمد الله - من ينطوى على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا الزعامة الابدية على هذا الشعب او ذلك ، ولكنهم يعملون لانهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الاخوان او الاعوان ، ولا يخدمونها - ولا يستطيعون ان يخدموها - من طريق الضجة الخاوية التي يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة في أسواق المطامع الاجنبية

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل أمة من الامم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره ..

وينبغي ان يفهم الاستقلال هنا على اوسع معانيه او على جميع معانيه ، فهو يشمل الاستقلال الادبي كما يشمل الاستقلال في عرف العلاقات الدولية ..

فلا افتيات فيه على حق أمة من الامم في الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه ان يحمل

أحدا على التواكل ولا أن يحمل أحدا على تجاوز الحدود ..

لكل أمة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها ..  
ذلك حق الأخ على أخيه والجار على جاره ..  
وعلى كل أمة عربية أن تعمل ما في طاقتها لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الإنسان على نفسه بل وواجبه لنفسه ...

وقوام الأمر بين الجميع هو استقلال في الرأي والعمل وتعاون بين أخوان مستقلين في الآراء والأعمال ..  
فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا إعفاء من واجب ولا تجاوز في الحقوق ..

\*\*\*

ومن دواعي الغبطة أنني رأيت دلائل الشعور بهذه التبعة العظيمة - على هذا الأساس القويم - في كل من لقيت من ذوي الرأي والمكانة بين خاصة أبناء الأمم العربية ..

فهم - مع إيمانهم بجدوى هذا التعاون الأخسوي في تخفيف الأعباء ومضاعفة القدرة على النجاح - يعتقدون أنه قد ضاعف شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب وورعاتهم للحقوق ، لأن عمل أمة تسأل عنه أمم ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق ..

قلت للكاتب الصهيوني : ان مصر لا تريد السيطرة على الأمم العربية ولو جاءت السيطرة بغير سعي منها ..  
وأحسبني أردد كل رأي رشيد في الاقطار العربية حين أقول أن الضجة الخاوية التي سولت لبعض الظنون

أن تهجس فيها هذه الهاجسة قد ذهبت الى غير رجعة ،  
وان العمل الوقور هو العمل الوحيد الذى يليق بخدام  
هذه القضية الكبرى ، وانه لا يستقيم على اساس كما  
يستقيم على اساس التعاون الاخوى فى حدود الاستقلال  
المرعى ، ومرحبا بآمال الامم العربية فى الامة المصرية  
ولو طالبتها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت اليها  
بالجانب الاكبر من الرجاء . . فحبذا مضاعفة الواجب  
كلما تضاعفت الطاقة ، وحبذا ان تزداد القدرة ويزداد  
معها التوفيق الى تحقيق الآمال

# دين وفلسفة

الفصل  
الحادي عشر



## الله

فى رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شىء

فالانسان له « وعى » يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعى » يقينى بالوجود الاعظم والحقيقة الكونية ، لانه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه

والوعى والعقل لا يتناقضان ، وان كان الوعى اعم من العقل فى ادراكه لانه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجعلا

ونحن نخطئ فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وانه لا يعمل عمله الشامل آلا على طريقة التقسيم المنطقى وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج واثباتها بالبراهين على النحو المعروف

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم . . وهو فى وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه فى عرف المنطقين . . وهو فى وجوده هذا يقول:

« نعم » ويقول « لا » ويحق له أن يقولها مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص

وقد يخطيء القول في بعض الأشياء ولا يضمن الإصابة في كل شيء . ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود . فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير . لان « التقسيم المنطقي » يخطيء أيضا كما يخطيء العقل المجمل في احكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير

فاذا قالت البدهاة العقلية : « نعم . . هناك آله » فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لانها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب الى الايمان وأقرب الى قوله « نعم » في البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول « لا » قاطعة مانعة في هذا الموضوع

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لاثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف : وهي أن البراهين جميعا لا تغني عن الوعي الكوني ، وأن الاحاطة بالحقيقة الأهلية شيء لا ينحصر في عقل انسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الانسان ، وانما الترجيح هنا بين نوعين من الادلة والبراهين ، وهما نوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون ، فاذا كانت أدلة المؤمنين ، أرجح من ادلة المنكرين فقد أغنى



الدليل غناؤه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا المجال ، وهي في الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر - فضلا عن الاقتناع بأنبداهه - كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين

ولا يخفى أن قاعدة الاثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل . فليس للعقل البشرى خصومة في الاثبات ولا خصومة في الانكار . . . وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الانكار كله في البحث عن حقيقة الوجود

ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله فانها كثيرة يشابه بعضها بعضا في القواعد وان اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها الى التواتر والقبول وهي : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الاخلاق أو وازع الضمير

## محمد الإنسان

من الأقوال المتواترة بين كثير من مؤرخي المسيحية ،  
انها انتشرت على يد بولس الرسول ، ولو لم يعرف  
المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا في الغرب  
باسم « البولسيين » نسبة الى « بولس » الذي كان يدعى  
قبل ذلك باسم شاول

ويحمل الاستطراء بعض مؤرخي الغرب الى التماس  
الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الاسلام في خصلة  
كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه  
وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولعاب هذا التشبيه  
ان الفاروق كان ، أيام جاهليته ، أشد ابناء قريش اذاء  
للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل ابعانه برسالة السيد  
المسيح . فانه آمن بها وهو متجرد لأضطهاد اتباعها في  
رحلة من حملاته على الشام

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة في اكثر ظواهرها واشكالها  
ولكنها تنقضى عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب  
المقارنات بين الاديان ، وتلك هي الفرق بين اثر الدعوة  
واثر الداعى بالنسبة الى الرجلين ، فان بولس الرسول لم  
يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق ، ولكن الفاروق

كان هو نفسه غرسا من غروس محمد عليه السلام ، وكان  
فى كل ما عمله بعد اسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم  
محبوب

واجتماع الرجال الافذاذ من قبيل ابن الخطاب هو  
مقياس العظمة الانسانية فى نبي الاسلام صلوات الله عليه ،  
فلم يحدث قط فى تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت  
او غير كتابية ، ان اجتمع حول داع من دعائها رهط من  
افذاذ الرجال يدينون « لشخص » ذلك الداعى بالاجلال  
والحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مفتبطين  
كما اجتمع الفاروق واقترانه حول نبي الاسلام ، وقد ظل  
الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبي له « يا اخي »  
مرة ونداءه له بكنيته « ابي حفص » مرة اخرى ، وظل  
غيره من الصحابة يحتفظون بكل اثر « شخصى » ظفروا به  
فى ايام صحبتهم له سنوات بعد سنوات

\*\*\*

كان للانبياء والدعاة اصحاب كثيرون او قليلون ، ولكنهم  
لم يذكروا بين عداد العاملين بين ابطال التاريخ ، ولم يجتمع  
قط فى صحبة طويلة للانبياء امثال هؤلاء الاصحاب الذين  
حفوا بنبي الاسلام ، ولا نحصيهم فى هذا المقام ولكننا  
نذكر منهم ابا بكر وعمر وعثمان وعليه وخالد بن جيسل  
ومعاوية بن العاص ، ومعاذ بن جبل ومعاوية بن ابي سفيان  
وابا عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو ، وغيرهم من  
السابقين المتلاحقين فى هذا الطراز ، كل منهم امة فى رجل  
او قائد على جيش ، او مؤسس لدولة ، او سيد بين عليه  
قومه يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ فى عشرته لتبنيه انه  
يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن ايمانه به ايمان المهتدى  
بهاديه المصدق الامين

ذلك مقياس للعظمة الانسانية لم يتحقق قط لعظيم من  
عظماء بنى الانسان ، ولا استثناء لاحد من العظماء الدينيين  
كان او من العظماء الدنيويين

فالصداقة العالية اكبر برهان من براهين العظمة  
المحمدية في صورتها الانسانية ، مع صورتها القدسية  
الالهية ..

ومحمد الصديق هو اعظم العظماء بين بنى الانسان  
بمقياس هذه « الظاهرة » النفسية الفذة في تواريخ العظماء

\*\*\*

ولسنا نقول غير الحقيقة التي تثبت كل الشبوت بمقياس  
النفوس ، اذا قلنا ان محمدا الزوج اعظم نفسا وخلقا من  
محمد الصديق

ان الاراذل من المحترفين بالتبشير الدينى قد ابتدلوا  
كل ادب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ،  
حين اتخذوا من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيبونه  
بها ، حاشاه ، بين رسل الله بل يعيبونه بها بين عامسة  
الخلق من عباد الله

ولو كان محمد كما ارادوا ان يكون طالب متعة في زواجه  
لكان على النقيض مما كان

لو كان كما ارادوا لكان في حريمه عشرات من أجمل  
العقائل والجوارى ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم  
والروم ، يرفلن في الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ،  
ويأكلن على سماط كسماط قيصر وكسرى وبلقيس

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتي  
مات عنها زوجها والتي عز عليها الزواج من غيره ، ولم  
تكن بين هؤلاء غير فتاة عذراء واحدة هو بنت صديقه

أبي بكر الصديق ، وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخبرن بين الطلاق وبين انبقاء على هذه الحال : « ياأبا النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن اجرا عظيما »

وإذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوي كلها لم نجد بينها غير باعثين اثنين كان لهما الاثر الأول والآخر في اختياره عليه السلام لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمروءة العالية

فقد بنى بثلاث من زوجاته لانهن بنات أصحابه الاوائل : ابي بكر وعمر وعثمان ، وليس للاخوة في الله من سند انساني في بلاد العرب أوثق من الاخوة في النسب والمصاهرة

وأولى زوجاته خديجة رضى الله عنها كانت في نحو الأربعين يوم بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين ، ولم يكن وفاؤه لها وفاء الحس والمتعة ، لانه فضلها على اصغر زوجاته ، وأحبهن اليه : عائشة بنت الصديق ، عليهما الرضوان ..

وكانت ام سلمة مسنة حين قتل زوجها عبد الله المخزومي في واقعة احد ، ورملة بنت ابي سفيان تركت اباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهي في الحبشة ، فطلبها النبي من النجاشي وتزوج بها لكي لا تترد وهي عائدة الى اهلها . وصفية الاسرائيلية خيرت بين العودة الى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا فاختارت زواجها بالنبي عليه السلام

واكرم ما كان من بواعث المروءة في اختيار زوجات

النبي قد كان ذلك الزواج الذي خاض المشرون في حديثه ، وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة ، حاشاه فطلقها من فتاة زيد ليضمها اليه

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه السلام رآها منذ طفولتها الى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات اللاتي يفاجأ برؤيتهن لأول مرة في بيوت أزواجهن ، وانما كان كرم النبي هو الذي حبب اليه ان يرفع من شأن الاسير الغريب فيجعله اهلا لمصاهرته ومصاهرة بنى هاشم من أبناء عمومته ، وقد شق على الفتاة ان تسكن الى العيش مع رجل من غير اكفائها ، ثم شق على زيد ان يواجه النبي بتسريح بنت عمته بعد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبي باعثه على اعفاء الزوج من ضنك هذه العشرة واعفاء الزوجة من اهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقضى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين الى مطلقات الارقاء ، وتمت القدوة كما ارادها الانسنان بروءته ، وارانها النبي بتشريف الاسير وجبر خاطر الكسير

وان الانسان - حق الانسان - ليعرف من امر محمد في اختيار زوجاته جانبا من الروءة المثلى في صاحب الدعوة الالهية ينبىء عن تلك العظمة الانسانية التي تعثلت في مكانة الرجل بين صفوة الابطال من عظماء الرجال ، فهو كذلك لانه انسان عظيم ، غاية ماترتقى اليه شمائل الرجل العظيم

\*\*\*

وبعد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة اخرى من صفحات تلك الروءة التي يسمو بها - انسانا عظيما - الى شرف الرسالة الالهية . فمن وصاياه ، نبيا ، ان خير

الناس خيرهم نُسائهم ، ومن رعايته لهم ، انسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات فى العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له فى العشرة الزوجية سنوات طوال لم تفلت من لسانه الكلمة النابية ولم تد على وجهه اللمحة القاسية ، ولم يلق امراته بحالة من الشدة تبدر من الرجل للمرأة كما تبدر من المرأة للرجل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل روايتها خبرا من أخبارها ولم يسقطوا حديثا من أحاديثها التى تؤثر بالنقل والرواية ، فما انتقلت اليها منها كلمة زجر ولا نظيرة سخط ولا لمحة تأنيب أو ذرابة ولم يكن له فى حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب فى صمت أو السؤال فى غير اقبال ، وتلك شيعة من شسيم الرفق الانسانى تتلاقى عندها طبائع الملائكة وطبائع البشر من أبناء آدم وحواء

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب فليس من لا يعرف الغضب بانسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة فى موضعها ، وهى احمد ما تكون من رجل اذا غضب حق الغضب استطاع ان يوقع بمن يغضب عليه ما ليس فى طاقة الاقوياء بله الضعفاء ولقد غضب النبى على اناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الامنين من رجاله واستدرجوهم ليعلموهم الدين كما زعموا فقدروا بهم وانتزعوا منهم ما احسنوا به اليهم ، فغضب الانسان محمد ، والنبى محمد ، حيث يعاب ارضا والهواة

غضب على الخدر والشر والخداع والفظظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير اهل للرحمة ، ولم يحرمهم الرحمة وهى ليست عنده او ليست من الزم شمائله ، بل حرمهم رحمته ورحمة الله لان الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف فى الانسان ، فكان غضبه سواء لرفقه ورحمته

فى خير ما يحمد من انسان

ولقد يكون الضعف الانسانى خير مقياس للعظمة  
الانسانية فى أرفع مراتبها ، بل هو فى الواقع اصدق  
قياسا للعظمة الحققة من منازلة الابطال الاشداء من الرجال  
فان من يغلب بقدرته قدرة تصارعها وتضارعها عظيم ،  
ولكن القدرة التى هى أعظم من قدرة اقاهر الغلاب قدرة  
تغلب نفسها باختيارها لترفق بالضعيف الذى لا طاقة له  
بقهرها ولا غنى له عن رفقتها ولا أمل له فى النصفة من  
غيرها ، ولا حصر لما أثر النبى التى شمل بها الضعفاء فى  
عنفوان قوته ونصره ، ولكننا قد نحصرها كلها اذا ذكرنا  
منها تلك المروءة التى حببت اليه أن يجبر خاطر الاسير  
الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه الى مقام مصاهرته فى  
أقرب الناس اليه ، وتلك آية من آيات « الانسانىة » الحققة  
أروع ما فيها ان تأتى من النبى العربى القرشى الهاشمى ،  
وليس أحق منه باعتزاز النسب فى مقام المصاهرة

ان محمدا الصديق لانسان فى الذروة من عظمة  
الانسانية

وان محمدا رب الاسرة لفى الذروة من رفق الانسانىة  
وان محمدا المنتقم لفى الذروة من بأس الانسانىة وعدل  
الانسانية والرحمة بالانسانية

وان محمدا السيد لفى الذروة من بطولة الانسانىة  
وان محمدا الاب قد عرف ضعف الانسان فبكى بكاء  
الانسان ، فكان فيه موضع ضعفه نعم الاب الانسان ،  
ونعم النبى المرسل فى أن

بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير ابراهيم على يديه ،  
ونظر الى الجبل فقال : « يا جبل ! لو كان بك مثل ما بى



لهديك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون »  
وكان النبي الصادق الامين اقرب ما يكون يومئذ من  
الانسان الباكي الحزين ، فلما انكسفت الشمس وقيل  
انها انكسفت لموت ابراهيم اُبت النبوة على الاب أن يبلغ  
بالنبوة هذا المبلغ في سورة الوجد عليها ، فقال الاب  
الذي انكسفت الشمس حقا في عينيه : كلا ان الشمس  
والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد  
ولا حياته .

بهذا الحزن الصادق وهذا الصدق الحزين استحق  
الانسان محمد بمشيئة الله أن يصبح رسوله الى الناس :  
والله أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال عن من قال

ومحمد «الانسان» هو الذي استحق كرامة انبوة فصنع  
في تاريخ الكون ما لم يصنعه قط انسان سواه : أربعمئة  
ألف ألف من بنى الانسان هم اليوم في مشارق الارض  
ومقاربها يقرون اسمه باسم خالق الارض والسماء كل  
صباح ومساء : لا اله الا الله محمد رسول الله

## ليلة القدر

ليلة القدر خير من الف شهر . .

والمتفق عليه بين جلة المفسرين ان ليلة القدر شرفت هذا التشریف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم - كعادتهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والاحبار القرآنية - يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة . اذ يجوز ان يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز ان يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبي وابن كثير الى قول القائلين ان ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين او اكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وان اخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب

والمفسرون الذين يحققون ان ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون انها احدى لياليه العشر الاخيرات ، وانها على الأرجح ليلة السابع والعشرين منه لاسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام

ومن المفسرين من يرى ان نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر يعززون رأيهم بان ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن في ليلة من

الليالى . لانه من المتواتر ان النبى عليه السلام خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له ( اقرأ ) فقال : ما أنا بقارىء ، الى آخر ما ورد في الحديث المشهور ، ولكن الامر الذى لا خلاف فيه أن سورة العلق اتى افترحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الاشارة الى الامور التى حدثت كما قال الاستاذ الامام « بعد شيوع خبر البعثة وظهور امر النبوة وتحرش قريش لا يذانه عليه السلام »

فلا خلاف على وجه من الوجوه فى تشرىف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة او جملة واحدة ، وان حكمتها الكبرى انها هى ليلة الفسرقان كما جاء فى سورة الدخان « انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم »

فهى ليلة القدر لانها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والامر بالدعوة والتكليف ، وهو اشرف ما يشرف به الانسان لانه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات ، ومن أجل هذا فضل على الملائكة لانها لاتعرض لما يتعرض له الانسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول الى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحى المكلف المسئول ، وقد افترحت دعوة محمد عليه السلام بالامر بالقراءة واقرن تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء فى وصف الخليفة من الكتاب المبين : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم ، واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى اعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء

كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال انبئوني باسماء هؤلاء  
ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا  
انك انت العليم الحكيم ، قال يا ادم انبئهم باسمائهم فلما  
انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات  
والارض واعلم ما تبءون وما كنتم تكتمون «

وقد جاء وصف الانسان بهذه المزية بعد الامر بالقراءة  
فى اول آية خوطب بها عليه السلام : « اقرأ وربك الاكرم  
الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

وهكذا ينبغى أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان  
ومعنى التقدير والتمييز الذى خص به الانسان ، ومعنى  
الامر الحكيم الذى يفرق فى ليلة القدر ، بأمر العليم  
الحكيم

فالشرف الذى فضلت به ليلة القدر انما هو شرف  
التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان ، وشرف  
التكليف الذى رفع به الانسان الى منزلة اشرف المخلوقات  
وحق عليه أن يذكره لانه محاسب عليه ، فيذكر فى كل  
يوم وليلة انه مسئول عما يفعل ، وانه مشرف بين الخلائق  
جميعا لانه مناط السؤال والحساب

وعلى هذا المعنى وحده ينبغى أن نفهم التقدير الذى  
يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذى يفرق  
به كل أمر حكيم

ومن حقائق البدهة التى يدين بها المؤمن بالله انه  
سبحانه وتعالى يقدر الاقدار ويقسم الارزاق ، ويحيى  
ويميت ، ويجرى قضاءه فى صروف الحوادث واطوال  
الحيلة والاحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالى  
الزمن امر لا يقول به المؤمن بالاله الواحد السرمد الذى  
لا اول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وانما يتخلف  
هذا الاعتقاد من بقايا الاديان التى ظلت تعدد الارباب وتخص

كل رب منها بوقته وسمائه ، او تشببه بما يعده الانسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من بنى نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس اياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الافلاك ، ويستنزلها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا اليها بشفاقة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في احدى ليالى السنة ، وسرت الى بنى اسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والارباب الارضية او الفلكية في ارض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والاسرائيليات الى عامة المسلمين ، فظهرت في تلك الاساطير التى احاطت بأخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذى يتصل به شرف الانسان وشرف التمييز والتكليف الى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الاسلام فى جملته ، لانه يرتهن السعادة والشقاء والثوبة والجزاء بغير الاعمال والمقاصد ويعود بها الى ارساد الليالى والايام ورموز الشفاعات والقرابين

كان قداماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون الى اربابهم فى مطلعها ان يقدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثناء ، لاعتقادهم ان ارباب النجوم تقضى فى الليلة الاولى من مطلع السنة كل ما يقضى من أمور الخصب والجذب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم ان للاعمار شجرة تخضر أوراقها او تذبل مع اخضرار الشجر على الارض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضى عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا ان اخضرار الورقة وذبولها مرتين بمراسم الصلاة

وظلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من اجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات وقد نقل الاسرائيليون كل ذلك الى عيد من اعيادهم التي اختلطت فيها عبادة الاله بعبادة الارباب الوثنية ، ثم تسربت منهم الى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب ان القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا الى ليلة القدر اكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التكفير عند كهان اسرائيل

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر الى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح نسبتها الى شهر الصيام في القرآن الكريم ، انما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية اذ كان شهر شعبان انما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو أشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من « اشعاب » الاعمار بين الاخضرار والذبول لكنه في الواقع « اشعاب » آخر بين العقائد الاسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الاوثان والارباب من دون الله

فالعقيدة الاسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتمييز ، وفي المخلوق العاقل المسئول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء او الغفران من عمل غيره ، وهنا تنشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين اشباه هذه الليالي في كل شريعة يناط فيها قدر الانسان بغير الاعمال والنيات وان المسلم ليعود الى اسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر انها ليلة فرقان وحساب ، وانه يدعو الله فيها ليشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير

## القصة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الاثر لمعرفة المكان الذي نزل به اصحابه او سلوكه

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم انها قصة ، لان من يحكى عنهم يتتبع اثرهم ليعرف خبرهم ، فهو يقص سيرتهم في الزمان ، كما تقص السير في المواقع والجهات وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة . ف جاء في سورة الكهف : « فارتدا على آثارهما قصصا » بمعنى تتبع الاثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » بمعنى تتبع الخبر في التاريخ

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها الى معنى الهداية الى الاخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة :

فهى تساق للعبرة والوعظة ، او تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، او تساق للتعليم والهداية

وتلى قصص العبرة والوعظة في القرآن الكريم لتذكير

الاحياء بمصائر الغابرين من الامم الاولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الاولين من الكلام المسطور اى المكتوب ، وقد تكون الكلمة احدى الالفاظ التى تعربت عن اليونانية ، لان « الاستوريا » عندهم بمعنى الخبر المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لانهم أخذوا الكتابة عن الامم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب الى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء « الالفا وانبيتا والجمما » عندهم منقولة من الالف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة « كلموس » اليونانية اى « القلم » منقولة عن العربية ، لان القلام أصيلة فيها ، ومن مادتها « القصم وانقضم والقطم والقحم والقرم » وكلها تفيد القطع كما يفيدہ التقلیم ، وكذلك السطر والسطر بمعنى الخط أو القط فى العربية ، يقال سطره وشرطه وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التى لا شك فى انتقالها من الامم السامية الى ايونان

وقد ترددت فى القرآن الكريم اخبار الاولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الامم الباقية من الاغترار بالمتعة . . كما اغترت بها الامم الخالية ، وكانت هذه العظات الزم العبر لتلك الامم التى آمنت بالاوثان والارباب ولم تؤمن بالوحدانية ، فانها اذا علمت أن اربابها لا تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على اصابتها بها ، ذهب ايمانها بتلك الارباب ، ووجب عليها أن تبحث عن قوة الهية تملك القدرة التى عجزت عنها معبوداتها

وفى القرآن غير القصص التى تدعو الى العبرة بمصير الكافرين ابناء تروى عن الانبياء الذين ارسلوا الى الامم الغابرة ، فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاقت



النقمة بمن كذبوهم وانكروهم ، وبقيت قدوتهم لينتفع  
بها من يعمل عملهم ، ويقفو أثرهم ، ويلقى من قومه مثل  
ما كانوا يلقونه من أقوامهم ... » وكلا نقص عليك من  
آباء الرسل ما نثبت به فؤادك « كما جاء في سورة  
هود

وهذه على الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب  
عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة ، تشبيها  
للافتدة وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على  
الجهاد

\*\*\*

ومن قصص التعليم والهداية في القرآن قصة موسى  
والخضر عليهما السلام ، يرى بعض المفسرين أنها درس  
لاصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة  
الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين  
بالاسرار والاشارات الخفية ، ويرى الثقات أن القصة  
درس لاصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا  
الدرس ان سعة العلم من شروط القضاء بين الناس ،  
وان العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شئونهم  
وحقائق احوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في  
العدل قاض يعرف تلك الاحوال على حقائقها واخر ينظر  
فيها بما يبدو له من ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه  
لمن يقضى بشريعة من الشرائع تجرى على قسطاس واحد  
ولا يختلف فيها ظاهرا وباطن ، كما يعتقد القائلون  
بالاسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضي العادل  
الى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف  
فيها بعد ذلك قولان

ومن الواجب ان نذكر ان قصص القرآن جميعا تساق  
للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وانها تأخذ من التاريخ

ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين .  
فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع  
والسنين ، وليست حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه  
الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد  
كان له دوسه النافع للمتعجلين من ادعاء التحقيق -  
العلمي - منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلهم لا يستغنون  
عنه بعد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر  
في كتاب من كتب الدين كافيا عندهم للجزم باختلافه  
وحسابانه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية  
التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء ، فلم تمض  
سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت  
علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك  
الحوادث المشكوك فيها ، وثبت ان علماء التاريخ كانوا  
خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا  
بها من مصادرها الدينية ، قبل ان يتوفروا على حركة  
الحفر والتنقيب في آثار الشرق الأدنى وما جاور بلاد  
النهرين

ومن هذه الاخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون  
به على غير انتباه لانهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام  
في غير المصادر الدينية ، فشكوا في وجود عاد وثمرود  
وشكوا في حملة الفيل وهلاك اصحاب الفيل ، وشكوا في  
الزلازل والاعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي  
سيقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها احيانا  
بين كتب الاديان ، فلما حققوا الآثار وصححو المراجعة  
تبين لهم ان عادا وثمرودا من أخبار بطليموس ، وان هلاك  
اصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المسدن  
التي ساخت بها الارض أو عصفت بها الرياح حقيقة

لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة  
ومسينى ، وان بقايا اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة  
بين اللغات كل ما كذبوه من الاصول او من الصلات بين  
شعوب الامس وأعراقه في احاديث المتدينين ، وانهم هم  
في انكارهم وتحقيقتهم المزعوم قد ابدعوا لهذا العصر صورة  
جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين  
الاقدمين . وهي خرافة العالم الذي ينكر ما يجهل ويجهل  
ما ينكر ، ويظن ان كلمة « التحقيق » وحدها سلطة  
تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار

واذا انكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلمهم  
لا يستطيعون ان ينكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه  
من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم ان التعجل  
بالانكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق

## رمضان شهراً للإرادة

كان منا رجل من رجال الأعمال ، وسفير ، وشاعر ، وكاتب وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الأعمال: «اننى تعودت بين حين وحين أن اصوم اسبوعاً أو اسبوعين عن كل طعام غير السوائل وافضل من السوائل عصير البرتقال »

وقال السفير : « اننى أصوم فترة كهذه واكتفى فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكنى افضل عليه السوائل الاخرى »

وقلت : « اننى أعالج الصوم مرة فى كل أسبوع ، واختار يوماً من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل، وأفضل منها مغلى البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد احتاج فى أيام الاسبوع الاخرى الى اسقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، وأكثر ما تكون وجبة العشاء »

ولا اذكر مما قيل فى هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكنى

على يقين ان القارىء يسمع فى مجالسه مثل ما سمعنا فى ذلك المجلس وفى غيره فان لم يسمع حديثنا عن الصيام لاصلاح المعدة سمع حديثنا عنه لاجتناب السمنة او لزيادة نصيب الجسم من بعض الاغذية الحيوية ، او سمع عن الصيام السياسى الذى يراد به فرض رأى او الاحتجاج على معاملة ، فليس اكثر من أنواع الصيام فى هذه الايام

ولا حاجة الى الافاضة عن الكلام على أنواع الصيام التى يعالجها الجنس اللطيف حرصا على الرشاقة واعتدال القوام ، أو رياضة له فى سبيل الجمال تشبه الرياضة التى يعالجها اللاعبون فى سبيل القوة والنشاط . فان حديث الصيام من هذا القبيل فى كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه أنه اخاف المصانع التى كانت تعول على الشراب الخفيف كالجعة والمنقوعات وما اليها وتعلم أن وجود الجنس اللطيف مع الرجال اكبر مشجع على الاكثار من هذه الاشربة ، فاننا نقرأ اخيرا عن الجعة التى تخفف السمنة وعن أتى تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم « هندامه » واعتدال قوامه

ووراء هذه المنشورات فصالح تلك المصانع على الاقل فى بعض الاحايين

ليس زماننا اذن زمان الاعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الاقدمين التى عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هو فى الواقع زمان تزيد فيه الوان الصيام ولا تنقص، ويكثر فيه اختلاف انواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط انه استحق ان يسمى عصراً « صياميا » كأعصر الذى نحن فيه

ونقول « الصيام على اختلاف انواعه » لان الانواع التى

ذكرناها آنفا ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به أبناء العصر الحاضر ، فتلك جميعا انواع « جسدية » تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير من أنواع الصيام يدرسها أبناء العصر الحاضر ولا يطلق عليها وصف « الانواع الجسدية » . . لانها تراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الانسان ان يملك عاداته كما يشاء

وقد تفتح باب البحث في هذه « انصيافات » على أثر التوسع في دراسة الاديان والمقارنة بينها ، وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية ، وعلى أثر القول بإمكان توليد الامراض العقلية وشفائها بتعاطي بعض العقاقير او الامتناع عن بعض اصناف الطعام وكثر الكلام على « اليوجا » الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنسك التي ملسكوا بها زمام أجسادهم وضمائرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير عن انصياف في سبيل الجوارح والعضلات

والصيام الذي فرضته آاديان احق هذه الانواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول في أصل الصيام الديني قديما قبل ظهور الاديان الكتابية فلا حاجة بنا الى استقصائه في هذا المقام

أما حكمة الصيام في الاديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الاخلاق على نحو من الانحاء والدين الاسلامي هو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام

## لوعاد محمد عليه السلام

من الاماثل التي تعاد ولا تعلم أمثلة للكاتب انرو  
« ديستيفسكى » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في  
قصة الاخوة كرامزوف

وخلاصة الامثلة ان السيد المسيح عاد الى الارض  
واخذ في وعظ الشعب وتبشيرهم بالملكوت فأقبلوا عليه  
واستمعوا له وأوشكوا ان ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم  
المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس  
محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه  
لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح !  
.. وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم  
أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ القضاء  
فيك ..

أمثلة تعاد ولا تعلم لان العبرة بها لا تنقضي في حقبة  
واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث المصلحين  
والمفسدين

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، فانما يكون مبالغا  
لو كان ما تخيله بعيدا أو غريبا في بابه ، ولكنه في الواقع  
اقرب شيء الى الاحتمال مع هذه البشرية التي تختلط فيها

الشیطانية والخنزيرية والحمارية فى وقت واحد ، فلا  
تزال حربا على من ينفعها وابعوبة فى أيدي العابثين بها ،  
وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون  
باسمه وينتحل هدايته

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك  
النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام والاسلام  
برىء منهم ، وكل ما هنالك من خلاف أن المسألة لا تمر  
بتلك السهولة التى توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من  
يتصدى فى الاسلام لمثل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما  
يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير

وأسأل نفسى كيف ينفع المسلمون على أحسن وجوه  
النفع بعودة النبى عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟  
وما هى المسائل التى يرجعون بها الى شخصه الكريم  
فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسى فتخطر لى مسائل خمس يرجع فيها الى  
شخصه الكريم ويعنى جوابه فيها كل الغناء فلا حاجة ولا  
اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو  
مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد فى هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هى : مسألة الاحاديث النبوية ،  
ومسألة الروايات فى قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة  
والملك ، ومسألة الرسالة وانبوة بعد خاتم المرسلين ،  
ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها  
وقول نبى الاسلام فيها

### مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور



فى جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواياتها وأسانيدھا ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت وأراجيح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط وعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون

وبعد كل هذا انجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداوله فى الكتب وعلى الالسنه وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث ! » وينتهى القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب فى التضليل وترويج الاباطيل

## قراءات القرآن

ومسألة اروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث فى اشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التى تم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر فى ذلك ولا ضرار

الا أنها لا تحتل اقل اختلاف مع وجود النبى الذى تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراء ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته - فى عصر التسجيل - فتلك ذخيرة الابد فى ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن اول ما يسمعه السامعون فى مجالس الذكر الحكيم

## الخلافة والملك

وتأتى مسألة اخلافة ، بل معضلة الخلافة

تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام تذكره في الاسلام حين تذكر السنة والشيعة والامامين والزيديين والاسماعيليين والتزاريين ، وحين تذكر الهاشميين والامويين والعباسيين وانباطيين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين بم أوصيت يا رسول الله في أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدنا اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هي بيضاء من غير سوء ، واذا هي بقية من بقايا الماضي تحال الى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقي بها حيث لا حس ولا خبر

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال

### الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهي خلافتهم عما قريب

ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هي النهاية الفاصلة ، وقد تمنع في المستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد

## المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة الى السؤال عن الديموقراطية ، فان سابقة الاسلام فيها أصلح من كل سابقة

ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين

ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة في كل دين

وانما يسأل النبي عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الأغنياء » . . . ثم يسأل عن شرحها فيتلقاء منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول

وتأتى على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين في الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين

ويسمع من النبي عليه السلام في أولئك كله جواب يعنى عن ألف جواب أو عن كل جواب ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين

ان كاتب هذه السطور اخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان في الاقناع

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينه اناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس في رابعة النهار

وليس بالمستحيل عندي أن يعانداك المعاند ويكابر  
المكابري في « اثنين واثنين يساويان أربعة وفي واحد  
وواحد يساويان اثنين »

بل ليس بالمستحيل عندي أن يكابر المكابرون في  
معنى الواحد ومعنى الاثنين وإن هذا خمسة وليس بواحد  
وذلك صفر وليس برقم من الأرقام

فاذا عاد النبي عليه السلام وقضى قضاءه في أحكام  
الإسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك في كلامه وبيانه  
وفي ملامح وجهه وعلامات جسمانه ، ولا والله لن يسلس  
المقاد ممن يلج في العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما  
قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه  
ولا يطمعون في الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم  
عليه ، وصلى الله على محمد في الأولين والآخرين ، فما  
هو إلا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين  
لا يهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين

## لوعاد السيد المسيح

في احدى روايات الكاتب الروسى العظيم دوستيفسكى -  
بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى  
الارض فى طوفة عابرة ونزل بأسييلية فى ابان سطوة  
« التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه  
الضعاف والمرضى والمحزونون يلتمون قدميه ويسألونه  
العون والرحمة

وانه ليمضى بين الشعب يضى عليهم حبه وحنانه  
ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان  
التفتيش - المفتش الاعظم - يعبر بالمكان ويتأمل السيد  
والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم  
أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق

ويأتى المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول  
للسول الكريم : « اننى اعرفك ولا اجهلك ، ولهذا  
حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات  
والعقبات فى سبيلنا ؟ »

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست  
نهم به طاقة • كلفتهم حورية الضمير ، كلفتهم مؤنة

التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم  
وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم ٠٠ والان وقد عرفنا نحن  
دأهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، واعدناهم الى الشرائع  
والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من  
جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

« ليس اثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس  
اسعد منه حين يخف عنه حملها وينقاد طائعا لمن يسلبه  
الحرية ويوهمه في الوقت نفسه انه قد اطلقها له وفوض  
اليه الامر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من  
جديد ان يفتح عينيه وان يتطلع الى المعرفة وان يختار  
لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ،  
وليس في عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع  
من حيث اتيت ، والا اسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه  
عليك وحاسبناك باياتك واخذناك بمعجزاتك ، ولترين  
غدا هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم هقبلا علينا هبتهلا  
لنا ان نخلصه منك وان ندينك كما ندين الضحايا من  
المعذبين والمحرقين »

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا  
الملتقى وهذا الحوار « ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة  
ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ،  
وتقدم الى المفتش الاعظم - وهو شيخ فان في التسعين -  
فلثم شفثيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الانظار »

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء  
بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الاخر الذي  
يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم  
ولا نحسب أن انخيل في هذا الخطاب العجيب بعيد عن

الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الاعظم حين انذر  
الرسول الكريم ان يسلمه لمن ينور عليه ويصب عليه الويل  
والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه

كلا . . ان الخيال فى ذلك الخطاب العجيب غير بعيد  
من الحقيقة ، واقرب شىء الى طبائع الناس ان يصنعوا  
ذلك الصنيع وان يتبعوا المفتش الاعظم فى نعمته على  
الرسول الكريم

واقرب شىء ان يكون لو عاد السيد المسيح الى الارض  
ان ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه  
كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد  
ان السبب للانسان وليس الانسان للسبب ، وان العبرة  
بما فى الضمائر لا بما تفوه به اللسان ويبدو على الوجوه ،  
وأن الوحي فى طوية الانسان لا فى طوايا الكتب  
والاوراق

أقرب شىء ان يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل  
الف وتسعمائة سنة ، وان يجد انسان اليوم كانسان  
الامس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ، وفى  
اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفى استعلائه  
بالتقوى حين يتقى ، ولجاجة فى الجحود والعدوان حين  
يجحد ويعتدى ، خمرا جديدة فى زق قديم

ذلك أقرب شىء أن يكون

واقرب شىء ان يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ،  
أن يردد اللسان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء اجتهاد

فقيم يشقى المصلحون ، وقيم يهلك الشهداء ؟ وقيم  
يأتى الانبياء ويذهبون ؟ وقيم اختلفت الديانات واصطرع

عليها المتدينون ؟ فيم كان هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان او بغير احسان

جاءوا وعادوا ..

وانصرفوا والبسلاء باق

ولم يزل داؤنا العيساء

لئن قيل هذا ليكونن اقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه انى يكون

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ثم يصل اليه ويقعد عنده ، ويكف بعده عن كل عناء

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائم ، يتقدم فيه الانسان شوطا بعد شوط ، او طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحلها الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهى اولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج بالضمير وتبعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات

منذا يقول ان عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ،



ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين ، ثم رآه ملدى  
الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء؟  
منذا يقول ان عناء الطب باطل اذ رأى الناس يمرضون  
بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع  
الدواء وموانع الشفاء؟

منذا يقول أن غاية عبث لان الطريق اليها طويل ،  
أو لانها غاية تلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ،  
فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هى سر الاسرار في حياة  
الانسان منذ كان وانى يكون؟

ليست العبرة ان الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر  
اليه وكيف نواقعه او كيف نتقيه

واذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو  
مستريح اليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر  
اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى  
وقع فيه وهو يجهله ، او يقف منه موقف المغالطة بين  
العلم والجهل وبين القصد والاضطرار

انما الانسان غير الحيوان البهيم لانه صاحب ضمير،  
وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التى يقومها والمثل العليا  
التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لا ينالها ،  
وما دام المصلحون والرسول يعلمون الانسان قيمة يغليها  
ويرفعون امامه مثلا اعلى يتسامى اليه . . فهم عاملون  
وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص  
عدد الذنوب والجرائم بترقام الاحصاء

واذا قلنا يوما ان الانسان في هذا العصر يطلب الخير  
ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه افضل من الانسان

الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان

انما تقاس الاديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الاديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غير ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين اجهل منهم اذا اعتقدوا ان ديننا من الاديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لان الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى ، باق فيها الكفران

اي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الالفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين اقرب الى التقدير الصحيح من اولئك العارفين ، لانهم يفكرون وينتظرون « الالفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

\*\*\*

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة

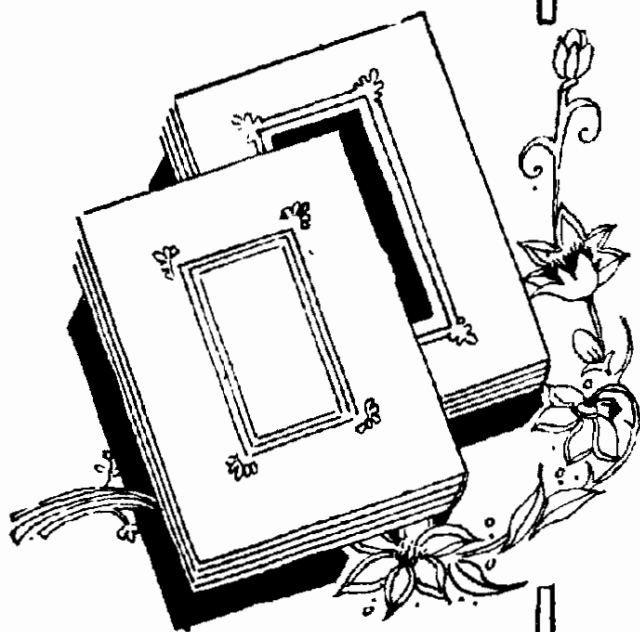
صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام

وسيعلم الناس في العصر الحديث - ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم - ان عقيدة الانسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي او معتنا عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للانبياء بها الا لانها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه ان يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردّها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان

في الشعر العربي

الفصل  
الثاني عشر



## المذاهب العربية

نظم الشعر في اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التي عرفت في العصر الحديث باسم الفنون الجميلة ، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الامم الشرقية والغربية ، خلافا لما يبدر الى خاطر لاول وهله . فان كثيرا من أشعار الامم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص أو الحركة على الايقاع . ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والاقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفني من البحور والاعاريض ، الى الاوتاد والاسباب

وليست هذه خاصة من خواص اللغات السامية اخوات العربية . فاننا اذا أخذنا سطرا على حدة من قصيدة عبرية لم نستطع أن ننسبه الى وزن محدود أو مقياس متفق عليه ، ولا بد من اقتترانه بسطور اخرى يتم بها الايقاع ولا تطرد في قول كل شاعر ولا في سطور كل قصيدة فهو والفاصلة النثرية التي يمكن أدائها بالغناء أو بالايقاع على حركة الرقص ، متساويان

ومن الشعر الغربي ما يعرف كل سطر منه بطرد من

المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهى اليها هذه  
السطور

أما ضروب النظم التى تلتزم فيها القافية ، فكلها  
فى نشأتها كانت تغنى أو تشد على إيقاع الرقص ، ثم  
استقلت بأوزانها المحدودة على نحو مشابه للأوزان  
العربية ، وهى الموشحات التى اشتهرت عندهم باسم  
« استانزا » أو اسم « سونيت » ويدل كلا الاسمين على  
أصلها من الرقص والغناء . . فان استانزا كلمة إيطالية  
بمعنى الوقوف تقابلها ستاند stand

بالانجليزية ، وسونيت sonnet من كلمة سونج  
song بمعنى الغناء

فالشعر الذى لا يضبط بالوزن او بالقافية موجود فى  
اللغات السامية واللغات الآرية ، وبعضه لا يزيد الإيقاع  
فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه ،  
وبعضه يضبط فيه الإيقاع بعدد المقاطع والنبرات ، ولا  
ينتهى الى قافية ملتزمة فى القصيدة او المقطوعة الصغيرة  
انما الوزن المقسم بالاسباب والاوزان والتفاعيل والبحور  
خاصة عربية نادرة المثال فى لغات العالم . وكذلك القافية  
التي تصاحب هذه الاوزان

ومرجع ذلك الى اسباب خاصة لم تتكرر فى غير البيئة  
العربية الاولى : أهمها سببان : هما الغناء المنفرد ، وبناء  
اللغة نفسها على الاوزان

فالامم التى ينفرد فيها الشاعر بالانشاد تظهر القافية  
فى شعرها . . لان السامعين يحتاجون الى الشعور بموضع  
الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة اذا اشتركت فى الغناء لم  
تكن بها حاجة الى هذا التنبيه ، لان المئين جميعا يحفظون  
الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد فى كلماته  
وفقراته ، فيساقون مع الإيقاع بغير حاجة الى القوافى

عند نهاية السطور ، وانما تنشأ الحاجة الى القافية ، او وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم الى منشدين ومستمعين

يقول العلامة جليبرت موري - وهو من ثقات البحث في الأوزان والأعاريض - « ان احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية فى اللغات الحديثة . ففى اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لان الأوزان فيهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف . . وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال . بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منشور . وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف فى بعض المناظر المرسله من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنشور وحسبها الآخرون من المنظوم . ومما يلاحظ ان اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة العددية . . وان الصينيين يحرصون على القافية لانهم يلتزمون الأوزان ، وان انتشار القافية فى أغاني الريف الانجليزية يقترن الترخص فى أوزان الاعاريض »

ويستطرد الاستاذ موري الى الشعر الفرنسى فيقول : « ان اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى مجرد احصاء للمقاطع ، واصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة - نشأت فيها من اجل ذلك حاجة ماسة الى القافية ، فصارت فى شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الامر الى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه »

ومن اسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية فى اشعار الغربيين سبب لم يذكره الاستاذ موري ، وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم

فحيث شاعت اناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية  
وكثر الاعتماد على حركات الإيقاع ولو لم تكن متناسقة  
الوزن على نمط محدود ، لان الغناء بالكلام المنشور ممكن  
مع توازن الفواصل وموازة السطور

واناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لانهم قبيلة  
متنقلة تحمل تابوتها في رحلتها وتنشد الدعوات معا في  
صلواتها الجامعة ، وفي هذه الدعوات ترانيم على وقع  
الدفوف كما جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر  
الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت  
جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهن مريم :  
رنموا للرب فانه قد تعظم .. »

وكذلك شاعت بين اليونان اغاني المسرح التي ترجع  
في نشأتها الى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها الى الامم  
الاوروبية

ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والتزام القافية ان  
شعراء الامم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين  
قد لجأوا الى القافية والتزموا في مراعاتها احيانا مايلتزمه  
عندنا شعراء الموشحات

لما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الاسلام صلوات  
جامعة منتظمة بمواعيدها ومحفوظاتها ، وانما كان الحداء  
هو الغناء الذي يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها  
بساطة الترتيل ، ينشده الحادي على انفراد وتصفى اليه  
القافلة احيانا في هداة الليل ، اذ يعتمد الحس كله على  
السمع في متابعة النغم الى مواضع الوقوف والترديد ،  
فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية  
بجملة معانيه

لهذا استقل المنظم بحقه في الصنعة ، لان هذه الصنعة  
لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء . فانتظمت قوافيه



وانتظم ترتيله انتظاما لا بد منه لكفايته ، مع بساطة افانين  
الغناء

واذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء  
فهناك ايقاع واحد نتابعه في خطوات الابل وفي خطوات  
الهرولة التي تصاحبها على القدم . والى هذا الايقاع  
يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومجيئته  
على غير قصد ادل على تمكن العادة وعلى اصالتها في  
الحياة البدوية :

انسا النبي لا كئذب  
انسا ابن عبيد المطلب

\*\*\*

هل انت الا اصبع دميت  
وفي سبيل الله ما لقيت

\*\*\*

وقد تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في  
كل دعاء مروى كيفما اختلف المختلفون في صحة الرواية ،  
كما قيل عن امرأة اخزم بن العاص حين نذرت ولسدها  
للكعبة فقالت :

انى جعلت رب من بيئته  
ربيطنة بمكة العليسة

فباركن لى بها اليه  
واجعله لى من صالح البرية  
فهكذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة،  
ايا كان صاحب النظم او من ينسب اليه

هذه المرددات الفردية هي التي ميزت النظم العربي  
باستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيله ، ولو وجدت في  
الجاهلية العربية صلوات جامعة تتشدد فيها الدعوات

المحفوظة لوجدت فيها القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ، أما من أناشيد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من أناشيد المسرح كما عرفها اليونان . ولكننا نعرف العرب من قصائدهم الفردية كما نعرف الأمم الأخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه

هذا سبب من أسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا في القصيدة العربية ، وكانت نادرة بين الأمم السامية والأمم الآرية على السواء

أما السبب الآخر فهو أصالة الوزن في تركيب اللفظة . فالمصادر فيها أوزان ، والمشتقات أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الأسماء أو يحتفظ بدلالته على الحدث حسب الوزن الذي ينتقل إليه

هذه أصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغرب معها أن يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللفظة وأن يكون شأنها في نظم أشعارها على خلاف المعهود في منظومات الأمم الأخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر الانشاد الفردي في تثبيت القافية واستقلال فن العروض عن فن الغناء في القصائد العربية

نعم أن اللغات السامية تجرى على قواعد الاشتقاق وتوليد الأسماء من الأفعال ، ولكن المقابلة بين هذه اللغات في الأقسام مشتقاتها وتفرع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الأوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها في أخواتها السامية ، بل تدل في باب الإعراب خاصة على تفصيل في العربية يقابله الإجمال

أو الإهمال في أخواتها ، وفي غيرها من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الأعراب

\*\*\*

وواضح مما تقدم أننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة ، أما الكلام المنظوم في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه كل عصر بما هو أهله من الإبداع أو الزيادة أو المحاكاة . . . وإنما نعود إلى القوالب والأوزان في كل عصر لنسأل : هل هي صالحة لإداء المقاصد الشعرية ومجارة الأمم في تطورها الذي يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الإداء ؟ وهل تتسع للتعديل إذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من مطالب التعبير ؟

إن تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح القوالب العروضية لمجارة أغراض الشعر في أحوال كثيرة ، ويبدو منها أن أساس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة إلى نقضه والغائه . فقد كانت بضعة بحور من أوزان الشعر كافية لأغراض الشعراء في الجاهلية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزئات ومختصات صالحة للغناء حين استحدثت الحاجة إليه في الحواضر العربية التي عرفت الغناء على إيقاع الآلات ، ثم اتخذت من هذه البحور أسماط وموشحات وأهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف مواقعها وتطول فيها الأشرطة أو تقصر مع التزام قواعد التردد فيها . واختار بعض الشعراء نظم المثنائي أو المزدوجات وبعضهم نظم

المقطوعات التي تجتمع في قصيد واحد متعدد القوافي او تتفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضوع ، ولما نقلت الالياذة اليونانية الى النظم العربى لم تضق بها أوزانه ولم يظهر سياق الترجمة ان هذه الاوزان قاصرة عن التنوع فيها على نمط غير هذا النمط لمن يشاء التنوع، واستجابت الاوزان لمطالب المسرح كما استجابت للملحمة المترجمة ولما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة

وقد أقرد الموسيقىار ألعصرى الاستاذ خليل اللاوردى فصلا وافيا فى كتابه فلسفة الموسيقى الشرقية لبحث التوزين والايقاع وتطبيق العروض العربى على الضوابط الموسيقية فانتهى من بحثه الى امكان التنوع فى الاوزان العروضية واستطاعة الموسيقى والشاعر ان « يفتح اشكالا غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد فى تجاربه على الجهاز الفنى المسمى بالمتروتوم وهو صندوق صغير من الخشب هرمى الشكل ، يفتح من احدى جهاته الاربع فينكشف عن قضيب معدنى مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية . . فيقسم الدقيقة الواحدة من الزمن الى نقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل الحد الادنى النقرات المتناهية فى البطء ويمثل الحد الاعلى النقرات المتناهية فى السرعة » . . ولم يلجأ الموسيقىار الى وحدات للنغمات غير وحدات الفواصل والاولتاد والاسباب التي يستخدمها العروضيون ولم يجعل لها اقساما غير اقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفروق ، والفاصلة الصفرى والفاصلة الكبرى ، وانما استخدم الضوابط الموسيقية لبحث الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك مجال بحثه للعروضيين يتفاهمون فيه بمصطلحاتهم التي لا تحتاج الى التخصص أو التوسع فى فنون الالحان

فخلص من بحوثه الموسيقية والعروضية معا الى نتيجة محققة خلاصتها - كما قال - ان اشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو ان حدودها - على ما نرى - أشبهه بحدود الكلمات التي تتألف من الحروف الابدجية ، على حين ان الحروف الابدجية قلما تزيد على الثلاثين فاذا نظرنا الى ما تم من اشكال العروض ، وما يتأتى ان يتم منها مع التنوع والتوزين ، ثبت لنا انها قائمة على أساس صائح للبناء عليه وتجديد الأنماط والاشكال فيه ، على نحو يتسع لاغراض الشعر ولا يلجئنا الى نقض ذلك الأساس

### \*\*\*

وهذا كله مع التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنشور والكلام المنظوم في السهولة أو الصعوبة ، فان التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان ينبغي ان ينتهى عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس ، وما جهل الناس قط ان الكلام أسهل من الغناء ، وان المشي أسهل من الرقص ، وان الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشي عن فن الرقص ، أو بتحريك الاعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة في ألعاب الفروسية . فمهما يكن من تيسر الاوزان بالتنوع والتوفيق فلا مناص في النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل في سهولة الاداء ، وانما المطلوب ان تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التي تخرجها من عداد الفنون

ولا بد في هذا السياق من تفرقة اخرى هي التفرقة بين القواعد والقيود في كل فن من الفنون ، فلا سبيل الى الاستغناء عن القواعد في عمل له صفة فنية ، ولا ضرر

من الاستغناء عن القيود التي تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قوامه الذي يسلكه في عداد الفنون

ومن تجاربنا في تاريخ الشعر العربي يتبين لنا أن قواعد النظم عندنا مؤاتية للشاعر في كل تصرف يلجئه إليه تطور المعاني والتعبيرات في مختلف البيئات والازمنة . فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر في تجربة من التجارب العربية التي وعيناها منذ نشأت أوائل الاوزان الى أن بلغت ما بلغته في منتصف هذا القرن العشرين

ذلك شأن التجارب العربية ، فما بال التجارب في أمم الحضارة التي تتصل بنا وتتصل بها وتبادلنا وتبادلها مطالب الفنون والاداب كما يحدث الان بيننا وبين أمم الحضارة الغربية ؟ ماذا تفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة في ميدان النظم والشعر على اتصال بينهما او على انفراد ؟ اما في النظم فلا خفاء بالامر من أسر نظرة الى آدابنا وآداب الامم الغربية التي تتصل بها في العصر الحديث

فمما لا تردد فيه ان هذه الامم لم تبدع في موازين النظم بلما نستفيد منها ولم تكن قد سبقناها اليه في عصر من عصورنا ، فاذا التزموا الاعاريض معتدلين أو مبالغين فليس عندهم ما هو ادق واجمل من الموشحة في اوزانها التي تقبل التنوع والتشجير الى غير نهاية ، والتي يعتبر تعدد القافية فيها ندحة وزينة في وقت واحد . فان اطلاق الحرية للشاعر لتوزيع القوافي حيث شاء يوشك ان يعفيه من قيودها كما يزيد الايقاع جمالا على جمال . ولم يبدع الاوربيون - حتى في شعر المسرحيات الملحنة - فنا من الاناشيد اتم من الموشحة وأصلح منها للتحنين وحركة الايقاع

فاذا ترخص الشاعر الغربي في القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذي يسمونه النظم الحر او النظم الابيض - فجهد ما بلغوا اليه انهم عادوا الى الاسطر المتوازية او الى الاكتفاء بالمقاطع التي لا تبلغ في دقتها مبلغ الاسباب والاوتاد والفواصل ، وكل اولئك طور من الاطوار التي تخطاها الشعر العربي في الازمنة الماضية او سبقتهم اليه امة من الامم الشرقية وتوقف بها التطور عنده ، لارتباطه بالتقاليد الدينية

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد ناخذه منه في ابواب التوزين والتنويع

ليس في فن النظم جديد ناخذه من الاعاريض الغربية لم تكن عندنا أسسه العريقة ، ولم تكن عندنا أصوله وفروعه او جذوره واغصانه على حد تعبير « الموشحين » لكن الامر يختلف كثيرا في الكلام على « الشعر » او الكلام على الادب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التي تجيش بها الحياة الغربية في كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون ان يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناوله قبل ان يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير

هذه المذاهب الشعرية تعيننا كما تعينهم وتمتد باثارها الى اقوالهم واقوالهم كما تمتد الى اقوالنا وافعالنا

لانها من اطوار الحياة التي لا تنحصر في دوائر الفن ولا في ادوار الثقافة على اطلاقها . وان يكن مظهرها الثقافي هو الجانب الذي يشتغل به النقاد والمؤرخون في ميسادين الفنون

هذه الدعوات اوسع نطاقا من ان يحاط بها في مقال .

ولكنها تقترب من الحصر المستطاع اذا جمعناها في ادوارها الانسانية العامة التي توشك ان تكون امواجاً دورية في هذا المحيط الزاخر ، اذ هي عالقة بطبيعة الانسان في جملتها ، وطبيعة الانسان واحدة كما قيل في كل زمان ومكان ..

ونحن نعلم ان ابقراط حصر الطبائع الجسدية في اربعة امزجة ، وهي المزاج الدموي والمزاج الصفراوي والمزاج البلغمي والمزاج السوداوي . ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الاجسام بين الهرمونات وعائلات الدم وودائع الوعي الباطن والوعي الظاهر اقساماً لا تنفذ ولا تحصى - فعاد الى الامزجة الابقراطية تيسيراً للفوارق العامة وجعلها اساساً لتجاربه النفسية التي تعد الى هذه الساعة من احدث تجارب العلماء

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفني في الانسان الى اقسامه الخالدة حين نقول : ان الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلاباً للجديد ، او انهم كانوا اذا اكتفيناً بقسمتهم الى قسمين اثنين : صنفاً يمشى في وسط القطيع وصنفاً ينزع الى الاطراف ، امام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد تفككه بعض الجادين فأطلق على الصنف الاول اسم فريق الضان وعلى الصنف الثاني اسم فريق المعيز ...

ونرى من تاريخ الامم الغربية منذ ملكت حرية التفكير انها دارت دورتها بين مذاهب الادب خلال القرون الثلاثة الاخيرة ، وانها نزعت في دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها اطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد

ففي فترة اليقظة الاولى كان من الطبيعي ان ينزع الانسان الى استقلال « الشخصية الانسانية » في وجه



التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والاحكام التى تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور فى أكثر الاحوال ، وهذه هى النزعة التى سميت بنزعة الابداع و « الحرية » الشخصية  
Romanticism

ومن الطبيعى أن ينتهى هذا الابداع من كل جانب على غير هدى متفق عليه - الى شىء من الفوضى والشرد يستحب معه التوقف الى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود الى الاتباع والاطراد على نحو جديد يناسب مطالب الزمن ، فنشأت من ثم دعوة الاتباع او الاطراد الجديد  
Neo Classicism

وإذا حكم اختلاف الطوائع حكمه بين أنصار الواقع وانصار الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Realists والخياليين المثاليين Idealists

وقد يظهر هذا الاختلاف فى صورة أخرى بين الطبيعيين Naturalists وبين الفنيين انصار الفن للفن Art for Arts sake ونقول ان الواقعيين والطبيعيين متقاربون لانهم جميعا من أنصار الواقع ، وانما ينفرد الواقعيون بمحاربة النزعات الخيالية ، وينفرد الطبيعيون بمحاربة النزعات الصناعية : نزعات الاغراق فى التزويق والتنسيق . وإذا اقترنت هذه المذاهب جميعا فى عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول فى هذه الحالة الى قسمين : قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منها لكثير من الآراء واشتات من الاساليب

ولا جدوى من متابعة العناوين التى تنتهى فى الغرب بصيغة النسبة المذهبية Ism فانها تنطوى جميعا فى هذه الدعوات ، ويحيط كل منها بعالم من الآراء والاسباب . ولكننا نجعلها فى حدودها الواسعة اذا

اكتفيننا منها بالرومانيزم والنيوكلاسيزم والريالزم  
والايدليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد  
يناط به عمل من أعمال البناء والاصلاح في عالم الفنون ،  
ولا تزال حتى اليوم وافية بأغراض البحث والمناقشة  
بين المختلفين على الفنون فيما يستحق الخلاف

وعلى تعدد المذاهب والعناوين في الغرب لا نرى هنالك  
لبسا على الاطلاق بين المذاهب التي اشرنا اليها وبين  
عشرات المذاهب التي ينتحلها الدعاء على  
عجل منذ الحرب العالمية الاولى ، ويندر أن تعيش احداها  
أو تستقل عن سواها بصفة من الصفات التي يتناولها  
التطبيق والتمييز

فلا لبس على الاطلاق بين مذاهب الجذ ومذاهب الهزل  
في الاداب الغربية ، فمذاهب الجذ تدعو كلها الى البناء  
وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل  
لا تتحدث بشيء غير الهدم والالغاء فلا لون ولا شبه  
ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا لفظ ولا معنى  
ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر ، وانه لمن الحظ  
الحسن أن تقصر هذه الدعوى عن الفنون التي ترتبط بها  
ضرورات المعيشة والاجتماع ، فانها لو تناولتها لسمعنا  
بفن المعمار الذي لا حجرات ولا جدران ولا حجارة  
ولا طلاء فيه . وسمعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز  
بين الضوضاء والالحان ، ولا محل فيها للمعازف والآلات  
من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية

Futurism أو فوق الواقعية surrealism أو الذئبية Futurism  
... بل منها ما يسمى بمدرسة التأتاة Dadaism ويقول  
أصحابه انهم اختاروا له هذا الاسم من أول تآتات الطفل  
Da Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق  
به على السنة الاطفال . ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاء أن

التعبير الصحيح عن النفس الانسانية امر يرجع الى صورة الطفولة ورموز الاحلام وخفايا الوعي الباطن كما تبدو للحالم في المنام او كما يرسلها الناطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه!

ومن هؤلاء الملقين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لانه يبحث عن المعنى ولا يكتفى بوقع اللفظة في الاذن او من منظرها للعين القلونة . فمن عناوين مارينتى امام المستقبلية « زانج تمب تيايم » Zang Tumb-Tuum ومن عناوين زميله اوردينجوسوفيسى Bifz + 18 ما لا يفهم ولا يترجم . وانما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة + ثم رقم ١٨ )

وقد عقب صاحب تاريخ الادب الايطالى على امام هذه المدرسة فقال انه لم يجاوز حدود السخف في شعره . . ولم يخل كلام المؤرخ من مجامله . لان السخف معنى يوصف بالرداءة . . ولا معنى هنا ولا وصف لردىء او غير ردىء (١)

\*\*\*

ولا بد من وضع هذه الدعوات في موضعها من تاريخ الاداب الانسانية والاداب الاوربية التى تظهر بينها . . فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح انها تمثل جانب السخافة الذى لا بد أن يتمثل في بيئة يباح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارئ ، ولا يخجل فيها العاجز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجاجته ، وهم جميعا فى غمرة من محسن

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الادب الايطالى تأليف « ارنست هانش ولكنز »

الحروب واغتنم والقلاقل والافات . فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة في الاذواق والدعوات ؟ وأين هو هذا الجانب أن لم يكن هذا مظهره الذي يتمثل في صوت القنوت ؟

ولسنا نقول ان هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت اليه ، فانها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الامراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتداء بها واعتبارها من مدارس الفن والادب ونماذج الذوق والجمال

ولا تفوتنا في معرض الكلام على الشطط الفني ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذي يقال عنه انه هو الفن الصحيح أو انه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعي الباطن والسريرة الانسانية في أعماقها « اللامنطقية » على حد تعبيرهم المأثور

فالخلط الهائر مذهب لم يخلقه دعاة « اللامنطقية » في القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسبقهم احد اليه ، وهو اطلاق العناوين العلمية عليه واستعارتها من دراسات التحليل النفساني أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد في الشعراء والفنانين من يجنح به هواه احيانا الى رفع الكلفة واطراح الحشمة والابتدال في اللفظ أو المعنى أو في كليهما ، فيترسل في الهذر واللفظ كأنه في اجازة من « نفسه الفضلى » كما يقولون ، وينسب الى هذه النزوات شعر الجانة والهزل وشعر الاباحة والجموح ، وينسب اليه كذلك ضرب من الشعر الذي يخيل الى الناس انه محدثهم بالحكم والامثال وهو في أسلوبه الهازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بن سودون اليشبغاوى ( ٨٠١ - ٨٦٨ هـ ) فسي

قصيدته البائية التي يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب

بقر تمشى ولها دنب  
ولها في يربزها لبس  
يبسو للناس اذا حلبوا  
ولا تغضب يوما ان شتمت

والناس اذا شتموا غضبوا  
من اعجب ما في مصر يرى  
الكرم يرى فيه العنب

والنخل يرى فيه بلح  
أبضا ، ويرى فيه رطب  
زهر الكتان مع البلس

ان هما لوانان ولا كذب  
كيهود في دير ، خاطوا  
بنصارى حركهم طرب

وادخل من هذا في باب « اللامنطقية » مذهب من  
مذاهب الزجل في اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الادوار  
المقصودة ، فيبدأون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنون  
الى نهاية الزجل ، ويحفظ من هذه الازجال كثير في  
مجموعات هذا والاجيال القريبة ، من أمثلتها في كتاب  
ترويح النفوس لحسن الآلاتي زجل يقول فيه :

كسرت بطيخنة رأيت العجب  
في وسطها أربع مداين كبار  
وفي المسداين خلق مثل البقر  
في كل واحدة أربع قواعى حصار  
وفي القلاع اقوام طوال اللاقون  
ودمعهم يجرى شبيه البحار

من دمهم تزرع نجوم السما  
في خلقة الشمس عديم المثال  
وأحيانا يقسمون الادوار الى دور صاح ودور سكران .  
او يصوغون فيها المفارقات على السنة الصبيان كما  
يجرى على السنة العامة :

يا ليل يا عين معرفش اكذب  
والضفدعة شايلة مركب  
وأبو فصاده ريسها  
والقط الاعور حارسها

الى اشباه هذه « اللامنطقيات » المتواضعة التي يضعها  
أصحابها في مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم  
أن تكون « منفسا » يستبيحونه الى حين ويعرضون به  
« اللامنطقية » في صورة فنية ، ويعلمون ويعلم الناظرون  
انيها أنها من قبيل الصور الهزلية أو « الكاريكاتور » ، ولا  
يطلبون من الانسانية أن تحلها في محل فنونها وان تنبذ  
المنطق في سبيلها

فاذا كان لا بد من هذه اللامنطقية في الاداب العربية  
فعندها منها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل  
من دائرة العقل ولا بالجنون من دائرة الجنون

## الشعر أسبق أم النثر؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في إحدى روايات «موليير» التي استوى بها على عرش الفكاهة المرحة في الآداب الفرنسية ..

ومدار الفكاهة في شخصية جوردان أنه غنى من محدثي النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايفة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التي لا تخطر على البال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقوالهم ، فإذا هو كما قل يتكلم « النثر » طوال حياته ولا يعرف ذلك حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخيّل إليه أن النثر هو ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيّل إذن أن كلامه طول حياته داخل في ذلك التعريف ، وأنه كاد أن يقضى بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. لولا أنه تلقى الخبر أخيراً من الأستاذ

إراد موليير أن يجعل السيد « جوردان » مضحكا بهذه العبارة فأفلح فيما أراد وضحك الناس مما قال ، لأنهم أدركوا على البديهة من غير تطويل في البحث

والاستقصاء أن السيد « جوردان » مخطيء في تصوره  
الساذج ، وأن النثر شيء غير مجرد الكلام الذي لا ينطبق  
عليه تعريف الشعر : وهو الكلام الموزون المنظوم

فاذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضروري اللزوم  
في هذه الحالة أن يكون نشرا لا محالة . قد يكون كلاما  
وليس بشعر وليس بنثر ، لأن المقصود بالنثر هو التعبير  
الادبي في غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ،  
وقد يتكلم الانسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ،  
اذا كان كلامه خلوا من التعبير الادبي في المنظوم والمنثور

واذا سأل السائل : أيهما أسبق ، الكلام أم الشعر ؟  
فلا محل للخلاف ولا لاطالة الروية قبل الجواب ، فان  
اللغة سابقة للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء .  
ولكن السؤال الذي يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ،  
الشعر أم النثر ؟ ونعتقد نحن ان الشعر أسبق من النثر  
بزمن طويل . نعتقد هذا ولا نحسب أن الدليل القاطع  
في تقرير هذا الرأي مستطاع ، ولكنه رأى يقوم على  
انقراض التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقضه من  
الواقع شيء معلوم حتى الآن

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب  
ومن النافرين على العموم ، اذا صرفنا النظر عن الكلام  
المكتوب أو المحفوظ في الاوراق

فشعراء العرب في الجاهلية لا يسبقهم نثر ، ولا يحفظ  
العرب كلاما منشورا يقترن تاريخه بالتاريخ الذي نظموا  
فيه قصائدهم الروية ، وما بقى من كلام الكهان المسجوع  
فهو - ان صح - أدل على قدم الشعر والقافية ، لأن  
الكلام المقفى محاكاة للشعر الذي تلتزم فيه الاوزان  
والقوافي ، ودليل على سبق الكلام المنظوم للكلام المنثور ،  
ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لأن التاريخ



لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر من العصور  
ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء في أقدم العصور  
أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا . ولم تزل اسجاع  
الكهانة غير أوزان « الشاعرية » في طبيعتها وموضوعها ،  
فالكاهن لا يتدرج من السجع الى النظم والشاعر لا يتعلم  
الكلام الموزون من المرانة على الكلام المسجوع

والآداب اليونانية هي مرجع الباحثين عن أوائل الآداب  
الاوربية القديمة ، وهي شاهد آخر على سبق النظم  
للشعر في جميع الآداب ، لان « هوميروس » قد نشأ في زمن  
سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه في  
بعض الأقوال « أرشيلوكس » انذى أشار في قصائده الى  
كسوف الشمس ، وحسب الفلكيون انه كسوف أبريل  
سنة ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل  
الميلاد ، وليس في المحفوظات اليونانية كلام منشور يرجع  
الى ما قبل التاريخ . وكل ما بقى من الكلام المسجوع  
الذى يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ،  
أو من قبيل السجع الذى يستعان به في الخطابة ، وأقدم  
ما ورد من ذكره لا يرجع الى عصر سابق لعصر الناقد  
المعروف ثراسيما كوس *Thrasymachus* وهو من أبناء  
القرن الخامس قبل الميلاد

أما الادب اللاتينى فقد كان من الواجب ان تنعكس فيه  
هذه القاعدة لانه الادب القديم الذى امتاز بالرسائل  
الماثورة لسعة أطراف الدولة وتجدد الحاجة الى المراسلة  
بين سكان تلك الاطراف المترامية ، ومنهم الادباء والبلغاء  
ولكن الثابت مع هذا ان الاغاني اللاتينية سابقة  
للملاحم والقصائد في لغة اللاتين بعد تطورها ، وأن  
مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب

وأصحاب الرسائل المنتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد  
الأديب الخطيب

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والأوربية  
شبيهه بالمأثور عن آداب الأهم الشرقية في جملتها ، فليس  
في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيتها  
الشعبية الأولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة  
بمحفوظاتها من الشعر الموزون

وقد يخطر على البال أن السبب راجع إلى الحفظ  
لا إلى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق  
كما بقي الشعر ، لأن الكلام الموزون أيسر حفظاً من الكلام  
المنثور . ولكنه خاطر مردود يسهل تقضه بقليل من  
الروية فيه ، فإن سهولة الحفظ نفسها تحتاج إلى  
التعليل ، وليس لها علة إلا أن يكون الكلام المحفوظ  
أقرب إلى الطباع وأدنى إلى الفطرة وأغنى عن الصناعة ،  
وأن الكلام الذي يصعب حفظه بغير التسجيل في الورق  
يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفي فيه الاعتماد على  
الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعرفة الأدوات  
الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه إلى التدوين  
بغير الوسائل الفطرية ، وهي وسائل الحفظ والتحويل  
على الذاكرة

وقد يبدو للسيد « جوردان » أن تأخر النثر عن النظم  
شيء غريب ، لأنه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة ،  
وهي ولا شك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء

لكن السيد جوردان مضحك كما أراد مولير ، ومضحك  
كما رأينا من فهمه لكل شيء . فأنواقع أن تأخر النثر عن  
النظم ترتيب طبيعي لا غرابة فيه ، إذ كانت شروط  
الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ،

ويكفي لظهور الشعر أن تظهر في إنسان من الناس ملكة غنائية ، وهي من أقدم الملكات في الأحياء . أما الكلام المنشور فما الحاجة إليه في المجتمعات الأولى ؟ وما أكثر الشروط الصناعية التي ينبغي أن تتوافر في المجتمع قبل شعوره بالحاجة إليه !

ولا نخلط بين الخطيب والنثر فهما شيئان مختلفان ، فإن الخطابة في المجتمعات الأولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة النثر البليغ ، ولكننا - على فرض التشابه بين الخطابة والنثر - قد نتصور ظهور الشاعر قبل ظهور الخطيب والنثر ، لأن ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء « القبيلة السياسية » التي تستمع إلى الخطباء في شؤونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التي تهتم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات

والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث إلى الكلام البليغ يأتي بعد الباعث إلى الغناء ، فقد تغنى الحي الذي لا يتكلم ، وليس بالمعقول أن يصل الحيوان الناطق إلى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه في النغم الموزون



في حديث مروى عن أستاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك - رحمه الله - أنه كان يعجب للذين يعرضون أنفسهم على محطة الإذاعة المصرية للغناء وهم لا يفرقون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وأنه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل أن يميز بين الحروف وأنواع الخطوط . وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فإن الأخرى أن يقال إن المعنى

الذى لا يعرف أسماء المقامات والانغام كالشاعر الذى  
لا يعرف أسماء البحور والاعاريض  
وقد وجد الغناء قبل أن توجد أسماء مقاماته وانغامه ،  
ووجد الشعر قبل أن توجد أسماء بحوره وأعاريضه . .  
لكن العجيب حقا هو أن يوجد نثر قبل أن توجد  
الحاجة الى التدوين ، فحيثما وجد النثر فهناك جماعة  
تحتاج الى تدوين الكلام ، ولو لم يكن صاحب النثر نفسه  
هو الذى يدون ما يقول ، بالحروف أو بغير الحروف  
ولهذا نرى أن سبق الشعر لا عجب فيه ، وأن سبق  
النثر فيه شيء من العجب ، وأن أولاهما بالسبق هو  
اغناهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على  
الاكتفاء بالفطرة على أبسط ما تكون

## الشعر لازم

الشعر لازم فى عامنا هذا كما كان لازما فيما سلف من  
ألف السنين ومئات العصور

لاينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل . .  
بل هو آزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها  
اخواتها من صفائح الحديد والخشب والالات انصار  
والكهرباء

وكلما غلبت المادة وصفائجها والآتها تحسس الانسان  
مكان روحه ، وارتد الى قرارة عواطفه ووجدانه ، يطمئن على  
نفسه : الا يزال انسانا بعد ، او هو قد فقد الانسانية فى  
كيانه وصار مع الصاروخ واخواته آلة من الآلات ، وقطعة  
من الخشب والحديد ، وشواظا من النار والكهرباء

وما كانت بالانسان حاجة الى ان يتلمس دخيلة حياته  
بين جنبه ، يوم كانت عشرته من الاحياء ، وطعامه من  
خيرات الاحياء ، ومقامه بين صنوف الاحياء ، ورحلته على  
متون الاحياء

ولكنه فى عصر الصاروخ ، أحوج مايكون ان يتلمس موطن  
تلك الحياة ، وان يستمع الى نجوى فؤاده بلسان الحياة ،  
وان ينظم الشعر ويحن الى النغم ويشهد صور الجمال  
والعطف فى كل منظور ومسموع

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر واخواته من فنون  
الجمال ، اذ كان الناس لم ينظموا الشعر لانهم بحثوا عن  
الصاروخ فلم يجدوه ، وانما نظموه لانهم يحسون وينطقون  
ولانهم يترقون مع الزمن فيزدان النطق عندهم بالجمال ،  
ويحسن الانسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيوان ،  
ويستطيع من النظم ما ليس يستطيعه الطير بالتفريد ،  
ولا الخيل بالصهيل ولا سباع الفاب بالزئير

ولئن سبق الصاروخ الطيارة لن يسبق الصاروخ  
سبحات الخيال ..

لقد سبقه الخيال يوم تحدث للانسان عن حصان  
الابنوس ، وعن أجنحة واق الواقي ، وسبقه الخيال فأملى  
على الصانع كيف يكون الطيران بالقوة ، وكيف يكون  
الطيران بالخفة ، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين  
الا طيران في الهواء بغير أداة أخف من الهواء ، عجزا منهم  
عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال ، وانما  
هي القوة يطير بها ذو أجنحة كما يطير بها الحصان الطيار  
ان الشعر لازم للانسان الناطق ، مادام ينطق ويعقل  
ويترقى بالنطق في معارج الكمال ومعارض الجمال

ان الشعر الزم ما يكون للانسان في عصر الصواريخ ..  
وان حفاوتنا به في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ  
تشرفه وتعليه ، لانه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها  
الانسان كيف يكون انسانا بالمنطق الساحر والمسان المبين  
وفي الغرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة ،  
وآيات كهذه الآية ، تنويها بلزوم الشعر وعنوانا على اللهج  
به والحرص عليه

في السنوات الست الاخيرات - سنوات الصاروخ -  
صارت الجائزة العالمية للادب الى ستة من الادباء : خمسة

منهم شعراء ، وهم خيمينيز الاسبانى ، وباسترنالك الروسى  
وكوميميدو الايطالى وبيرس الفرنسى وسيفريس اليونانى  
ومهما يكن من الراى فى انصاف جائزة نوبل العالمية ،  
أو فى نظرتها الناقدة الى الآداب والفنون فلا نكران عليها  
انها علامة من علامات الزمن بصوابه وخطئه ، وبما يراه  
من لزوم ومالا يراه

ولا علامة للشعر اللازم فى هذا الزمن ، اصدق من العلامة  
التي تدل على امم خمس : بينها من المشابهات والفوارق  
ما بين الاسبان والروس والطيان والفرنسيين واليونان



اذا لزم الشعر فى لغة من اللغات فانما يلزم لا لزم  
ما فيه والزم ما فى الشعر انه فن من الفنون

والزم ما فى الفن انه ذو قواعد واصول ، توائم فى كل  
لغة ما طبعت عليه تلك اللغة ، وتوائم فى اللغة العربية -  
خاصة - انها لغة الوزن فى كل كلمة وفى كل صيغة ،  
فليست فيها كلمة واحدة تنزل من وزن اشتقاق أو وزن  
سماع ٠٠ لا شعر بغير فن ٠٠ ولا فن بغير قاعدة

والذين يقولون بغير ذلك يقولون عجباً يستغربه السامع  
ويستغرب الذى يسمع ويفقه ما يقال كيف يصفى اليه  
السمع وكيف يستجيب له الفهم ، وكيف يتكرر بعد  
تكرار اللسان فيه

يقولون ان قواعد الوزن تدعو الانسان ان يقول مالا  
يلزم ، تكملة للوزن حيث لا محل له من الكلام

هل يقال هذا فى الشعر وحده أو يقال فى شتى الفنون  
عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟  
ماذا يصنع منشد الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟  
الا يزيد المغنى فى غنائه ليطابق فيه بين الالفاظ والالحن؟  
انبطل الالحن لانها تسومنا المد فى الصوت وراء  
مايلزم . . كما يقال ! او لانها تسومنا الزيادة فى الحروف  
والكلمات وراء ماتم به جملة المتدا والخبر او جملة  
الفعل والفاعل ، او جملة المحمول والموضوع ؟  
انبطل الرقصة التى تسوم الماشى أن يخطو فوق خطوه  
او يقصر عنه باختياره ؟

ان الفنان لا يضع فى مده او زيادته غير مايلزم ، بل غير  
اللازم قبل كل لزوم : وهو رعاية الفن والقاعدة فى  
الفنون . وليس الوزن زيادة فى المقال بل هو قوام المقال  
كله ، الا أن يكون من غير الفنون . وانما اشعر تفاعل  
كامل بين اللفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية فى وزن  
او نظام مقدور

وملكة الشاعر هى الملكة التى تقدر على هذا التفاعل  
بغير حشو او فضول ، او يكون الحشو والفضول - ان  
كانا - زيادة للمعنى وتوكيدا للآثر ، لا وقرا محملا عليه ،  
ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا اليه

وكل بيت فى الشعر المطبوع آية على صدق هذا  
التفاعل التام بين الالفاظ والمعانى والاوزان ، وآية على  
لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه

امامنا مثل من ابيات لامرئ القيس وصفا للفرس :

وقد اقتدى والطير فى وكناتها

بمنجرد قيد الاوابد هيسكل

مكر مفسر مقبل متدبر مما

كجلمود صخر حطه السيل من عل



كملت يزل اللبس عن حال متنه  
كما زلت الصفواء بالمتنزل

لاشك أن كلمات « الهيكل » و « من عل » و « المتنزل »  
قد جاءت لوزن القافية التلامية

ولكن هل هي زائدة ؟ كلا . . . ونجرب حذف الهيكل  
لنرى كيف ينقص المعنى والاثار ، ولو كان من الكلام  
المنثور

نقول مثلاً : « اتنا نفدو مبكرين قبل نهوض الطير  
بمنجرد قيد الاوابد . . .

فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم  
والمنظر ، وانما يتم ذلك كله حين نقول انه قيد الاوابدهيكل  
أى أنه ضخيم جسيم

ولقد يقال ان كلمة اخرى تحل محل « هيكل » حين  
نقول « ضخيم أو جسيم أو مكين »

فهل ترانا نشعر باثر لهذه الكلمات كما شعرنا باثر  
الهيكل فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصورة  
والمثال ؟

جواب ذلك عند من يهتمون القافية بزيادة الفضول ،  
ان لم يكن جوابهم هنا من فضول المقال

ونأتى بعد ذلك الى كلمة « من عل » وهي اتى تتمم  
وصف الجمود وهو ينحط مع السيل ، فهل يتم  
الاثار بحذف هذه الكلمة ؟ هل التذكير بانحطاط الحجر من  
الاعلى فضول وزيادة بغير مدلول ؟

وهل ذكر المطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من  
اللفو أو هو مما يتمم هذا الوصف للمطر بالمتنزل والزلي  
عن متن الصفواء في هذه الحال

وأبيات غير هذه الأبيات من كلام المعري يقول فيها  
مفتخرا :

إلا في سبيل المجد أنا فاعل  
عفاف وأقدام وحزم نائل  
أعندى وقد مارست كل خفية  
يصدق واش أو يخيب سائل  
تعد ذنوبى عند قسوم كثيرة  
ولا ذنب لى إلا العلا والفضائل  
فمما لاشك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد  
جاءت فى مواضعها هنا لان القافية لامية  
ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى ؟

ولماذا نقول معنى غير هذه المعانى التى تؤدى بهذا  
النظم وهذه القافية ؟

ولماذا نعدد فضائل أخرى تزيد على هذا العدد ؛ أو  
تنقص منه ، بعد ذكر العفاف والأقدام والحزم والنائل ، ؟  
وإذا كانت كلمة العطاء مثلا تؤدى معنى كلمة النائل ،  
فلماذا نفضلها عليها

ويقول ابن الرومى فى وصف مغن كريبه الصوت والغناء :

أبو سليمان لا ترضى طريقته  
لا فى غناء ولا تعليم صبيان

له إذا جاور الطنبور محتفلا  
صوت بمصر وضرب فى خراسان

فمما لاشك فيه أن خراسان جاءت هنا وزانا لصبيان ،  
بل لاشك أن « محتفلا » فى الشطر الأول كلمة لازمة لتمام  
البيت ..

لكن الشاعر قد يقول بدلا من الشطر الثانى : « صوت

بمصر وابقاع ببغداد » اذا كانت القافية دالية . . فماالذي  
يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف النائر كلمة « محتفلا » بعد الطنبور  
فيقول : له اذا تناول الطنبور صوت هنا وضرب  
هناك . . فهل يكسب البيت بحذف هذه الكلمة ويقوى ؟  
أو يخسر ويضعف ؟

ان كلمة « محتفلا » تصور لنا اجتهاد المبنى وتأهبه  
بجلسته وإيمائه واستعداد السامعين للاصغاء الى شيء  
حسن ، فاذا بهم يفاجأون بالصوت الرديء ، فلا يكون  
اثره في نفوسهم كآثره فيها وهم لا يرون ذلك الاحتفال  
ولا ينتظرون بعده الاتقان والكمال . . . فما جاءت «محتفلا»  
هنا فضولا لاجل الوزن ، بل كان تفاعل الكلمة مع الوزن  
سببا لاستدراك نقص واستكمال اثر ، لم يكن لهما في الشعر  
من داع منبه لهذا الاستدراك

اننا نردد اليقين بالشعر اللازم والفن الا لزم . .

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدي  
فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها « تفاعلا » حيا بين نغماته  
وحروفه وكلماته ، تتزاوج فيه جميعا لتزداد بلاغة في الاثر  
وايناسا للسمع ، واشباعا للاداء ، ونفيا للفضول ، وتجاوبا  
بين الوقع والايقاع . . . وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر  
المطبوع . من رزقها قال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها  
فلاحق له في قول الشعر ولا في القول فيه ، ولان يسكت  
فلا يقول شعرا ولا يقول عن شعر خير له وللناس ، وخير  
للشعر والفن وللعقول والاسماع

## التجديد في الشعر

إذا أوجزنا قلنا ان التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره ويصدق في تعبيره فهو مجدد وان تناول أقدم الاشياء . هل شيء في هذا العالم الارضى أقدم من الشمس ؟ ان الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقدم في تصويره مجدد تمام التجديد ، وان لم يأت بكلام جديد

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الارض الربيع ، ويجدد الشباب الامل والحب جيلا بعد جيل

وليست الدنيا عتيقة بالية لانها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الشاعر عتيقا باليا لانه يجيئنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه ، موصوفا على الصورة التي عهدا آدم في جنة افردوس ، ثم عهدا أبناءه في جناتهم على هذه الغبراء ! . . . التجديد - في كلمتين - هو اجتناب التقليد

أما اذا تعمدنا الاسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعا فهي مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الاصح في حاجتها الى التجديد

هذه العناصر هي اللفظ والوزن والموضوع ، وهي على

هذا الترتيب في حاجتها الى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذي يتألف منه الشعر يبقى ألف سنة ولا يطسراً عليه تغيير يذكر ، ويصلح في هذه الحالة لشعر امرئ القيس كما يصلح لشعر البارودي ، مع قليل من التحوير الذي لا يلتفت اليه الا المختصون بتسجيل أطوار الكلمات ونعنى باللفظ هنا المفردات في غير الجمل والأيامات ، وهي المفردات التي تطرا عليها الزيادة القليلة كل بضعة قرون ، او يطرا عليها اختلاف الاستعمال من فترة الى فترة في حياة اللغة الواحدة ، ولا بد للشاعر من متابعة هذه الاطوار وقد يكون هو عاملا من عوامل الزيادة والتصرف في الكلمات

الا ان الجهد في تجديد المفردات يظل على الدوام أقل وأهون من الجهد في تجديد الأوزان وتجديد الموضوعات . فالمعجم الشعري اليوم قريب من المعجم الشعري في عهد أصحاب المعلقات . أما الوزن فقد اختلف في عدد البحور ، واختلف في عدد القوافي ، ولا يزال قابلا للاختلاف ، وفي حاجة الى الاختلاف

كانت أوزان الشعر في الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة قليلة الأبيات . ثم تعددت البحور ومجزئاتها ، وتضاعف عدد الأبيات في القصيدة الواحدة ، وطرا التنوع على القافية في الرجز ثم في التسميط والتشيع ، ثم انتهينا الى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو الى الغاء القافية ونظم الشعر مرسلا او مطلقا على الطريقة الأوربية ، ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح ، ولا نظنها جذوة بالنجاح في المستقبل . لان أعارض الشعر العربي تستلزم القافية من حيث لا تلام في الأعارض الأوربية ، وقد يكون الاطلاق من القافية في الأعارض الأوربية نفسها مقصورا على المطولات والملاحم

التي تصلح للقراءة وقلما تصلح للسمع . والشعر قبل كل شيء سماع

والذي نعتقده أو نشعر به ، أن تنوع القسوافي أوفق للشعر العربي من ارساله بغير قافية ، وانه يقبل التنوع في اوزان المصارع والمقطوعات على أسلوب الموشحات ، فيتسع للمعاني المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا ينفصل عن الموسيقية التي نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لانحتاج الى تيسير اوسع من هذا التيسير ، كائنا ما كان موضوع القصيد وان طال غاية المطال

تجديد قليل في اللفظ ، وتجديد اكثر منه في الوزن ، وتجديد اكثر من هذين التجديدين في الموضوع . فكيف يكون هذا التجديد في الموضوع ؟

ان صرف الشعر الى الاجتماعيات والاحداث الصامة راي من الآراء في تجديد الموضوعات الشعرية ، ويقترن به راي آخر ينلاد بالطابع الاقليمي في الشعر خاصة وفي الأدب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحي أو شعر القصة المسرحية وغير المسرحية ، وكل هذه الآراء مقبولة من ناحية مرفوضة من ناحية ، لان العبرة في الشعر بالملكة التي توحى معانيه ، وليست العبرة بالعنوان الذي تختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية أو عنوان الشعر الاقليمي ، أو عنوان الشئون الاجتماعية والمسائل العالمية

ونحن اذا نظرنا الى الشعر من ناحية الملكة التي توحيه وجدنا أن ملكة الشعر الغنائي قد لارمت القصيدة العربية من نشاتها الاولى ، فهي تتردد بين نغمات الغزل والفخر والحماسة والرثاء ، أو تتردد بين ألوان الشعور الفردي البسيط ، ويندر ان تتخطاه الى الشعور المركب المتوشح،

وهو الشعور المتجاوب بين عدة نفوس على عدة أمزجة  
وفى عدة حالات

فاذا كان للتجديد فى موضوع الشعر وجهة ، فهذه هى  
الوجهة التى أمامنا ، ولتكن سبيلها الرواية المسرحية أو  
الحادثة العالمية أو الأوصاف الإقليمية ، فإنما العبرة بالملكة  
التى توحى المعانى فى جميع الموضوعات ، وليست العبرة  
بالعناوين التى نخلعها على هذه الموضوعات

والفرق بين الشعر الغنائى والشعر المركب المتجاوب  
هو الفرق بين الربابة وبين الفرقة الموسيقية التى نسمع  
منها عشرات المعازف فى نغمات متعددة مع التناسق بينها  
والوحدة فى مجموعها ، وينبغى أن نذكر هنا أن التنوع  
والتجاوب هما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس  
المقصود هو كثرة الآلات التى نعزف عليها فى وقت واحد .  
فإن ألف ربابة توقع لنا لحنًا واحدًا هى أسلوب ساذج  
يغير تصرف . وقد يكون التصرف كل التصرف فى ربابة  
ومزمار ودف وبيان تختلف وتتجاوب وتفلح فى الارتفاع  
بالشعور من البساطة والانفراد إلى التجاوب والتركيب

ولكن الخير أن نقى كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على  
الشعر الغنائى ، إذا كنا ننظم فى الموضوعات الجديدة  
تقليدًا للذين سبقونا إلى النظم فيها ، فإن التقليد نقيض  
التجديد ، والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف  
يحكى الذهب باللون والصورة ولا يحكىه بالمعدن والقيمة

ومن أمثلة الدعوات الزائفة إلى التجديد أن يسمع بعضنا  
بالشعر الأقليمى فى اللغة الإنجليزية - وأكثره من شعر  
الأمريكيين - فيخطر له أن الشعر الأقليمى اختراع واختيار ،  
وينسى أنه واقع طبيعى لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث  
لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة ، وفى أمريكا أقاليم لا تتشابه

فى الموقع ولا فى المكان ولا فى المعيشة ، فهم لا يختارون الاقليمية فى الشعر ولا فى الجغرافية ؛ ونحن هنا نُنستطيع أن نزرع قمحا فى التربة المصرية دون أن يصبح قمحا اقليميا باختيارنا أو بغير اختيارنا ، ومن قال لشاعر : كن اقليميا فقد قال له كن مقلدا . ولكنه اذا كان من طبيعته منتبيا الى اقليمه فلا حاجة به الى الامر والارشاد

كذلك يتول بعضهم متعجبا : هل توحى حرب طروادة الى هوميروس بالليادة ولا تظهر فى العصر الحديث ايادة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

وَو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحى الابتكار فى الشعر لما خطر لهم أن شاعرا عصريا ينبض أن ينظم ايادة فى الحرب العالمية ، لان شاعرا قديما نظم ايادة فى حرب طروادة . من أين لهم مثلا أن هوميروس كان ينظم فى الحرب العالمية ايادة لو أنه عاش فى زماننا ؟

من أين لهم أن ضخامة الحرب هى التى توحى بالنظم فيها ؟ فقد تكون الحرب بين عشرين فارسا متقابلين أعنف فى اثاره النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشهد بعضهم بعضا ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحى حيث كان أرفع من الشعر الغنائى فى كل موضوع . فان الشاعر المسرحى الذى لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائى الذى يتحدث لك عن غناء البلبل فيصدقك الحديث وأشعور ، فكل فضل الشاعر فى الملكة التى توحى اليه شعره دون العناوين التى يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحى على الشاعر الغنائى الا لان الشاعر المسرحى يستطيع شعر الغناء ويستطيع زيادة عليه ، وهذه ازيادة عليه هى العس



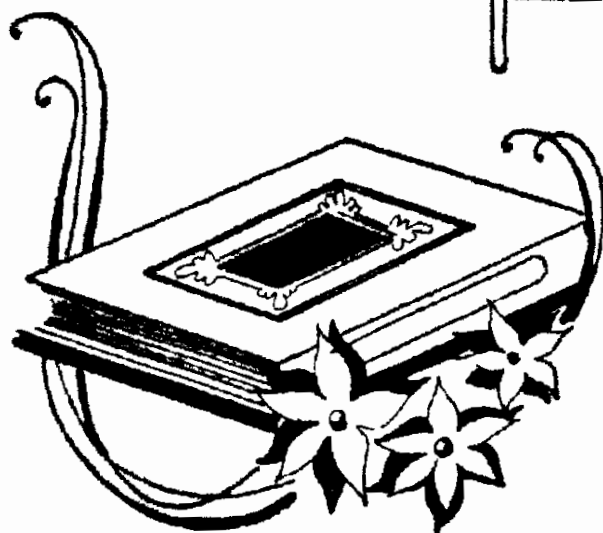
المتجاوب في النفوس المتعددة ، فإن كان يملك هذا الحسن فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضوع الذي يختاره لنظمه ، وإن لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكة هو محروم منها

وإذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هو اجتناب الاختلاق ، والمخترق هو كل من يجدد يُخالف ، وأن لم يكن هناك موجب للخلاف • ان الذي يمشى على يديه يأتي بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشى على قدميه • ولكننا قد نضع في يده درهما وقد نزرع به في مستشفى المجاذيب ، ولا نمشي على الأيدي من أجل تلك البراعة وذلك الاختلاف أو الاختلاق

نجدد فلا تقلد ولا نخترق ، ونحن مجددون كما ينبغي - وكأحسن ما ينبغي - إذا خرجنا بالشعر العربي من لعمري الربابة الى نحن الفرقة الموسيقية ، شعورا منا بتعدد النغمات النفسية ، لا لمجرد المباهاة بكثرة المعازف وارتفاع الضجيج

# أدب وفن

الفصل  
الثالث عشر



## من هو الأديب ؟

---

كان جماعة من « الأدباء » يتحدثون عن وظيفة الأدب الاجتماعية ، فاختلّفوا في الفرق بين وظيفة الأديب في المجتمعات القديمة ووظيفته في مجتمعاتنا العصرية ، فخطر لي أن أسألهم : ومن هو الأديب في المجتمعات القديمة ؟  
إننا نتكلم عن الأدب في المجتمعات قديمها وحديثها كأن الأدب بمعنى الذي نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الأمم وفي جميع الأزمنة ، وهو ولاشك خطأ لا يصمد لأول سؤال

فأنت إذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ماتريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الأديب كما تعنيه ..

ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا إذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على واحد من أدبائكم ؟ ..

إنهم لا يدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وإن كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة الأدب في الأزمنة الحديثة . ولو أنك سألت عن أديب في صدر

الاسلام لفهموا أنك تقصد انسانا بريثا من العنجهية  
الهدوية واللثة الاعرابية :

واتى على مافى من عنجهية

ولثة اعراييتى لاديب

وقد تتحدث الى هذا الاديب الذى يدلونك عليه  
فيخوض معك فى سمر شائق وطرائف شتى من أطايب  
الحديث ، ولكنه قد يرضيك من هذه الوجهة ولا يحسب  
فى زمنه من اهل العلم ، ولا يحسب فى الزمن الحديث من  
زمره الادباء

ولعلمهم يدلونك على مثله فى أنس محضه وظرف  
معشره لو أنك نزلت بمصر أو بقطر من أقطار العربية فى  
أواخر القرن التاسع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب  
من الادباء

أما معنى الاديب كما نفهمه اليوم ، فهو من المعانى  
المستحدثة التى تطورت فترة بعد فترة فى العصور  
الاخيرة ، فكان الاوربيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة  
Man of letters أنه رجل مطلع على الكتب دارس للعلوم ،  
لان دراسة الكتب على اختلافها كانت هى الفارق بين  
العلماء والجهلاء . ثم شاعت الدراسة وتنوعت فعرفوا  
الفرق بين عشرات من الموضوعات التى يطلع عليها  
الدارسون ، ومنها الموضوع الذى خصص لمعنى الادب  
بمدلوله المصطلح عليه فى هذه الايام . . . .

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الاديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد الشعر ؟ أهو

المطلع على سير الادباء والقصاصين والناقد ؟

انك اذا قلت « فلان شاعر » فقد وصفته بغير حاجة الى

وصف الادب بعد ذلك ، وكذلك تصف « القصاص »

سواء كتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة ..  
فاذا قلت عن العارف بالشعر واتقاصص انه اديب قيل  
لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين مؤرخ الادب وناقدا الادب  
وبين الاديب ؟

حينئذ يلوح لك ان دليلك القديم لم يكن على ضلال  
بعيد ..

ونعنى بالدليل القديم ذلك المرشد الذي كنت تسأله  
في العصور الاولى أن يرشدك الى اديب فيسذهب بك الى  
رجل حسن الحديث ..

فالاديب بكلمة واحدة هو «المحدث» في جميع العصور،  
وقيمته في كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه  
ومن يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تسمعه  
الأذان أم تعبره الاعين في صفحات الاوراق

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من الشاعر ،ومن  
القصصي ، ومن الناقد ، ومن مؤرخ الآداب .. أيكون  
الاديب شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشعر  
والقصة ؟ .. أيكون عالما مطالعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ  
غيرهم ممن يحمل بهم التاريخ

نعم ، ولكنه في هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا ، أو  
قصاصا وأديبا ، أو ناقدا وأديبا ، أو مؤرخا وأديبا ..  
ولا يلزم حتما أن يكون واحدا من هؤلاء ليقال انه اديب .  
فهو محدث حسن الحديث ايا كان موضوع الحديث  
وأية كانت صفاته الاخرى التي تقترن بحسن الحديث

وبهذا المعنى كان اديب الزمن اتقديم محدثا في مجلس  
الصحب أو محدثا في مجلس الامير .. وبهذا المعنى أصبح  
أديب الزمن الحاضر محدثا لقرائه ومستمعيه ، ولو لم  
يجمعه بهم مجلس أو مقام

ولم نغزل بوظيفة الأديب لأننا جعلناه « محدثاً » ، ففى  
العصور الأولى أو فى هذه العصور .. فانما انعبرة بما  
يقال وبمن يقال لهم فى جميع الأحاديث

فمن الناس من يحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يحدث  
ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يحدث  
ليروح عن النفس ، ومن يحدث ليكشف للنفس سريرتها ،  
ومن يحدث ليسلى ويلهى ، ومن يسلى ويلهى كرام الناس ،  
ومن يقصد بالتسليه واللهو غير هؤلاء الكرام

وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان شتان بين  
أديب وأديب ..

فلا ينزل الأدب لأنه حديث ..

وانما ينزل الأدب اذا نزل موضوعه ومن يستمع اليه ..  
وقد نزل الأدب فى عصرنا هذا وصعد على جميع هذه  
الدرجات ، فكان من أدباء العربية فى أوائل القرن العشرين  
من يوصف بالأدب لأنه سمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء  
العربية فى أيامنا هذه من يحدث قراءه جميعا كما يشاء  
فيجد من يصغى اليه . وكل ما تغير بين أمس واليوم  
أن الحديث كان بالأمس موقوفاً على سامع واحد أو  
سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجهاً الى مئات وألوف ،  
لعلهم لا يجتمعون بالمتحدث فى مكان

وربما صح أن شيئاً آخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن  
الأدب - حيثما كان بضاعة تنتظر الجراء - لم يكن ينتظر  
جرائمه فيما مضى من غير الأحاد القلائل ، وأن الأديب كان  
يدون أحاديثه فى الورق ليقرأه كل من حصل عليه ، ولكنه  
لا ينتظر الجراء الذى يفنيه فى عيشه من هؤلاء القراء ،  
وانما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه

أما اليوم فالأديب على تقيض ما كان بالأمس ينتظر هذا  
الجزء ممن يوجه اليهم حديثه على يد المطبعة أو المذياع ،  
وهم مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير  
زمنه ، لا يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الاحوال

وذلك هو باب الخير الكثير . . . وذلك أيضا هو باب  
انشر المستطير . . .

لأن استغناء الأديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له  
باب الاستقلال في المعيشة والاستقلال بالرأى ، والاستقلال  
بالشعور

الا أنه قد يغنى عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهنه  
الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر من استعباد  
الأحاد

وليس من الحتم أن تستعبد الجماعة محدثها ، لأن  
الجماعة طوائف شتى من الناس ، ولن يحدث هذه  
الطوائف أن ينص الحديث لمن شاء منها ويضن به على  
غيره ، وأن يقنع بالمهذب الكريم من سامعيه ويطوى  
كشحه عن سواه ، فله ولا شك أن يختار وأن صعبت  
عليه الموازنة بين أسباب الاختيار

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين  
يشاء ، فيتحدث « المحدث » العصري وحده ، كأنما  
يتحدث لنفسه . . . ويسمعه من يريدون أن يسمعوه ،  
وهو لا يأخذ نفسه بكلفة الجليس في محضر الأمير أو  
أشباه الأمير

وهو على كل حال «محدث» على نمط العصر وأسلوبه،  
وظيفة للمحدث القديم على ما كان لعصره من نمط  
وأسلوب

وليس لوظيفة الادب في اعتقادنا تعريف أصدق من

هنا التعريف ، فانه هو التعريف الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين الشاعر والراوي والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك ان يأخذ بسهم أو سهوم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من مواد الحديث

فمن هو الاديب في كل عصر من العصور ؟ هو المحدث في كل مجتمع ، على اختلاف العصور .. وتسال مرة أخرى : هل الادب اذن وظيفة اجتماعية ؟

فان اردت ان الحديث يجرى بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالادب ولا شك وظيفة اجتماعية ..

ولكنك خليك أن لا تنسى بعد هذا ان الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه في كل حديث كائنا ما كان قائله ومستمعه ، فان الناس جميعا أعضاء في بنية جماعة ، ولا يحسن التحدث منهم الا الأحاد المعدودين ..

كذلك لا تنس أن الاديب في مجتمع هذا العصر يستطيع أن يكلم نفسه ولا يحسب من المجانين بل من صفوة العقلاء .. أو يضمن المستمعين اليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالاصفاء



## الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة لواقع ...  
ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بإدراك  
الحواس ؟ أو نطابقه بالأغاظ اللسان ؟ .. أو نطابقه بوعى  
القرينة والخيال ؟

كل أولئك مطابقة .. وكل مطابقة من هذه المطابقات  
صدق على حسب ذلك التعريف ، ولكنها على هذا تختلف  
فيما بينها أوسع اختلاف في التعبير والتمثيل

فاذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت في وصفه  
حين أقول انه رقعة من الأرض ذرعا ألف ذراع ، يتخللها  
جدول ماء ، وفيها ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من  
فصيلة كذا وكذا في علم النبات ..

وصدقت في وصفه حين أقول انه جميل مريح ..  
وصدقت في وصفه حين أقول انه يتألق كما تتألق  
العيون ، ويزدهر كما تزدهر الوجنات ، ويفتر كما تفتر  
الثغور ، وتمرح فيه النظرة كما يمرح صفو الشباب في  
الصبايا الحسان ، وتتغنى فيه العصافير كما تتغنى  
الوصائف الثملات في الأعراس ..

أما إذا قلت انى رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولمحت

فيه أحداقا مؤتلفات ، واستخفني المرح من قدود  
حسانه ، واستطارني الطرب من ألحان عيدانه ، فما أنا  
بكاذب ، وما أنا بمخالف لما قلته في تلك العبارة التي  
أوردتها مورد التشبيه ، وكل ما هنالك أنني حذف  
الكافات والكأنات ، واعتمدت على فطنة السامع في فهم  
هذه التشبيهات .. فعبرت عن الواقع بأسلوب يختلف  
في اللفظ ولا يختلف في المدلول

ان كان هذا هو الكذب الذي أرادوه حين قالوا ان  
« أعذب الشعر أكذبه » فهذا هو الواقع بعينه فيما  
نراه

وغاية ما في الأمر أننا نطابق الواقع هنا بوعي القريحة  
والخيال ، ولا نحب أن نطابقه بلفه الحس ، أو بلفه  
الحساب والإحصاء ..

وايا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال ..

\*\*\*

مثل آخر قريب من هذا المثل ..

أعرابي غمر يغرب في رحلة مهلكة في مفازة موحشة ..  
تسأله فيقول لك انها عامرة بالغيلان والسعالى ،  
متجاوية بأصداء الجن والعمفاريث ، من يسلكها لا يسلم  
من شر سكانها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمر  
جديد ..

هذا الاعرابى الغمر كاذب ان شئت ، ولكن في حساب  
واحد ، هو حساب الرحلات الجغرافية والمباحث العلمية  
فان الرحالين والباحثين يجوبون تلك الصحراء  
ويعودون منها فينونون وهم صادقون : ما عثرنا فى تلك  
الصحراء بسعلاة ، وما السعلاة التي ذكرها الاعرابى  
مما يمكن العثور عليه ..

ولكنه اذا كذب في حساب الجغرافيين أفما من حساب  
آخر هو صادق فيه ، أو مطابق للواقع فيما يدعيه ؟ ..  
بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق  
للواقع كل المطابقة ، وهو حساب الشعور والخيال ..  
لانه وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك  
من الغول والسعلاة والهلاك من الوحشة والانقطاع  
وغاية ما في الامر انه وصف الخوف محذوفا منه  
الدافات والكائنات ، ولا يزال صادقا حين قال لنا : ان  
من يسلم من شر تلك المفازة فقد كتب له عمر جديد ..  
وكذلك قل في عرائس البحار ..  
وكذلك قل في كنوز الارض وما يحرسها من المردة  
والشياطين ..  
وكذلك قل في همسات النسيم ونجوى الأنفاس ..  
وكذلك قل في كل واقع تطابقه بالشعور والخيال ،  
ولا تقصر المطابقة فيه على اللمس والعيان ..

\*\*\*

وننتقل الى الشعر الذى يتمثل فيه هذا الضرب من  
الواقع فنذكر بيت أبى الطيب فى وصف الاسد :  
ورد اذ ورد البحيرة شاربا

ورد الفرات زثيره والنيلا  
فعلماء الطبيعة يقولون لك أنه كذب .. لانهم يقيسون  
سرعة الصوت فى الهواء ، وسرعة الصوت فى الماء ،  
ويقيسون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدر  
النسبة التى يتخافت بها الصوت فيجدون ان زئير  
الاسد انذى وصفه أبو الطيب لا يصل الى النيل ، ولا  
يصل الى افقرات ..

أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ ..

ان قلت نعم مع عاماء الطبيعة ، قلت لا على الاثر مع  
سامع ذلك الزئير ..

لان زئير الاسد ملاً جوانب نفسه وشاع في منافذ  
حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر ..  
ورهبة تملأ كل مكان في دنياه ، خليقة ان تملأ كل  
مكان على وجه الارض ، ولو في انساعة التي ملأته الرهبة  
فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع في لحظة  
من اللحظات ..

ولو ان أبا الطيب قال يومئذ في وصف شعوره بزئير  
الاسد انه وصل في الدقيقة الى بعد كذا من الاميال لما  
خائف الواقع في حساب العلم الطبيعي ، ولكنه لا يذكر  
لنا شيئاً عن الواقع في طبيعة الشعور  
وهذا هو الواقع الذي يعنينا وبغيبه من وصف الاسد  
وزئيره ..

كذلك يقول البحترى في وصف ابناء السامق :  
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه

من منظر خطر المزلة هائل

فيصيب في تمثيل الذعر كما يحسسه الواقف على  
شرفات ذلك الصرح ولا يخطيء الا من ناحية بعيدة من  
هذه الناحية ، لانه يقول عن الحمام المدعور انه يترنم ،  
وللترنم حال لا تشبه حال مدعور ..

ويقول أبو العلاء في سخرية الموت والحياة :

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزامم الاضداد  
والواقع ان اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه ان يسخر  
اذا استطاع ، وان هناك سخرية في تعاقب الموتى على  
مكان واحد يكرهونه ، ويتزاحمون عليه كأنهم يشتهونه -  
فاذا أعرنا اللحد سخريتنا فنحن لم نغير من أسخرية

ولا من اواقع ، ولكنها « استعارة » لا تضيع معها  
الحقوق ! ..

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب ..  
فلن يكون الفن جميلا اذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع  
ولكن أى واقع ؟ .. وأى مطابقة ؟ ..

الواقع فى الشعور ، والمطابقة تذك الشهور ، وهى  
مطابقة لا ريب فيها ، ومطابنة اصدق من كل مطابقة  
أخرى ، اذا كانت المطابقات الاخرى خلوا من تمثيل  
ما نشعر به ونؤديه فى فن من الفنون ، سواء أديناه بالقلم  
أم بالريشة أو بالازميل أو بالوتر والمزمار ..

ويصدق على الواقع التاريخى ما يصدق على اواقع  
الحاضر أمامنا ..

فمن مثل لنا بطلا فى غير عصره فأحسن تمثيله فهو  
صادق فى الفن كاذب فى التاريخ ، أو شاعر حسن  
ومؤرخ ردى ، نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه  
الصدق فى حسه وخياله ولا اتقدرة على حسن تعبيره  
وتمثيله .. فنمنحه درجة النجاح فى الشسر ونضن  
عليه بها فى التاريخ ..

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا ابدا ، لانه لا بد له  
من مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة فى  
الشعور ..

وتقد قيل عن ارواح شكسبير وعفاريتها انها لو برزت  
الى عالم الحياة لما برزت فى غير الصورة التى تصورها  
.. وما قيل عن المخلوقات الخيالية فى شعر شكسبير يقال  
عن كل مخلوق خيالى يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها  
ونتصورها فيه ، لانه ولد من شعورنا ، فان لم يطابقه  
فلا صلة بيننا وبينه فى عالم الحس ولا فى عالم الخيال

## المدرسة الرمزية

### ١ - حب الأزياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوروبية ، وكان بلاطها انقخم مصدر المراسم والتقاليد في ارجاء الغرب كله ، تصدر عنه الأزياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ، وكان لها الشأن - كل الشأن - يومئذ في جميع البلدان . فلا تنقضى فترة يسيرة من الزمن دون ان يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزى جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الآداب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والأزياء . فلما بدأت نهضة الأحياء الحديثة باستحياء الأساليب اللاتينية واليونانية رحب بها طلاب الجديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمط جديد . فتوائت الأنماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرناسمية الى المدرسة الرمزية ،

الى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء  
الواقعية تارة اخرى ، ولا تستقر طويلا على حال

ولم يكن انتقادات الناس الى عاصمة الازياء وانتظارهم  
منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب  
هذه المدارس بمختلف الاسماء والاراء ، وانما صادفت  
هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع في السليقة  
الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع  
بلغ مداه واستنفد قواه

فلا تجد في غير فرنسا ولما كهذا الوُح بالمدارس  
الادبية المتلاحقة ، ولا ساما كهذا السأم من أسلوب بعد  
أسلوب ، وصبغة بعد صبغة

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية  
أو الاعلام البارزة من افذاذ الادب المعدودين ، وانما  
تجدها في بيئات الاوساط واشباه الاوساط السذيين  
يخضعون لموجات انقلاب وحركات التكلف والاصطناع  
أما اعلام الادب الفرنسي من امثال مولير وراسين  
وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه واناتول  
فرانس وبروست فانت لا تجدهم تحت راية من هذه  
الرايات ، ولا على شارة من هذه الشارات ، واذا بدت  
على احدهم مسحة من هذه الصبغة او تلك فهي مسحة  
لا تنحرف به قط عن اللونين الخائدين اللذين يرجع الانقسام  
بينهما الى طبيعة الانسان لا الى قلب الازياء بين جيل  
وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، او لون  
البساطة ولون التتميق ، وسهما بعد ذلك بما تشاء  
من الاسماء

وكان الصف الاول من صفوف الطليعة فى هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الاساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على السنة الفلاسفة والشعراء

ثم تفنن الادباء فى المجاز على أنماط شتى من الاساليب المجازية التى توشك ان تتعدد بتعدد الأحاد . . فأسلوب هوجو مجازى ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها فى موكب دائم من الطبول والابواق ومن اغنائم والاسلاب ، واسلوب لامرتين مجازى ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا فى عالم مسحور تتهامس فيه الارواح وتخافت فيه الاصداء

واتفق فى الايام الاخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ونزعت كلتاهما الى الاسلوب المدرسى البسيط - أسلوب اللاتين واليونان - ممزوجا بلون الدراسات العلمية التى اشتغل بها كل عقل مثقف فى عهد المدرسة البرناسية على التخصيص

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لان اصحابها يسمون انفسهم بانبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن فى اليونان القديمة . فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الادب اليونانى القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصرى على نمط لم يعرفه قدماء اليونان

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أى الكلمة فى موضعها



الذي لا تتجاوزه للتنميق أو للتحويل ، وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد آخر غير احكام التعبير وحسن الاداء

وأفرط البرناسيون كما يفرط اللعاة الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الاخير ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان أفراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين

### ٣ - مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الانسان ، بل عادة قديمة في بديهة الانسان

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش أو ماردمرهوب

والكاتب الذي لم يعرف الحروف الابجدية يرمز الى المعاني باشخوص والرسوم ، ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لانها نوع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والالغاز ، لانهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخالها ، فيختارون الرموز في التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح

والنساك المتصوفون يرمزون لانهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لانهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف

حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى  
زيادة ايضاح

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون  
بها وقد يدينون بغيرها ، فيشرون الى عقائدهم برموز  
يفهمونها ويجعلون للالفاظ الشائعة معاني غير معانيها  
المتفق عليها في اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز  
اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة او صورة  
ظاهرة ، كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط  
الى الافلاك او العناصر او المقادير

فالرمز شيء مألوف في تعبير الانسان وفي طبيعة  
الانسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها  
معرض الرمز والكتابة ، وهي حالة الاضطراب والعجز  
عن الافصاح ، فلم يرمز الانسان قط وهو قادر على  
التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى  
واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز اسلوب متفق عليه  
لا يحتاج الى مدرسة تنبه الازهان اليه . فالخيال لا يستشير  
مدرسة من المدارس لتشير عليه ان يحلم بالصور والتشبيهات  
او يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء ،  
والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والازهار فألبسها  
ثياب الاحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخيل  
والتشبيه فالناس لا يحسبون من هذه المدرسة او تلك ،  
لان المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة  
البدهة الانسانية حيث كان الانسان وبأى لغة من اللغات  
الغز أو ابان

وفحوى ذلك أنه لاجابة الى مدرسة لتعليم الناس

كيف يرمزون ويكونون حين ينبغي الرمز وتنبئ الكناية ،  
ولكنهم قد يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة  
قد ينسونها في دفعة الافراط والمفالة ، وهي أن الحياة  
تنطوي على كثير من الاسرار ، وان العالم نور وظلام  
وجهر وخفاء ، وانه يفاجئنا احيانا بمعاني لا ترجم عنها  
الالفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة والاستعارة ، او عن تمثيل  
الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هذا التذكير  
في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه  
الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لانها  
كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ،  
ولكنها أظهر ماتكون حين يكون الاندفاع من الاطراف  
الى الاطراف

فالعالم الاوربي قد تنقل في ثلاثة اطوار عقلية منذ عصر  
الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور  
ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى  
أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة  
الإنسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه  
وغلوائه ، وهي أن البديهة الإنسانية تشاطر العقل حقوقه  
في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود

ففي الطور الاول كان السلطان للكهنة ورجال الدين ،  
وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي  
مرجع المراجع كلها في العلم والحكمة والفنون والآداب

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء وزعم أن  
العلوم التجريبية وحدها كفيلا بالكشف عن جميع الحقوق  
وجميع الاسرار

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الاطوار ، فنار المفكرون أنفسهم على العقلية «Rationalism» كما نار الفنانون على الواقعية «Realism» وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الاداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور

بل ظهورا « متأخرين » عن رواد هذا المذهب في الاداب الاوربية الاخرى، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على الاداب ..

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوى في أرجاء القسارة الاوربية قبل ان تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية الى لغة الاغوار والكنيات ، وكان كولردج وبروننج وسوينبرن وتنيسون من اعلام الشعر الانجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض . ويكفي ان يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسو وفولتير ، وتأثير بيرون في لامرتين ، ليذكر ان المدرسة الرمزية في الاداب الفرنسية لم تكن فريدة في الاداب الاوربية حين ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر وراجت الى اوائل القرن العشرين

لكنها ظهرت سائغة مدعوة الى الظهور بدعوة التطور في التفكير والشعور، ثم استحققت الاحتجاب قبل ان تتمكن من الثبات على الاساس الصحيح . وصدقت عليها انكاهة لمتى تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول الجنون ، حين قالوا انه كان يفنى بدرهم ويسكت بدرهمين

فان المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها مرة وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون ان اطلقوا

عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار «Decadents» ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لان شعراءها وكتابتها قد جعلوا ديدنهم من الرمز ان يرمزوا الى كل وضع خليع، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيات لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الاغرض منهما على الاوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الواضح ولو كان الواضح اجمل في اللفظ واقرب الى البديهة واثبت في الافهام

وما هو الا ان تلقفوا من الافواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعى الباطن » و « الماوعى » المكنون في اطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامعة الى رمزية أبعد منها في التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ماوراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والالغاز بالالغاز وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لان رواحها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والادعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الأحاد من طلاب الصور الملققة بين الاغنياء

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعى الباطن انهم لا يفقهون ما هو الوعى الباطن وما هو الوعى الظاهر على السواء ، فان الوعى الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيمهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، ومن شأن العقل الباطن ان يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغى العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الاجسام

والاشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم أو الريشة  
بالتخمين والتنجيم عن اوعى الباطن أو العقل الباطن  
لانهم يستعدون لصناعتهم بمزج الالوان ونقل الاشياء  
لا بالتدرب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الالغاز  
فالرمزية في حدودها المعقولة - مالم تجعل الدنيا كلها  
رموزا وكنيات واطيافا - تعيش في الظلام ولا تعيش في  
الضياء ، وهي ضرورة ماثرة للانسان بضرورتها في  
تمثيل الدقائق والاسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة  
الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها  
« الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة  
بذاتها لان الانسان لا يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا  
يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح  
ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية .  
وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن  
استعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم  
تفسد هذه الاستعارات الا حين أصبحت فنا مصطنعا  
وانقطع ما بينها وبين البدهة الصادقة والتخيل السليم

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه  
الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين  
والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الاوربي عامة  
من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند  
ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا  
بدرهمين

# فهرس

صفحة

٢٩	الفصل الأول : ولادة قلم
٥١	الفصل الثاني : فلم يشق طريقه
٧٣	الفصل الثالث : الصحافة قبل حسين سنة
١٠٩	الفصل الرابع : أزمة قلم
١٢١	الفصل الخامس : بين الأمل واليأس
١٣٣	الفصل السادس : بين الوظيفة والصحافة
١٤٧	الفصل السابع : في الحرب العالمية الأولى
١٥٩	الفصل الثامن : بين الموت والحياة
١٧١	الفصل التاسع : ذكريات وشخصيات
٢٣٣	الفصل العاشر : في أرض الميعاد
٢٥٥	الفصل الحادي عشر : دين وفلسفة
٢٩٥	الفصل الثاني عشر : في الشعر العربي
٣٣٣	الفصل الثالث عشر : أدب وفن

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ١٩٢

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

Sr. Miguel Maccui Cury,  
R. 25 de Marco, 994,  
Caixa Postal 7406,  
Sao. Paulo, BRAZIL

البرازيل :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit  
Almaktab Attujari Assharat,  
P.O. Box 2205,  
SINGAPORE

سنغافورة :

ARABIC PUBLICATIONS  
DISTRIBUTION BUREAU  
7, Bishopsthorpe Road  
London S.E. 26  
ENGLAND

انجلترا :

Mr. Mohamed Said Mansou  
Atlas Library Company,  
25, Nnamdi Azikiwe Street  
LAGOS NIGERIA

نيجيريا :



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٦٥ - شعبان ١٣٨٤ - ديسمبر ١٩٦٤

No. 165 - December 1964

## مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب  
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : ( ١٢ عددا ) في الجمهورية  
العربية المتحدة جنيه مصري - في السودان جنيه  
سوداني في سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا  
لبنانيا - في بلاد اتحاد البريد العربي جنيه و ٣٠٠  
مليم - في الأمريكتين ٥ دولارات ونصف - في سائر  
اتحاء العالم ٣٥ شلغا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آته ،  
ليبيا ( بنغازي وطرابلس ) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥  
فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

## هذا الكتاب

سئل « سعد زغلول » مرة عن رأيه في « العقاد : الأديب » فقال : « أديب فحل ، له قلم جبار .. ما قرأت له بحثا أو رسالة في جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الإعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا احاط به جملة وتفصيلا احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد » .. ويضم هذا الكتاب باقة مختارة من البحوث والمقالات ، تحكى قصة حياة هذا القلم الجبار منذ ولادته ، وتتابعه فيما مر به من معارك وأزمات ، وماتخطاه من أشواك وعقبات في سبيل المبادئ ، التي عاش بها ولها ، كما تعطي صورة حية نابضة للفكر العبقري الذي يتناول الموضوعات في تحليل دقيق واحاطة شاملة وفهم عميق ..

Bibliotheca Alexandrina



0399745